رقص الطبول

(وقصص أخرى من أمريكا اللاتينية)

ترجمة: محمد إبراهيم مبروك

تقديم: د. محمد أبو العطا

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• رقص الطبول
• ترجمة: محمد إبراهيم مبروك
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
256ص. 5ر13 x 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبدالعال
• رقم الإيداع: ١١٩٦١/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 978-977-479-427-6
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

80

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
طلعت الشايب
مدير التحرير
تغريد كامل إمام
سكرتير التحرير
وليد محمد عبد العزيز

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

رقص الطبول

الإهْــداءُ

إلى رضا كامل خالد
عينان وضاءتان، بحيرتا صدق وصراحة، منحتنى مع يدها: التعاطف والحنو والحب، ومن نضج عقلها وسمو روحها : الفهم والمساندة والثقة لنحيا حياتنا معا وفق ما نحب ونعتقد.

هل كنت أستطيع نشر ولو قصة واحدة من هذه القصص دون أن تقرأها، فتغتسل كل واحدة منها فى المياه الرقراقة العذبة لعينيها الوضاءتين، أو أملك سوى الشعور بامتنان غامر لما تقدمه لحياتنا معا، وماتقدمه لى، إذ تقرأ ما أترجمه بحس جميل، وأمينة مع نفسها ومع ماتقرأ: تضيىء برأيها مافاتنى وما أدركته.

مع كل هذا الصنيع الجميل، أكان يليق بها أقل من إهداء ترجمة هذه الأعمال لها، أرجو أن تقبله، شريكتى فى كل ما أرى وأحب وأحيا، وأن تصدق ما أؤمن به: أننى أمام كل ما تحبونى به الحياة وهى فى قلبها، يتراءى أمام عينى كل مديح لكل تلك العطايا: أقل!

م. إ. مبروك

مقدمة

حين نشر ميجل دى ثربانتس مجلد «قصص مثالية» (١٦١٣)، قبل عامين من نشر الجزء الثانى من «دون كيخوته» وثلاثة من وفاته، كان يعى، كما يقول فى المقدمة. أنه أول من يكتب قصصا بالقشتالية»، قصصا على النسق الإيطالى. تلك المقدمة ـ على إيجازها ـ وافرة الأوجه وكاشفة . قصص «مثالية» لماذا؟ يفسر: إن نقل نموذجية فلا محيد عن نموذج أصلى تكتب على غراره، «لأن القصص العديدة المطبوعة، يقول، مترجم جميعها عن لغات أجنبية» (..) «أما هذه فهى قصصى وتخصنى، ليست مقلدة أو مسروقة، أنجبها خيالى وولدتها ريشتى». مثالية هى إذن لكونها أصيلة، ثابتة مبكرة ومميزة رسخ لها أمير السرد الأسبانى وتمثلها من بعده كبار القصاصين فى أسبانيا وأسبانو أمريكا على مدار حوالى أربعة قرون.

فى نفس المقدمة، يرسم ثربانتس على شفتيه «إيماءة» مازحة حين يقول للقارئ: «لو أن فى مغزى هذه القصص، على أى نحو من الأنحاء، ما يستحث فيمن يقرؤها رغبة أو فكرا شريرا لقطعت يدى التى كتبتها بها قبل نشرها على الملأ»... هذا المنحى من معابثة القارىء بسخرية تحتانية أو مفارقة (فماذا سيتبقى له بعد أن فقد ذراعه فى معركة ليبانت الشهيرة؟) ألقى ـ ولم يزل ـ بظلاله الممتدة على السرد المكتوب بالأسبانية حتى زماننا، تخييل أصيل ومفارقة وشىء تعلمه كتاب الأسبانية من كيبيدو: أسلوب دافق ومتواتر ومتألق.

وفى أمريكا الأسبانية، ومنذ قصص ثربانتس «المثالية» تراتبت تيارات وتيارات فى القص تقاطعت بشكل أو بآخر مع تلك العناصر الثلاثة المذكورة.

وإذا كنا نحتفى بما بلغته الرواية الأسبانو أمريكية من مجد منذ بداية هذا القرن، من لا يذكر «متحف رواية الأزلية». (ماثيدونيوفرناندث) أو «السيد الرئيس» (ميجل أنخل استورياس)أو «بدروبارمو»(خوان رولفو) أو «أنا الأعلى» (روا باستوس) أو«النفق» (أرنستو ساباتو) أو «لعبة الحجلة» (خوليو كورتاثر) أو «أرضنا » (كارلوس فوينتس) أو«مائة عام من الوحدة» (ج . ج. ماركث) من بين أخريات؟ لا ينبغى أن تغيب عنا كذلك المكانة المتقدمة التى وصلت إليها القصة فى أمريكا الأسبانية، أو يغيب عنا روادها العظام. سلاما أوراثيو كيروجا! بورخس، كورتاثر، رولفو، سلاما!

حتى كبار الروائيين هنالك تفوقوا فى كتابة القصة وفاقت قصصهم رواياتهم فى غير القليل من الأحيان، نذكر منهم: روا باستوس (خاصة مجموعته «الرعد بين الأوراق») وخوليو كورتاثر والبيروانى خوليو رامون ريبيرو.

ثمة من يقول أن محب الأدب ومترجمه أديب فرضا أو فعلا. وهناك رأى للكاتب الكوبى ايبرتو باديا يذهب إلى أن تترك ترجمة روائع الأعمال الأدبية للأدباء، فجويس ترجمه بورخس، ويورسنا ترجمها كورتاثر فى أروع تحفة أدبية مترجمة إلى الأسبانية (مذكرات أدريانو) إلخ..

والأستاذ محمد إبراهيم مبروك، أديب، مجيد، نذكر له رائعته «نزف صوت صمت نصف طائر» ومقل ـ برغبته وضد رغبتنا ـ ويقرأ الأدب المكتوب بالأسبانية بعين المحب، وأعلم أن خبيئة مكتبته تعد بالنادر منه، وهو اختار الترجمة عن الأسبانية وأمسك فى ممارستها بخيط «أردياني». وتخير من أزاهير القص الأسبانو أمريكى باقة منوعة تمثل عدة أجيال واتجاهات سيعود القارئ إليها ـ بلا ريب ـ أكثر من مرة.

د. محمد أبوالعطا

الحصان الذى كان يشرب البيرة

جوان جيمارايش روزا - البرازيل

فى جو من التكتم ظلت مزرعة الرجل غارقة فى الظلمة بين الأشجار الضخمة الكثيفة المحيطة بها، كما لو أن أحدا لم ير أبدا أشجارا كهذه مزروعة حول دار، كان رجلا غريبا كما سمعت من أمى، فالسنة التى وصل فيها إلى ناحيتنا ،كانت سنة اجتياح الأنفلونزا الأسبانية لنا، وصل إلى هنا فى حالة من التوجس والجفول من الناس، ليشترى مزرعة ليتحصن فيها، لأبدأ بالدار وسطها، وفى أية نافذة يمكن أن تفاجئك يدان ساهرتان على حراسة المكان ممسكتان بينهما ببندقية من الطراز القديم. بماسورتها الطويلة، وفى ذلك الوقت لم يكن الرجل مفرطًا فى السمنة إلى الحالة التى انتهى إليها هذه الأيام، هذه الحالة التى أصبحت تثير القرف منه، مثلما يحكون، إذ يأكل بطريقة مقرفة جدا، يأكل قواقع، بل

وحتى ضفادع، ومعها كومة خس منقوعة فى جردل الماء. وكنت أراقبه خلسة وهو يفطر أو وهو يتعشى، منتحيا جانبا على عتبة الباب خارج الدار، وبين فخذيه السمينتين يستقر الجردل على الأرض وبجانبه كومة الخس. بالإضافة إلى حلة أرز أبيض بدون لحم، كان يشترى عددا كبيرا من زجاجات البيرة لحسابه، إلا أنه لم يكن يأخذها ليشربها وحده فى الحال، وذات يوم تجاوز حدوده، وأمرنى : ايريفاليني. هات زجاجة بيرة ثانية، أنها للحصان يا عبيطة.. أنا لا أحب أن يأمرنى أحد بعمل شئ له، ولا أحب أن يكون لأحد فضل علىَّ، ولهذا السبب فإننى فى مرات أحمل له البيرة، وفى مرات أخرى لا أحملها له، أماهو، فالحقيقة أنه يكافئنى، ويعطينى حقى من النقود، بل وأكثر، إلا أن كل شىء فيه يغيظنى. فهو لا يعرف حتى كيف ينطق اسمى صح! ثم أننى لا أقبل أن يغلط فى حقى أو يهيننى ثم يتأسف لى، لست أنا التى تقبل الأسف من واحد قليل القيمة مثله.

كنا أنا وأمى من قليلين يمرون من أمام بوابة مزرعته عند عبورنا الترعة الجارية أمامها، وكانت أمى تكلمنى عن ظروفه: أتركيه فى حاله.. المسكين شاف الويل فى الحرب. وهو يحرس نفسه بكلاب كثيرة من كل نوع. يحتفظ بها دائما بالقرب منه.. كلاب ضخمة الحجم لحراسة المزرعة. وكان فيها كلب لا أطيق رؤيته.

كلب مرعب وكريه وأقل الكلاب ألفة مع الناس كلها، ومع ذلك فهو لا يفارقه أبدا، بل يتبعه فى كل وقت، وزيادة فى احتقاره، فهو يسمى

هذا الكلب : ابن الشيطان، موسوليني.

فاض بى حقدا عليه، فكنت أكلم نفسى: كيف أن واحدا من هؤلاء الغرباء، غليظ القفا، وبكرش، وصوته مزكوم دائما من نزلات البرد، غير طبيعى لدرجة تجعل الانسان يتقيأ من منظره، صحيح إنه يمتلك ثروة وله مكانته فى الناحية، لكن كيف يحق له أن يجىء ويطلب على الملأ دستات من زجاجات البيرة، ويلت ويعجن فى كلام ماسخ عن البيرة، وأنها للأحصنة التى عنده فى المزرعة.. الأحصنة الأربعة أو الثلاثة والتى هى دائما مجهدة، مع أننى لم أره أبدا راكبا حصانا منها! ومن الواضح أنه لا يطيق ركوبها، بل يكتفى فقط بالمرور سيرا على قدميه.. رجل تيس! لم يكن يتوقف عن التدخين. ويدخن سيجارا قصيرا له رائحة فظيعة. ولايكف عن مضغ شىء بين أسنانه فيظل يريل.

«بيريثيا إنسانة طيبة ومستقيمة وتتصرف بعقل . باب دارها مقفول عليها دائما، وتفكيرها شطح، وأوصلها إلى أن الدنيا كلها حرامية».

هذا ما قالته لى أمى التى كانت تقدرها وتعاملها بود وحنية. «لكنه لم يفلح معى، لم يعمل حسابه أننى من الممكن أن أغضب. وعندما مرضت أمى مرضا خطيرا، وقدم لى نقودا كمساعدة فى علاجها، قبلتها منه، قال ليس الأمر كما تظنين، لا يوجد هناك من يمكنه مواصلة الحياة بلا سند، لكننى لم أشكره على ذلك، ومن المؤكد أن لديه شعورا بتأنيب الضمير، لكونه غريبًا وغنيًا. وللسبب

نفسه لم أوافق على أن أقوم بخدمته.

أمى، ربنا يقدس روحها رحلت وغيبت فى ظلمة القبر، والرجل اللعين دفع تكاليف الدفن، وبعدها حاول معرفة إذا ما كنت أحب أن أذهب لأشتغل عنده، ووضعنى بذلك فى موقف محرج، لكن أنا عارفة نفسى، ولست خائفة، وعارفة أننى وبالذات فى وقتنا هذا، على أن أواجه كلام بعض الناس أو غيرهم، قليل من الناس من يمكنه أن يتحمل فى مواقف كهذه، لكن لابد لى من ذلك، ولو فقط لحماية نفسى فى النهار أو فى الليل أمام (الرايحين والجايين) ثم أنه لا يترك لى فرصة لتأدية شغلى، وليس وراءه سوى أنه يجىء ويبقى من باب الكسل، ودائما يأتى ومعه سلاحه، لكنه لا يكف أبدا عن الصراخ بأوامره فى وجهى، البيرة يا اريفالينى، إنها للحصان، يقول ذلك بشكل جاد وبتلك الطريقة لا يتوقف أبدا عن اللت والعجن فى كلامه معى بلسانه الأشبه بمضرب البيض، وإن شاء الله ستلحق بى الشبهة، وستأتينى شتيمتى لغاية عندى بسببه، كلما رأونا معا.

لكن كانت أكثر الأمور إثارة لاستغرابى، تلك التى تجرى خفية فى الدار الكبيرة والقديمة والمقفولة ليل نهار، لم يكن بداخلها حتى ليأكل أو يطبخ، كل شىء يحتاجه يتم فى هذه الناحية القريبة من البوابة، فكرت فى الأمر نفسه عندما حدث لعدة مرات وذهبنا إلى هناك ودخل، ولم يكن ذلك للنوم، أو لحفظ البيرة، بل كان ذلك من أجل الحصان.

انتظرى أنت يا خنزيرة، فربما يجىء يوم، لا تكون فيه صحتى

كما يجب، وساعتها إذا ما نادى أحد من خارج الدار، فسيكون لزاما على وقتها أن أبحث عن أناس يعتمد عليهم، أناس مخلصين، ولأن الاحتياط واجب فلابد أن أنفض عنى شكوكى، وأطلب منهم مساعدتى، أعرف أن هذا لن يتم ببساطة، لأننى لا أسلم من الشائعات، أضيفى إلى ذلك، أنك سترين بنفسك مايجرى هنا عندما سيهلون ـ أيضا ـ أولئك الذين سيأتون من الخارج.

الرجلان الغبيان الواصلان من العاصمة كما أخبرنى دون بريستيليو وهو يشير ناحيتهم، وقال: ريفالينو بلارمينو، هؤلاء الذين حضروا إلى هنا، لديهم أمر بالبحث والتحرى، ولن يتوقفوا عن ذلك إلا إذا وصلوا إلى إثبات التهمة عن طريق الاعتراف.

واللذان وصلا من الخارج، أخذانى على جنب، وتكلما معى بحيث لا يسمع الكلام أحد غيرى.. سألانى أسئلة كثيرة كان هدفها كلها أن يسمعا أخبارا عن الرجل. إنهما يؤكدان ويريدان معرفة ما الذى يربط بين أمور كثيرة تبدو وكأن لا أهمية لها، تحملتهما إلى حد ما، لكن أكثر من هذا لم أعطيهما ولم ينالا شيئا منى، ولم أزد عن أن رددت بينى وبين نفسى: هل هى الصدفة التى جعلتنى أولد خلاسيه، حتى يعضنى الكلب؟ همهمت بذلك معبرة عن شكوكى من المنظر المزعج لهؤلاء الملثمين، بل السفلة أيضا.

لكنهما دفعا لى مبلغا طيبا، والشخص المهم فيهما والذى يدارى ذقنه بيده سألنى محذرا: لماذا لا يكون صاحب الدار رجلا شديد الخطورة.. وهل يحيا حقا حياة طبيعية؟ أعنى حياة عادية؟ وإن على

أن أمعن النظر فى أول فرصة وأتأكد إذا لم يكن يوجد على إحدى رجليه عند الكاحل، أثر قديم للحجل، أو حلقة القيود الحديدية لمجرم هارب من المعتقل. نعم ربما يكون هو، والآن وقد جاء دورك، كونى عند وعدك لنا.

رجل خطير على؟ آه... آه! ربما كان ذلك جائزا أيام شبابه، أيام لهوه وفجوره، ياللعجب! أيامها كان باستطاعته أن يكون رجلا، لكنه الآن رجل بكرش مسرف، وسمين وتعيس، ولا يريد شيئا سوى البيرة، من أجل الحصان. ومع أنه لا يشكو: فكم هو بالغ التعاسة. أما فيما يتعلق بى، فإننى لم أحب أبدا طعم البيرة، ولو كنت أحبها، لكنت اشتريتها، كنت سآخذها أو أطلبها منه، وهو كان سيعطيها لى بنفسه. وهو أيضا، كما قال لى. لم يكن يحبها أبدا.

هذه هى الحقيقة، لم تكن أكلته تزيد على كوم خص وقطع لحم يمتلىء بها فمه الكبير المثير للقرف بما يتساقط فيه ويلوثه من الزيت ويظل يلعق الأكل بلسانه حتى يطفحه، وعند انتهائه من أكله يكون أقرب إلى فقدان الوعى، هل عرف بوصول الذين قدموا من الخارج؟ لم ألاحظ أثر الحلقة الحجل الحديدية فى رجليه، فلم أشغل نفسى بذلك، وربما واصلت ماكلفونى به أملا فى أن أكون فى خدمة المأمور، مدفوعة بكل الشكوك مع وضع أمور كثيرة فى الاعتبار، لكننى أرغب فى التوصل إلى طريقة ما لمعرفة أى شىء ولو من خلال شق فى هذه الدار، وعن المفاتيح الخفية للتجسس عليه. والكلاب لابد أن ترتد كلابا أليفة لأتمكن من مصاحبتها. لكن دون جيوفانى بدا مرتابا،

ولذلك فإن ما أدهشنى ساعتها أنه نادانى ثم فتح لى باب الدار، أخذنى ومضى بى للداخل حتى هبت الرائحة الكريهة من شىء ظل دائما مخفيا. ولا شىء يبدوبحالة طيبة: الصالة واسعة وخالية من الفرش، كان لا غرض منها سوى اتساعها الخالى، وهذا ما أراد أن يريه لى، وكما أراد، تركنى لأرى على راحتى، بل وتمشى معى خلال عدة حجرات حتى اكتفيت . ولكن آه.. فبعد قليل وبينما كان يتمشى معى أدرت الفكرة فى رأسى ووصل تفكيرى للسؤال: وماذا عن الغرف المغلقة؟ كانت كثيرة، وأبوابها كلها مغلقة بإحكام، ولم أكن قد دخلتها، ومن خلف بعض تلك الأبواب، انتابنى شعور داخلى بأن شيئا ما على وشك أن يحدث، ولكن: هل فقط كان الوقت متأخرا جدا؟!..آه، الغريب البائس يريد أن يضع حدا للتهور فى حياته.. وأنا، ألست أكثر رغبة منه؟

وزاد من تفاقم الأمر، ومن خلال الأقوال التى ترددت بعدها بأيام قليلة، قد سمع فى وقت متأخر من الليل، ولمرات عديدة متفرقة، صوت رمح حصان فى السهل المقفر، حصان خرج من بوابة المزرعة، هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؟ ساعتها فإن الرجل يكون قد خدعنى بشدة وقتا طويلا يخدعنى فيه بشغل العفاريت الذى يعمله معى، لكن هناك شىء واحد فقط وهوالذى استوقفنى: شروده الدائم الذى لم أستطع فهم سببه، وحتى لا أظلمه فيما لست متأكدة منه: هل حقا كان لديه هناك بالدار حصان غريب مختف فى العتمة، ودائم الاختفاء داخلها؟

ومرة أخرى نادانى دون بريسشيليو، فى ذلك الأسبوع نفسه وأولئك القادمون من الخارج كانوا حاضرين. وكما يتصرف الشريك فى المؤامرة، وباعتبارى عينهم عليه، انتحيت جانبا بواحد من الاثنين فى هذه القضية، الواحد الذى سمعت عنه أنه يعمل فى القنصلية، غير أنى وجدت نفسى أحكى له كل شىء، تقريبا، من باب الانتقام، بسبب أمور أخرى، ولقد ركزوا فى الوقت نفسه على مهمة دون بريسشيليو، وأبدوا رغبتهم فى أن يظلوا متوارين فى الخفاء، ولذلك، يجب أن يذهب دون بريسشيليو وحده، ودفعوا لى مبلغا كبيرا.

وصرت، كلما ذهبت إلى الدار هناك نظرت، من باب التحوط، بأنى، لا أنا أعرف شيئا ولا أنا موجودة.

وظهر دون بريسشيليو وأخذ يتكلم مع دون جيوفانى:

إيه حكاية الحصان الذى يشرب البيرة، والتى يدور الكلام عنها بكثرة؟

وظل يسأله ويضيق عليه الخناق، وبدا دون جيوفانى مرهقا بشدة وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا ببطء، ورشح الزكام ينزل ويسيل فى قطرات بللت عقب السيجار، لكنه لم يظهر الوجه السيىء منه للرجل الآخر الواقف أمامه، حك جبهته مرارا بباطن كفه:

إذا فالعدالة تقتضى أن ترى؟

وخرج ثم ظهر فجأة ومعه سبت مكدس بزجاجات البيرة الملآنة. ومعه أيضا جردل خشبى، وفى الجردل، أفرغ كل الزجاجات حتى فارت الرغاوى والجردل طفح، وأمرنى أن أذهب لأحضر الحصان

الأشقر بنصاعة لونه، لون القرفة، وبوجهه البالغ الجمال.

ـ هذا هو الحصان، هل هذا ماكنت تظنه ؟

وتقدم الحصان مندفعا فى حيوية، بأذنيه المتحفزتين، ودار بمنخاريه وهو يحرك فكيه، وظل يعب البيرة حتى شربها كلها، صوت شربه كان يكشف استمتاعه بما يتذوقه إلى أقصى حد. أرأيت كم هو فاجر، ومنقوع فى هذا الشراب ! أممكن مايحدث ؟ ومتى علموه الشرب؟ ولكن هذا صحيح، نعم، فالحصان مازال يريد بيرة أكثر فأكثر، شعر دون بريسشيليو بالخجل من نفسه، وفى اللحظة نفسها هم بالانصراف وشكر صاحب الدار ومضى خارجا. أما سيدى صاحب الدار فبصق خلفه ونظر ناحيتى:

ـ ايريفالينى.. أيامنا هذه كم تغيرت، وإلى أى حد صارت أياما سيئة! «حذار أن تترك سلاحك يفارقك». وافقته فيما يقول. وابتسمت لامتلاكه كل هذه الحيل، والقدرة على الخداع، والحال نفسه كنت أنا غرقانة فيه وسطهم، وهذا ما ضايقنى.

ولذلك، فعندما عاود القادمون من الخارج المجيء، تكلمت عما حيرنى وفكرت فيه: ما هى الأمور الخفية الأخرى والتى لابد أن حلها موجود خلف الأبواب المغلقة لبقية غرف الدار.

وفى هذه المرة جاء دون بريسشيليو ومعه شرطى، وكل ما طلبه أنه يريد فقط إلقاء نظرة على غرف النوم، كما تقتضى العدالة!

ودون جيوفانى، بوصفه رجل مسالم ويتصرف دائما بتعقل أشعل سيجارا آخر، وفتح باب الدار ليدخل دون بريسشيليو والشرطى،

وأيضا أيضا، غرف النوم؟... آه .. تحرك وكان سلوكه بالغ النزاهة والأمانة فى كل ما يتعلق بالكائن الحى الذى ظل غامضا، عصيًّا على الفهم، نوع من الكائنات الخارقة التى تبعث على الذهول، هناك بالداخل، بحجمه الهائل، ولم يكن هناك سواه. وأنه هو، الكائن الذى لا وجود لمثيل له! حصان أبيض، هائل الحجم، محنط، وأقرب إلى أن يكون حيًّا، مربع الوجه، مثل لعبة طفل، شديد النظافة، ناصع البياض، غزير شعر عرفه عريض الكفل، شاهق العلو كحصان من أحصنة الكنيسة، كما لو أنه حصان سان جورج، كيف استطاعوا إحضار هذا الحصان، أو إرساله حتى وصوله إلى هنا: ليتم إدخاله بكامل تجهيزه وزينته ؟ ارتبك دون بريسثيليو غارقا فى خجله، بالرغم من كل أمارات الدهشة الصاعقة، مازلت أتلمس حضور الحصان، وافتقده كثيرا إلا أننى لا أجده: حقيقة كان أم خدعة، وعلى هذه الحال بقى دون جيوفانى وحده معى يقضم عقب سيجارة؟

ـ ايريفالينى... لقد غلطنا.. وغلطتنا أننا لم نحب البيرة... أليس كذلك؟

وافقته على رأيه، واجتاحتنى الرغبة فى أن أخبره عما كان يحدث من وراء ظهره.

دون بريسثيليو وهؤلاء القادمون من الخارج، لابد سيتخلصون الآن من كل أشكال الفضول لديهم، لكن شعورى بالفضول لم ينته. فماذا عن بقية الغرف بالدار، تلك التى خلف الأبواب المغلقة؟ كان لابد أن يفتشوها كلها تفتيشا دقيقا. يفتشون كل واحدة لوحدها. ثم

كلها دفعة واحدة بالمرة. لكن الأكيد أننى لم أكن أنوى تذكيرهم بمواصلة البحث فى هذا الاتجاه، ولست أنا من عليه تقسيم ورق اللعب فى الكوتشينة، وعليه التغطية على الورقة المطلوبة. وبدأ دون جيوفانى يتكلم معى. وفاض فى الحديث عن تأملاته:

ـ «ايريفالينى. وكأن صوته صدى. الحياة قاسية يا ايريفالينى، والناس تعساء..».

لم أرد أن أقاطعه بالسؤال ـ احتراما ـ عن الحصان الأبيض. فهذه أمور قليلة الأهمية، وربما يكون ذلك ما حدث فى الحرب، والتى يقدر أهوالها الكثيرة: أما نحن يا اريفالينى، فإننا نحب الحياة أكثر مما نتخيل.. وودت لو أكلت معه، لكن أنفه المزكوم والذى لا يتوقف عن الرشح، ومخاطه وتنخمه بصوت يزعج من يراه، وبرائحته غير المحببة للسيجار الذى يدخنه، ولكل هذه الأمور المتعلقة به، والتى لا تبعث على الارتياح معه، يجعل خدمة هذا الرجل مصدر لقلة الراحة، وهذا فى الوقت الذى لا يخطر على بالنا، ولا نتكلم عن أحواله التى تثير الإشفاق عليه. وساعتها. خرجت وذهبت إلى دون بريسثيليو وكلمته بلا تردد: أنا لا أحب، من الآن، أن أعرف شيئا عن أى شىء، ولا عن أولئك القادمين من الخارج، مدبرى المكائد وأيضا لا راعى يلعب بسلاح ذى حدين، لأنهم إذا عادوا إليه مرة أخرى فسيفقد صوابه وسيتشاجر معهم صارخا فى وجههم، قفوا مكانكم نحن هنا فى البرازيل، ثم أنهم هم غرباء أيضا.

وهكذا انتزعت منه سلاحه وخنجره، فالدون بريسثيليو قد عرفه،

إلا أنه لمن يعرف كيف يتفادى المباغتة.

وفجأة، حدث ما لم يكن متوقعا: فتح دون جيوفانى باب الدار على مصراعيه و نادانى وفى وسط الصالة، على الأرضية، كانت جثة رجل مسجاة ومغطاة بملاءة.

ـ جوزيبى، أخى... نطق الاسم بتأثر وبصوت بالغ الحنان. أريد القسيس أن يحضر، وأريد أن تقرع أجراس الكنيسة، معلنة موته، وأن تتعالى الدقات سريعة، وفى دفعات من دقات ثلاث، وتتكرر حزنا عليه، لم يكن لأحد أبدا القدرة على القتال التى كانت لأخى ولا تمسكا بما يعتقد: مثله، وعندما ردوهم الأعداء على أعقابهم فى الحرب، أصر ألا ينسحب ناجيا بنفسه، وأن يبقى ليواصل القتال مع جنوده من المقاتلين.

تم تشييع الجنازة، بكل أبهة واحترام، وعلى أكمل وجه. وكان باستطاعة دون جيوفانى، وله كل الحق، أن يزهو ويتيه بذلك أمام الجميع، إلا أنه وقبل الدفن حضر دون بريسثيليو وأوهمنى بأن أولئك الرجال الذين قدموا من الخارج أعلنوا عن مكافأة كبيرة مخصصة لمن يتأكد من الشخصية التى يجرى البحث عنها. ثم طلب أن ترفع الملاءة التى تغطى الوجه.

لكنه لم ير سوى الرعب الذى أحدق بنا كلنا، والنظرات التى تفيض بالشفقة، فالميت لم يكن له وجه، ومايمكن أن يوصف فى كلمات لا يتعدى نقرة، وندبة هائلة قديمة، مفزعة، بلا أنف، ولا ملامح، وما شاهدوه من الميت لا يعدو حفرا مبيضة تبدأ من أعلى

النحر، فأعلى القصبة الهوائية، لأن هذه هى الحرب، كما فسرها لنا دون جيوفانى وفتحة فمه البلهاء، فتحة فمه التى نسى أن يقفلها، بدت وكلها عذوبة.

والآن، وبعد كل ماحدث، فأنا أريد مواصلة السير فى طريقى قاصدة الذهاب إليه، هناك، حيث لن يصادفنى أكثر مما حدث فى هذه المزرعة التعسة، غارقة فى ظلمة أشجار مثل تلك الأشجار التى تطوقها، دون جيوفانى كان خارج الدار، قاعدا على جنبه متآلفا ومنسجما مع ما تعود عليه لسنوات طويلة، حالته الصحية تتدهور أكثر، وتقدم فى العمر بسرعة فبدا كما لو أن ذلك قد حدث فجأة... غارقا فى هموم مؤلمة، وآلامها على وجهه لا يمكن إخفاؤها، إلا أنه كان قاعدا يتناول وجبته المعتادة، من اللحم، وكومة كبيرة من الخس فى الجردل، يأكل بينما يأخذ نفسه بلهاث عال ومتسارع.

ـ ايريفالينى... يا بنت يا بيضاء... يا بنت يا بريئة.. آية عيشة هذه؟

سأل وهو يرددها، يلحنها ويغنيها، كل مرة بطريقة: البنت الشقرا..آه... شبكت قلبى.. شبكت قلبى آه... بكم نظرة!

رددت عليه: وأنا آه قدامك آه... سمكة آه وبالعة الطعم!

وبلا نفور منه أخذته فى حضنى بلا أى احساس بالخجل منه: وحتى لا تغرورق عيناه بالدموع، ولحظتها أقدم على فعل جنونى: نزع غطاء زجاجات البيرة وصبها كلها حتى فاضت الرغوة. هيا بنا نشرب يا ايريفالينى... وقدم البيرة لى: هيا ياحلوتى... يا نادرة فى

الحياة... أحببت فعل ذلك، أحببته بعدما شربت أكثر من كوب، وعند الكوب العشرين.. الثلاثين... وبعد شرب كل تلك الأكواب من البيرة ذهب عقلى تماما: آه يا سيدى..آه لو تطلب يدى، وتخطفنى. وتطير بى محمولة فوق الحصان الأشقر السكران، ويجرى بصحبتنا ذلك الكلب الحزين النحيف: موسولينى.

وبعدها، لم أر أبدا، سيدى صاحب الدار، وأعتقد أنه مات، عندما تأكدت من كتابته وصية، ترك لى فيها المزرعة، أمرت ببناء عدة مقابر، وإقامة قداس له، وقداس لأخيه، وقداس لأمى، وأمرت ببيع المزرعة، ولكن وقبل ذلك، أمرت بقطع الأشجار، وبأن يحفروا حفرة فى الحقل، وأن يدفنوا فيها كل الكراكيب التى وجدت فى تلك الغرفة التى دار الكلام حولها.

لم أعد أبدا إلى هناك، أبدا، فلم أنس ذلك اليوم الذى استثار بداخلى يومها مشاعر الشفقة والحنان، والتعاطف الذى قربنا كل واحد من الثانى، وزجاجات البيرة الكثيرة والتى لا تحصى ولا تعد. وساعتها سكرت للدرجة التى فكرت أنه يمكن لشخص ما أن يفاجئنا ومن خلف هذا الشخص يمكن أن يداهمنا الحصان الأشقر، الوجه الملاءة، حصان سان جورج الأبيض بضخامته الهائلة، الأخ مثيرا فى نفوسنا الرعب بشقائه بلاحد، ماجرى هلوسة، ولا أحد كان هناك. والتى تقول ذلك هى أنا. أنا ريفالينوبيلا رميو «كاشفة الخدع» أخذت كل زجاجات البيرة الباقية، وسأفعل مثلما كنت أفعل، فأنا من استهلكت كل البيرة فى تلك الدار حتى أقطع الطريق على ما يخايلنى ويخدعنى.

الإخوة داجوبى

جوان جيمارايش روزا - البرازيل

كارثة فظيعة، بقيت ماثلة طوال ليلة السهر على جثة الميت قبل دفنها، ليلة داماستور داجوبى، أكبر الأربعة، عتاة المجرمين، الأخوة داجوبى.

وبالرغم من أن الدار لم تكن صغيرة، إلا أن من حضروا إليها، وبقوا للسهر على الميت، باتوا محشورين فيها، إذ لم تكن واسعة بحيث تكفى الجميع، وكلهم أحبوا أن يبيتوا بالقرب من المرحوم، لكنهم، وبلا استثناء، كانوا جميعا خائفين، يستوى فى ذلك أن كان خوفهم هذا كثيرا أم قليلا: من الثلاثة الباقين على قيد الحياة.

وآل داجوبى هؤلاء: شياطين، أناس لا قدر لهم، عاشوا حياتهم فى ضيق وخناقات، بدون امرأة معهم فى السكن، ولا أهل لهم، يتصرفون حسبما يأمر المرحوم، وأمره لا يرد، زعيم العصابة،

وأسوأهم وأكثرهم شراسة، و المعلم الذى كان يسوق أكثرهم شبابا إلى أن تسوء سمعتهم: هؤلاء العيال، كما كان يطلق عليهم، بطريقته الناشفة فى الكلام.

لكنه الآن، مقتول ومسجى هناك، لا حول له ولا قوة حتى يفرض شروطا كهذه، وبعدما سمح للخطر أن يقترب منه حتى صار أمامه وجها لوجه، فوقعت الكارثة.

وفى ضوء الشموع، وبين باقات الزهور، اتخذت ملامح وجهه، دون أن تكون له يد فى ذلك، تلك التكشيرة، والذقن التى لقرصان، وأنفه المعوج، والسجل المعروف لأعماله الشريرة، ولكن نظرتهم له، وفى جو الحداد، كان عليها أن تحتفظ له بلاشك، بالاحترام الواجب.

وبين حين وآخر، كانوا يقدمون للمعزين فناجين القهوة، وكؤوس العرق الحامى، والذرة الفشار: كما جرت العادة، وكانت تسمع همهمات مكتومة من بعض الجالسين المجتمعين فى الأركان المعتمة، أو فى بؤر ضوء القناديل والفوانيس.

أما فى الخارج، فظلمة الليل، كانت مطبقة وكانت قد أمطرت قليلا، وبين الحين والآخر، يعلو صوت أحدهم فى الكلام ثم يهدأ فجأة وهو يشعر بالانكسار، عندما يتذكر كيف أنهم غفلوا عما حدث، وعلى كل حال، ففى النهاية ستتم المراسيم كما يليق به وحسب الأصول، إلا أن كل شىء كان محاطا بجو يثير الفزع.

هاهو من فعلها: سيد محترم، لا أحد يشبهه فى دماثته وحيائه اسمه ليو جورجى، يتمتع بتقدير كل الناس، وهو الذى بعث داماستو

داجوبى للعالم الآخر، وهذا الداجوبى، ولسبب غير معلوم، قد أقسم بأنه سيقطع له أذنيه، وما أن رآه، يومئذ، وهو يتقدم منه وقد شهر نصل خنجره المسنون فى وجه الشاب الذى بدا بالغ الهدوء، والذى كان بحوزته مسدس صوبه مطلقا النار عليه فى منتصف الصدر، على القلب بالتحديد، وإلى هنا وتوقف الكلام.

لكن ما وقع بعد ذلك أثار الفزع أكثر مماجرى، وهو أن الأخوة داجوبى لم يتجهوا للأخذ بثأرهم على الفور، بل، وبدلا من ذلك أسرعوا فى ترتيبات ليلة السهر على الميت، والدفن، وهذا، فى حد ذاته ما بدا غريبا.

خاصة أن المسكين ليو جورجى بقى فى القرية، وحيدا فى داره، فى قبضة ماهو أفدح، فاقدا الرغبة فى الإتيان بأية حركة.

من فى استطاعته أن يفهم ذلك؟ هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة من عائلة داجوبى قاموا بكل ما يلزم عمله بشكل مشرف، وبربطة جأش . وحتى بلا تحرشات أو زعيق مما قد يثير أية مشكلة. بل قاموا به بشىء من الشعور بالرضا وفى البداية، تحرك ديرفال أصغر الأخوة، بهمة كما يلى الواجب، نحو المعزين الذين يصلون تباعا، أو من كانوا موجودين بالفعل: «لا مؤاخذة، أعذرونا عن أى تقصير من ناحيتنا فى حقكم... أما دوريكون، وهو الذى صار الآن كبيرهم، ووضح أنه بالفعل الوريث المهاب والجدير بخلافه داماستور، فقد كان يشبهه فى فخامة جسمه، أقرب إلى كائن يجمع فى هيئته بين السبع والبغل. بفكين بارزين، وعينين ضيفتين سماويتين، يتطلع

بهما إلى السموات، داعيا فى اتضاح: « ليتقبله الرب» وأما أوسط الأخوة ديزموندو، وهو الرجل السمح، فقد عكست ملامحه سمات التقوى وإحساسا بالفزع كلما وقعت عيناه على الجثمان فوق المنضدة: «أخى الصالح..»

والحقيقة أن المرحوم كان بخيلا ولئيما بدرجة فظيعة، بل ما هو أكثر من ذلك، إذ كان محبا للسيطرة وقاسيا، والمعروف عنه، أنه ترك وراءه ثروة كبيرة فى شكل أوراق نقدية كان يحتفظ بها فى صندوق.

تلك الصورة التى ظهروا بها لم تكن تعبر حقيقة عما يخفونه، ومع ذلك فهم لم يخدعوا أحدا، لأنهم يعرفون جيدا، ضمن حسبتهم. النقطة التى لا ينبغى أن يتجاوزوها، وكان ذلك عن طريق مراقبتهم لما يدور حولهم، وبعدها، ما كان عليهم سوى المضى قدما وبالتفصيل فيما ينوون عمله، والأهم أن يتم ذلك بدون مشاكل، وفى مثل حالته فالتسرع لا لزوم له، صحيح أن الدم لا يمحوه سوى الدم، إلا أنه، سواء استغرق ذلك ليلة واحدة، أو ساعات فقط، أو تم خلال القيام بتكريم المرحوم، وماعليهم إلا جعل الأسلحة جاهزة، برفع أمانها، حتى إذا ما انقضوا على ليوجورجى أنهوا الأمر معه.

هذا ما كان يدور فى تعليقاتهم بالأركان، دون أن تتوقف ألسنتهم وشفاههم عن الوشوشة وعن إثارة الاضطراب، وبرغم أن آل داجوبى غلاظ فى مظهرهم فقط إلا أنهم ماكرون فى إصرارهم على الاحتفاظ بمقدرتهم على الظهور بتلك المظاهر، والكبار لا يتركون أى إنسان عليه دين لهم، أو عقوبة فرضوها عليه فى حاله، فيشاهدون

وهم يدبرون لأمر ما، ولهذا السبب نفسه، عليهم ألا يتمادوا فى تجاهل أية حيلة تنطلى على الناس، مما يجعلهم موشكين على الضحك، لقد ذاقوا الدم، ولذاك تراهم دائما، وبترتيب محكم، مندفعين كالعاصفة فى أى لحظة، ليتجمعوا فى الركن عند الشباك، وليشرعوا فى نسج المؤامرة. ولا واحد من الثلاثة ابتعد عن أخويه الآخرين. ماذا حدث؟ لماذا هم حذرون؟ وتجىء لتقترب منهم مرة بعد أخرى: شخصية لها مكانتها، وهى الشخصية الأكبر مدعاة للثقة، وبالنسبة لهم فقد كان أكثر من أب روحى، كان يحمل لهم الأخبار، لكنه أبقاها سرا بينه وبينهم.

شىء غريب! فلقد انقضت تلك الليلة فى خروج ودخول كلما انقطع المطر، وما حاولوا الكلام فيه كان يتعلق فقط بالشاب ليو جورجى والذى أقدم على القتل دفاعا شرعيا عن النفس، ويداه هما اللتان جعلتا داماستور داجوبى يرحل من هذا العالم إلى العالم الآخر، والآن فقد عرف شيئا فشيئا، بين الشموع، وبشكل مؤكد، ما يدور الحديث حوله، فالشاب ليو جورجى يمكث الآن وحيدا فى بيته، ولا يرافقه أحد، فهل فقد عقله؟ ربما لا يرى أملا فى انتهاز الفرصة للهرب، إلى أن هروبه لن يجدى بشىء، ومهما بعد، وحيثما كان، فسيفاجئه الأخوة الثلاثة ويوقعون به، المقاومة لا جدوى منها، ولا جدوى من الهرب، وكل محاولة بلا جدوى، والآن ما عليه إلا أن يتحمل مصيره بصبر، فكان يرى وملامحه تشحب ومن بعيد يمكن رؤية توالى اصفرارها بوضوح بينما هو غارق فى رغبة، ومفلس ولا

قدرة له على فعل أى شىء مجردا من أى سلاح يحميه، وآل إلى روح ضائعة تلتمس التكفير عما جنته، ولن يحدث ذلك حتى..

الفكرة الأولى التى وردت على الذهن، وما من فكرة أخرى غيرها هى أن شخصا ما، حضر عائدا من هناك، وقصد أصحاب البيت حاملا لهم هذه الأخبار التى تتضمنها رسالة تقول: أن الشاب ليو جورجى، الفلاح الشهم، يؤكد لهم أنه لم يكن يجب أبدا أن يضطر إلى ارتكاب جرم قتل أى أخ مسيحى من أبناء بلده، أيا كان هذا الشخص وأن الرصاصة انطلقت لمجرد ضغطة فى آخر لحظة على الزناد، تحت وطأة الإحساس بضرورة الدفاع عن كرامته ولكى يتحرر من هذا العبء، لقد حدثت الكارثة وكأنها قدر مقضى به، وأكد أن ذلك عندما حدث، حدث بشكل لا ينال أبدا من احترامه، وحتى يكشف لهم أصالة معدنه الطيب، تطوع عارضا حضوره إليهم بدون سلاح معه، وسيكون ضمن الموجودين، وأخذ على نفسه عهدا بأنه سيأتى إليهم ليعلن بنفسه، وأمام الجميع، اعترافه بذنبه، وبفداحة الجرم الذى ارتكبه، إذا ما أعطوه الأمان.

كان لونه شاحبا إلى درجة مذهلة، هل شوهد حقا وهو بحالته هذه؟ إذا فلقد جن ليو جورجى هذا من الرعب، وهو بهذا الشكل مقضى عليه لا محالة، فمن أين ستواتيه الجرأة، ولو قدر ضئيل منها. فيقدم على المضى حافيا فوق سعير الجمرات الملتهبة والأقدام على فعل ما سيجعل شعر رأسه يقف من هوله، إذ أن ما يعرفه هو، وأكثر من الجميع، أن حضور القاتل يجعل دم القتيل يطفر من جديد!

هذه أوقات مجزرة، وأسوأ منها، أنه لا وجود لسلطة حاكمة فى هذه القرية.

كان الناس الحاضرون يختلسون النظر إلى آل داجوبى بينما كانوا هم، أولئك الثلاثة، يغمزون برموش عيونهم: فقط، دعه يأتى.. » هذا الكلام قاله ديزموندو، بينما أضاف ديرفال : «براحته..» على أية حال فإكرام الضيف شرف للبيت، وافق سيفيرو بإيماءة، أما دوريكون بجسده بالغ الضخامة، فكل ما فعله أنه لم يشارك فى الكلام، بل بالغ فى سكوته الصارم.

وحول القتيل، استغرق الحاضرون فى تناول ما يدور عليهم من الكؤوس العرق الحارق، وعادت الأمطار للهطول ثانية، وطالت ساعات السهرة على القتيل حتى بدت، أحيانا، أطول مما كانت.

والكارثة كملت بما تناهى إلي سمعهم، وعندها كفوا عن اجتهاداتهم لفهم ما يجرى، وما حدث أن أكثر من مرسال جاء، ولكن هل لديهم الرغبة فعلا فى التوصل للتوفيق بسلام، أم أنهم بذلك يزيدون الطين بلة؟ وأى اقتراح متهور هذا!

والاقتراح كان: أن ليو جورجى يتقدم بنفسه متطوعا للمساعدة فى حمل التابوت..هل ما سمعته حقيقى؟ أى معتوه هذا.. وأى جنون سيسببه لهؤلاء الوحوش الثلاثة، ألم يكتف بما فعله؟ هذا ما ليس بوسع أحد أن يصدقه.

أخذ الكلمة من صاحب الأمر والنهى دوريكون، والذى كان يتكلم بطريقته المحيرة وبلا مبالاة، فاتسعت عيونهم، وهم يصغون لكلامه،

وتجمدت نظرتهم:

«طيب ..يمكنه أن يأتى».

هذا ما قاله، بعدما أغلق التابوت

تعقد الموقف، وما رآه الناس بعيونهم لم يكن يتوقعه أحد.

ماذا لو أنه؟ أو لو؟ الناس راحت تتطلع وتترقب، تنوء قلوبهم بكرب عظيم، وأقل مايتخيلونه هول مؤكد لامهرب منه. كانت ساعات مربكة، وببطء شديد تنفس الصبح وطلع النهار. ورائحة كريهة بدأت تنبعث من الميت . هيا بنا!

وبدون استعراض لقوتهم أو استعلاء منهم: أغلقوا التابوت، دون أن يوجهوا شكرهم لأحد من الحاضرين، وبدون دعوات تتصاعد طلبا للرحمة والمغفرة . كان التابوت طويلا ومكسوًّا بالتنجيد. تلفت الأخوة داجوبى حولهم، باحثين بأعين تنبعث منها نظرات غل. غل لابد أنه موجه إلى ليو جورجى، هكذا خمن الحضور، وسرى الهمس ثم علت الهمهمات من الجميع، واشتد اللغط لينعقد بفجيعه:

ـ «حقا؟! هاهو يأتى حقا.. وتناثرت كلمات أخرى مبتورة.

حقا لقد وصل . وكان عليه أن يشخص فيماحوله بعينين تكاد أن تقتلعا من مكانهما، وكان الشاب ليو جورجى واقفا ،مقضى عليه، كما ضمن الجميع، ولا راد لما قضى به عليه. لم يلق تشجيعا من أحد، ولم يكن قادرا على تشجيع نفسه بسبب ما لحق به من عار، هكذا كان يخطو بروح هالكة، مستسلما بشكل قاتل، واصل خطواته متجها نحو الأخوة الثلاثة:

ـ «مع المسيح»!.

قال ذلك وهو يقف متماسكا، ثم ماذا بعد ذلك؟ هاهم: ديرفال وديزموندو، ودوريكون، الشيطان فى هيئة إنسان، والذى لم يزد على أن نطق بشىء مثل:

ـ هم..آه!...»

ما الأمر؟

تقدم ليشارك فى حمل التابوت ممسكا بالمقبض : ثلاثة رجال لكل جانب. وليو جورجى كان عليه أن يمسك بالمقبض الأمامى للجانب الأيسر، أعطوا الإشارة بالبدء، وانضم آل داجوبى، محاطين بالكراهية من حيث كان الحشد خارجا، وهم ينهون بذلك ما لم تكن تبدو له نهاية. كان المشاركون خليطًامن الناس، أعدادًا، وجماعات صغيرة يخوضون فى طريق ممتلىء بالأوحال، من سارعوا ليكونوا فى مقدمة الجنازة: الثرثارون والمحبون للقيل والقال، أما العقلاء فتراجعوا ليكونوا فى الخلف، كل الأبصار كانت شاخصة إلى الأرض، والتابوت فى مقدمة الجنازة كلها، محاطا بكثير من الارتباكات فى الحركة والوقوف وهى أمور طبيعية فى مثل هذا الموقف بما فيه آل داجوبى الأشرار، وليو جورجى الذى يقف مطأطئا رأسه، كان أهم شىء أن يتم الدفن، ومن ثم تحركت الجنازة.

الرجل جنب الرجل، والخطوة مع الخطوة، والجنازة تتحرك مندفعة بهذا الخليط من كل صنف ولون والأهالى، جميعهم، فى همسهم وسكوتهم، يدركون كلهم، فضولهم الشديد لأن يعثروا على

إجابة للسؤال المعلق، ليوجورجى لم يحاول الهرب، وكان حتما أن يقوم بواجبه كما يليق، وبشجاعة أقدم وبلا تراجع على أن يضع نفسه تحت أمرهم، وتصرف كما يجب على من يقوم بالخدمة كما يقتضى الواجب. التابوت رزح بثقله عليه، وآل داجوبى الثلاثة مسلحون، وبمقدورهم أن يقوموا فجأة بضرب ضربتهم أيا كانت، من الممكن توقع ذلك منهم دون النظر إليهم، وقد حطوا من لحظة مجيئه، عيونهم عليه، وسقطت فى هذه اللحظة رخة مطر فابتلت الوجوه وابتلت الملابس، وواصل ليو جورجى الخطو تحت حمله الثقيل، كما كان رعبه واضحا عليه! مصرا على السير، والهدوء البادى عليه، هدوء أسير. هل كان يصلى؟ لم يعرف أحد شيئا عن ذلك، كان فقط يواجه نهايته.

والآن، وقد انتهى بالفعل إلى التأكد من أنه عند نزول التابوت لفوهة القبر، يمكنهم وعن قرب، قتله فى لحظة، إلا أن المطر توقف، وتحسن الجو، «ألن يدخلوه الكنيسة للصلاة عليه؟» لا، لا يوجد قسيس فى هذه القرية».

وواصلت الجنازة تحركها.

وعند دخولهم إلى حوض المقبرة، واجهتهم على الباب الداخلى لوحة مكتوب عليها: «هنامثوى كل حى» وكان الغضب قد تراكم مع الخوض فى الوحل، حول جوانب المقبرة، ورغم أن معظم الحاضرين قد انتظروا بعيدا إلى الوراء، فإن كثيرين كانوا يكملون حفر القبر وتسويته بمعاولهم.

ـ «أو ..هه..أو... هه» باحترام كبير لا يعلمونه. ومع ذلك، فما من أحد حيا أو دعا ولو لمرة واحدة لداماستور داجوبى وهم ينزلونه فى تابوته، محمولا على الحبال الغليظة حتى استقر . كما ينبغى، فى قاع الحفرة، ثم أخذت الأتربة تنهال عليه وتعلوه جاروفا فجاروفا، يا له من رعب ذلك الذى يسببه له صوت تلك الجواريف . وما العمل الآن؟

ليو جورجى الشاب كان واقفا فى انتظارهم، واقعا فى الشرك، لم ير أمامه لحظتها سوى الأمتار السبعة من الأرض تحت أنفه. وكان عليه ألا يغمض عينيه، ويالها من صعوبة بالغة. وظل بصره معلقا بالناحية التى وقفت فيها عصابة الأخوة وسكوتهم ينضح بالمؤامرة. ديزموند وديرفال كانا فى انتظار كلمة دوريكون، اندفع قائلا لهما: «ليكن» واحد من الرجلين مد يديه، وهو وحده الآن. نظر إلى الرجل الآخر، وفى قلب كل ذلك؟ لمحه بنظرة خاطفة. هل امتدت يده إلى حزامه؟... لا .. واحد كان منتظرا لذلك أيضا، إلا أنه أخطأ فى فهم الإشارة، فجأة سمعه وهوي قول فقط:

ـ « يا شاب: عد إلى بيتك، فماجرى، جرى بسبب أخى الغريب... كان شيطانا ومؤذيًا».

قال ذلك بصوت منهك خافت لا يكاد يسمع، ثم استدار راجعا ماشيا باتجاه الحاضرين أما الأخوان الآخران، فقد قدما أيضا احترامهما وشكرهما لجميع من حضروا للعزاء. نعم. لم يكن ثمة شيء من الغضب قد بقى، حتى أنهم سرعان ما ابتسموا، وانهمكوا

فى تنظيف أحذيتهم من الوحل العالق بها والمسح على وجوههم أمام من هبوا واقفين احتراما لهم، وأكمل دوريكون كلامه فى استعجال:

ـ أما نحن فسنرحل للعيش فى المدينة الكبرى..»

كان دفنه قد تم.

ومرة ثانية أخذت الأمطار تشتد فى الهطول.

نزيل المعلمة (*)

ايزابيل الليندى - شيلى

كان محل تجارة لؤلؤة الشرق خاليا من الزبائن لحظة أن دخلته إيناس معلمة المدرسة، سارت حتى البنك حيث كان رياض حلبى يلف ثوب قماش زاهى الألوان، وأفضت إليه بأنها قد قطعت فى التو رقبة نزيل فى البنسيون الذى تمتلكه.

أخرج التاجر منديله الأبيض ليخفى فمه وسألها:

ـ ما الذى تقولينه يا إيناس؟

ـ ما سمعته يا تركى**

ـ وهل مات ؟

ـ بالطبع.

ـ وماذا ستفعلين الآن؟

ـ هذا بالضبط ماجئت لأسألك عنه.

قالت ذلك وهى تسوى خصلة من شعرها.

بعد وقفة قصيرة قال:

ـ سيكون من الأفضل أن أغلق المحل.

كانت معرفتهما ببعض وثيقة جدا، ومن زمن طويل حتى أن أحدا منهما لا يمكنه أن يتذكر كم عدد السنين بالضبط، مع أن كليهما يتذكر جيدا كل تفاصيل اليوم الذى بدأت فيه صداقتهما. وقت أن كان رياض حلبى بائعا سريحا من أولئك الذين يتجولون فى الطرق يعرضون بضاعتهم، يتميز بعاداته الغريبة فى التجارة، إذ يسير فى الصحراء بدون بوصلة، ولا تعرف له طريقا محددا. وهو عربى مهاجر يحمل جواز سفر تركيا مزورا، وحيد متعب بشفته العليا المشقوقة كشفة أرنب، ورغبة دائمة فى التوارى فى الأماكن الظليلة إذا كان عليه أن يتوقف أويجلس.

أما هى فكانت امرأة فى عز شبابها بردفيها المكتنزتين وكتفيها القويتين، فضلا عن أنها كانت المعلمة الوحيدة فى مدرسة القرية. أما طفلها فكان فى الثانية عشرة من عمره، حملت به من غرام عابر، إلا أنه صار محور حياتها. رعته بتفانٍ لا تراخى فيه، بالرغم من أنها كانت تخفى ميلها لأن تظل عيناها عليه طول الوقت وكانت تعلمه نفس الدروس التى تعلمها لأطفال المدرسة الآخرين، حتى لا يجرؤ أحد على وصفه بأنه ولد مدلل، أو لم تحسن تربيته، ولكى تبطل فيه نزعة التمرد التى ورثها عن أبيه: فإنها قد جعلت منه على العكس من ذلك، طفلا يتميز تفكيره بالاستقامة وقلبه بالطيبة.

فى الليلة نفسها التى وصل فيها رياض حلبى إلى قرية أجواسانتا من أحد أطرافها . كانت مجموعة من الصبية فى الطرف المقابل تمضى حاملة جثة ابن المعلمة إيناس على نقالة، أعدت كيفما اتفق. كان الطفل قد دخل إحدى الجناين ليلتقط واحدة من ثمار المانجو الواقعة تحت الشجر، وإذا بصاحب الجنينة الغريب عن المنطقة، والذى لا يعرف أحد من أى النواحى جاء، يطلق رصاصة من مسدسه يقصد أن يخيف الطفل ويبعده إلا أنه أحدث فى وسط جبهته دائرة مسودة بداخلها ثقب فاضت من خلاله الدماء وانسلت حياة الطفل. فى هذا التوقيت ـ وبإلهام من الله ـ تبين للتاجر الواجب الذى كان عليه ألا يتخلى عنه وبدون وعى وجد نفسه فى قلب الأحداث فمضى معزيا الأم، وعمل الترتيب اللازم للجنازة وإجراءات الدفن كما لو كان واحدا من أفراد العائلة، فحدد لكل واحد من الناس ما عليه أن يقوم به حتى يحول بين أن تتضارب أو تتوه المسئوليات. وفى الأثناء التى كان يتم فيها ذلك كله، أدرك القاتل أن إنقاذ حياته بات مستحيلا لو بقى هناك، فهرب من القرية وفى نيته ألا يعود إليها أبدا.

وفى اليوم التالى كان رياض حلبى على رأس الحشد الذى تحرك من المقبرة حتى المكان الذى سقط الطفل قتيلا فيه. وقضى كل سكان أجواسانتا ذلك اليوم بطوله ينتزعون ثمار المانجو ثم حملوها وشرعوا يرمون بها من خلال شبابيك بيت صاحب الجنينة حتى امتلأ بها البيت عن آخره من الأرض حتى السقف. وخلال عدة أسابيع

ضربت حرارة الشمس الفاكهة حتى تشققت قشرتها وانفجرت وسال منها عصير غليظ القوام تشربت به الجدران فاصطبغت بلون أصفر دموى، ومن العصير المسكر الذى أحال البيت إلى ما يشبه حفرية هائلة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ تولدت حشرات ضخمة وحشود من الذباب واليرقات التى لا تكف عن التحليق والطنين وإثارة القلق والضيق فى قلب هذا العفن.

موت الطفل، الورقة التى أخذ يلعب بها فى تلك الأيام: إضافة إلى الترحيب الذى قوبل فى أجواسانتا رسما صورة حياة رياض حلبى بها، فقد كف عن حياة الترحال والبداوة التى ورثها عن أسلافه وقرر أن يقيم فى القرية، وهناك افتتح متجر بضائع لؤلؤة الشرق ثم تزوج وترمل، وعاد وتزوج مرة أخرى . وواصل أعماله فى التجارة فى الوقت الذى علا فيه صيته كرجل نزيه.

وبدورها واصلت إيناس عملها بتعليم أجيال جديدة وعديدة مانحة لهم الحنو والرعاية الدائمة التى كانت تمنحها لابنها، حتى إذا ما حل بها تعب السنين قررت أن تأخذ هى الخطوة الأولى التى لابد منها لتتيح الفرصة لمعلمات جديدات وصلن إلى القرية ومعهن كتب جديدة لتعليم القراءة والكتابة، فاعتزلت التعليم، وأحست بتركها لفصول الدراسة أنها هرمت فجأة، وأن الزمن انقضى بسرعة، والأيام مرت بسرعة أكبر دون أن تستطيع تذكر كيف انقضت تلك الساعات، وكان تعليقها على ما آلت إليه:

ـ أننى بت فى حالة من التشتت ياتركى، حتى أننى لا انتبه إلى

أننى أموت.

ـ أنت فى أتم صحة، وكما كنت دائما يا إيناس ،كل ما فى الأمر أنك تحسين بالملل، ولذلك فلا ينبغى أن تبقى بلا عمل.

كان تلك إجابة رياض حلبى الذى اقترح عليها فكرة أن تضيف إلى غرف دارها عدة غرف أخرى وتحولها إلى بنسيون.

ـ ما من فندق فى هذه القرية.

ـ وما من سياج أيضا.

كان هذه هى حجتها، إلا أنه عاجلها:

ـ إن سريرا نظيفا، ووجبة فطور ساخنة ،هما نعمة للسائقين والمسافرين على الطريق.

وهذا ما كان، وتحققت النعمة خصوصا لسائقى ناقلات شركة البترول، إذ باتوا يقضون الليل فى البنسيون عندما يثقل عليهم الضجر وتعب الطريق وقلة النوم فتكاد تتفجر رءوسهم من دوامة الهلوسة.

إن أكبر احترام حظيت به سيدة من كل أهالى أجواسانتا كان من حظ المعلمة إيناس. فهى التى علمت أطفال القرية كلها طوال عدة عقود مما منحها الحق فى أن تتدخل فى أخص خصوصيات حياة كل واحد منهم، ولا تتورع أن تشد آذانهم لو دعت الضرورة لذلك.، فالفتيات كن يحضرن إليها بخطابهن ليأخذن موافقتها والزوجات والأزواج كانوا يلجأون إليها لحل مشاكلهم الزوجية، لقد كانت بالنسبة لهم الإنسانة التى يجدون عندها النصيحة والمستعدة للتوسط

بينهم والحكم العدل فى كل المشكلات، لقد كانت سطوتها عليهم أكثر وضوحا وتأثيرا من سطوة القسيس والطبيب والبوليس، وما من أحد كان باستطاعته أن يحد من النفوذ الذى تتمتع به،مثلما حدث مرة ذات يوم أن اندفعت داخلة إلي زنزانة الحبس الاحتياطى دون أن تأبه بأحد، ومرت من أمام مكتب ضابط القسم دون أن تحييه، واتجهت للمفاتيح المعلقة بمسمار على الحائط بجوار باب الحبس وانتزعتها وفتحت بنفسها وخرجت من الزنزانة وهى تجر واحدا من تلاميذها، كان قد أودع الحبس بسبب إفراطه فى الشراب إلى حد السكر، حاول الضابط أن يعترض طريق خروجها إلا أنها نحته جانبا ودفعت الشاب إلى الخارج وهى ممسكة به من ياقة قميصه، وفى الشارع ضربته كفين على وجهه وأنذرته أنها فى المرة القادمة: سوف تنزل بنطلونه بنفسها وتعرى مؤخرته وتضربه عليهاعلقة لن ينساها أبدا.

ولذلك، ففى اليوم الذى ذهبت فيه إيناس لتقول لرياض حلبى أنها ذبحت واحدا من زبائنها، لم يخالجه أى شك فى أنها جادة فيما تقول لأنه يعرفها جيدا، أخذها من ذراعها وسار بها حتى قطعا مربعين من المساكن الفاصلة بين لؤلؤة الشرق وبين دارها التى كانت واحدة من أحسن الدور المبنية فى القرية، بنتها من الطوب وكتل الخشب ،لها شرفة أمامية واسعة حيث كانت توضع أراجيح النوم المعلقة فى أشد أوقات القيلولة حرارة، وفى كل الغرف أحواض استحمام تمتلىء بالماء الجارى، ومراوح للتهوية.

بدت الدار فى تلك الساعة خالية، ولم يكن هناك بها سوى نزيل واحد يجلس مسترخيا فى الصالة طلبا للراحة بينما كان يشرب البيرة وعيناه تتابعان فى شرود ما يجرى فى التليفزيون، همس التاجر العربى:

- أين هو؟

فى إحدى الغرف فى الجناح الخلفى.

أجابته دون أن تحاول خفض صوتها.

تبعها وهى تقوده إلى صف الغرف التى تؤجرها ،كان يضمها كلها ممر طويل مسقوف، تتسلق أعمدته أشجار الجهنمية بزهورها الحمراء، وأصص السرخس المعلقة بأشجار التين المزروعة حول فناء الدار حيث تكثر أشجار المشملة وأشجار الموز.

فتحت إيناس آخر باب من أبواب الغرف ودخل رياض حلبى الغرفة الغارقة فى الظلمة،كانت الستائر مجرورة على النوافذ حتى تمنع دخول نور النهار، وكان فى حاجة إلى لحظات قبل أن تعتاد عيناه الظلمة فيرى فوق السرير الجثة لرجل عجوز لا ينم مظهره عن أنه يمكن أن يكون مؤذيا بأية حال، رجل غريب عن الناحية لا حول له ولا قوة، يسبح فى بركة من الدماء التى تجمدت بموته، وسراويله ملطخة ببوله وبرازه، ورأسه معلق بنسائر جلد ولحم تبقت من ذبحه وتعبير عن الانزعاج لا طائل من ورائه، وبدا كما لو كان يلتمس الصفح لأنه تسبب فى كل هذه الأوساخ والدماء، وعن ضيقه الشديد بنفسه لأنه ترك نفسه يغتال بهذا الشكل.

جلس رياض حلبى على الكرسى الوحيد الموجود بالغرفة ونظرته شاخصة فى أرضيتها، محاولا أن يسيطر على حالة الغثيان التى تكاد تقلب معدته، أما إيناس فقد بقيت واقفة بذراعيها المتقاطعتين على صدرها، تحسب فى سرها كيف أنها تحتاج ليومين لتنظيف الدماء والأوساخ، ويومين آخرين على الأقل لتجديد هواء الغرفة، والتخلص من الرائحة وجو الفزع الجاثم.

ـ كيف فعلت به ذلك؟

ـ ببلطة تقطيع جوز الهند، لقد جئت من خلفه ونزلت عليه بضربة واحدة، لم يكد ينتبه لما جرى له. كم كان مسكينا.

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان لابد لى من قتله، ما من مفر، هذه هى الحياة وهذا قدره، انظر لسوء الحظ الذى لم يفارقه، فهذا الرجل لم يفكر فى أن يتوقف فى أجواسانتا،كان مارا بالقرية وإذا بحجر يحطم زجاج سيارته، وكان عليه أن يقضى عدة ساعات هناك حتى يستطيع الإيطالى صاحب ورشة التصليح أثناءها أن يركب للسيارة زجاجا سليمًا، لقد تغير شكله كثيرا، ويبدو أننا كلنا شخنا، إلا أننى عرفته على الفور، فلقد انتظرته طوال كل تلك السنين، متأكدة حتى اليقين من أنه لابد أن يأتى، سواء طال به الأمد أو قصر أنه هو الرجل: صاحب أشجار المانجو.

تمتم رياض حلبى: «الحامى هو الله، ربنا يحمينا»

ـ ألا ترى من الواجب أن نبلغ الضابط؟

ـ ولا حتى عن خرطوشة فارغة، لكن ما الذى خطر ببالك؟

ـ لأن الحق معى، فقد قتل ابنى وقد قتلته.

ـ أنه لن يفهم ذلك يا إيناس.

ـ أليست العين بالعين، والسن بالسن، ألايقول دينك بذلك يا تركى؟

ـ لكن القانون لا يجرى وفق ذلك يا ايناس.

ـ طيب . يمكننا إذا أن نصلح من وضعه قليلا ويمكن القول بأنه انتحر.

ـ إياك أن تلمسيه. ثم قولى لى: كم عدد النزلاء عندك هنا فى الدار؟

ـ سائق عربة نقل لا غير، وما أن تخف الحرارة ويصير الجو لطيفا حتى يأخذ طريقه إلى العاصمة.

ـ طيب. لا تستقبلى أى نزلاء من الآن، واقفلى بالمفتاح باب هذه الغرفة، وانتظرينى، سأعود إليك فى الليل.

ـ ماذا تنوى عمله؟

ـ سأرتب الأمور بطريقتى.

كان رياض حلبى فى الخامسة والستين من عمره، لكنه كان محتفظا بحيوية الشباب والروح الوثابة نفسها التى وضعته على رأس الحشد يوم وصوله إلى أجواسانتا، وأول ما قام به بعد خروجه من دار المعلمة ايناس، أن أسرع لزيارة بعض البيوت التى كان لابد أن يمر عليها عصر اليوم، وبعد ساعات من هذه الزيارات بدأ الهمس

يسرى فى القرية، وبدأ أهلها ينفضون عن أنفسهم السبات الذى غشيهم من سنين، منفعلين بالخبر العجيب الذى لا يكاد يصدق والذى بدأ يتردد من بيت لبيت بشكل لا يمكن السيطرة عليه بوصفه شائعة. وفى الوقت الذى تنطلق بها بعض الأصوات الصارخة فثمة حاجة لأن تستمر الهمسات حتى يمنحها ذلك قيمة خاصة مما يؤكد صدقها.

قبل غروب الشمس كان يمكنك أن تحس فى الجو ذلك الفرح المضطرب والذى سيظل خلال السنوات التالية سمة أساسية تتمتع بها القرية . شىء لا يمكن تصديقه لمن هو غريب عنها. هؤلاء الذين يمرون بها دون أن يستطيعوا أن يميزوا شيئا غير عادى فى هذه القرية، وأنها ليست سوى قرية صغيرة فقيرة لا أهمية لها ككل القرى الأخرى على حدود الغابات.

مع نسائم العصر بدأ الرجال فى الوصول إلى الحانة، وخرجت النساء إلى الأرصفة بكراسى المطبخ حتى يتخذن أماكنهن لاستروا ح النسائم، واستجاب الشباب وحضر فى جماعات صغيرة إلى ساحة القرية كما لو كان اليوم أحد، أما الضباط وعساكره فقد قاموا بجولتى مرور روتينيتين وبعد ذلك استجابوا لدعوة أصرت عليها بنات البيت السرى اللواتى كن يجهزن للاحتفال بعيد ميلاد واحدة منهن كما زعمن. ومع حلول الليل امتلأ الشارع بزحمة الناس أكثر من يوم عيد كل القديسين . كل واحد انشغل بما يقوم به بشكل مبالغ فيه وفى صخب، كما لو أنهم يقومون بعمل بروفة لتمثيل

مشهد من فيلم: فالبعض يلعب الدومينو، والآخرون يشربون الرومن ويدخنون على النواصى . ثنائيات من الشباب والفتيات يتجولون متشابكى الأيدى، والأمهات يرحن ويجئن وهن ممسكات بأيدى أطفالهن. والجدات فى أبواب البيوت المفتوحة يحدقن فى الشارع ويصغين للشائعة، بينماكان القسيس يشعل فوانيس الأبراشية ويبدأ فى قرع النواقيس بسرعة داعيا إلى إقامة صلوات عيد القديس ايسيورومارتير، إلا أنه لم يكن ثمة أحد يلعب دوره بحماس فى هذا النوع من الطقوس الدينية.

فى التاسعة والنصف اجتمعوا كلهم فى دار المعلمة ايناس: العربى وطبيب القرية، وأربعة من الشباب الذين علمتهم فى سنوات الطفولة القراءة والكتابة وهاهم الآن مقاتلون أشداء عائدون من الخدمة العسكرية. قادهم رياض حلبى حتى الغرفة الأخيرة، حيث لقيوا الجثة والذباب يغطيها لأن النافذة بقيت مفتوحة، وكانت تلك الساعة ساعة هجوم الذباب، وضعوا سيىء الحظ فى جوال من الخيش وأخرجوه وهم يحملونه فى ارتباك حتى الشارع، وبلا أى مظهر من مظاهر الاحترام رموه فى الجزء الخلفى من عربة نقل رياض حلبى، ركبوا ومروا بالقرية كلها من خلال الشارع الرئيسى بها وهم يلقون بالتحية، كما هى العادة، بكل الأشخاص الذين صادفوهم ومروا من أمامهم، بعضهم كان يرد التحية بحماس مبالغ فيه. بينما كان البعض يتظاهر بأنه لم يرهم بينما يدارى ضحكته، كأطفال مبهورة بالعفرتة وهى تقوم بإحدى الألعاب، وصلت العربة النقل للمكان الذى شهد قبل سنوات عديدة ابن المعلمة

إيناس وهو ينحنى للمرة الأخيرة فى حياته ليلتقط إحدى ثمار المانجو الواقعة تحت الشجر، وتحت تلألؤ ضوء القمر شهدوا بأعينهم جنة الملكية المنتهكة بالأعشاب الضارة بفعل الإهمال، والتى تقوضت بفعل الزمن، وما فعلته ذكريات الأحداث السيئة، هضبة متشابكة الجذوع والفروع حيث أشجار المانجو توحشت فى نموها بينما تتساقط الثمار من فوق الغصون وتقع على الأرض، وتمد جذورا لها فى التربة فتنبت مجموعات هائلة من الأشجار تنتج بدورها أجيالا جديدة منها، وهكذا حتى تكاتفت غابة لايمكن اختراقها، سدت الطريق على كل شىء حتى الهواء. وابتلعت الأسوار، والممرات وحتى أطلال البيت الذى لم يبق من أثره تقريبا سوى رائحة لا تكاد تذكر أقرب لرائحة المربى.

أشعل الرجال فوانيسهم التى تضاء بالكيروسين، وغاصوا داخل الدغل فاتحين ممر لهم بالبلطات، وعندما قدروا أنهم تقدموا بما يكفى، أشار واحد منهم نحو الأرض، وهناك، تحت، عند أسفل جذع شجرة ضخمة بشكل مهول ومثقلة بثمار المانجو، حفروا حفرة عميقة حيث أودعوا جوال الخيش، وقبل أن يهيلوا عليه الردم ليغطوه، وقف رياض حلبى، وصلى عليه بتلاوة آيات قصيرة لأنه لم يكن يعرف غيرها.

رجعوا للقرية فى منتصف الليل وشاهدوا بأنفسهم كيف أنه ما من أحد غادر مكانه أو عاد لفراشه لينام، والأنوار ظلت مضاءة فى كل الشبابيك، والشوارع لم تزل ملأى بالناس وهم يتمشون.

فى تلك الأثناء، كانت المعلمة ايناس قد نظفت حوائط الغرفة

وأثاثها وغسلتهما بالماء والصابون، أما بياضات السرير فقد أحرقتها، وجددت هواء الدار وبقيت فى انتظار أصدقائها بعد أن أعدت لهم عشاء وأبريقا من الروم وإلى جواره عصير أناناس. تناولوا العشاء وهم مبتهجون وسط تعليقات على المباريات الأخيرة لمصارعة الديوك، وهى تسلية بربرية كما وصفتها المعلمة، لكنها أقل بربرية من مصارعة الثيران والتى انتهى الأمر بمصارع كولومبى فى واحدة منها إلى أن فقد كبده. الرجال عبروا لها عن سعادتهم. وفى تلك الليلة كانت رياض حلبى آخر من ودعها، وللمرة الأولى فى حياته، أحس بأنه قد هرم، وعند الباب أمسكت المعلمة ايناس براحتيه، واحتفظت بهما لبرهة بين راحتيها وهى تقول له:

ـ شكرا يا تركى

ـ لم جئت لتستنجدى بى أنا بالذات يا ايناس؟

ـ لأنك أكثر من أحببته فى هذه الدنيا، ولأنك تستحق وكان يجب أن تكون الأب لابنى!

فى اليوم التالى عاد أهالى أجواسانتا إلى أشغالهم التى اعتادوها والتى أعلوا من قدرها بتواطئهم الرائع لصون سر الجيران الطيبين الذين حافظوا عليه فيما بينهم لينتقل من واحد لآخر، ومن جيل لجيل خلال سنوات عديدة، كأسطورة للعدالة، حتى إذا ما أسلمت المعلمة ايناس روحها فقد حررتنا كلنا من السر، وها أنا أستطيع الآن أن أحكيه.

الهوامش:

(*) نزيل المعلمة: إحدى قصص المجموعة المسماة«قصص من ايفالونا»١٩٨٩.

(**) التركى : هو ما ينادى به المسلم والعربى فى أمريكا اللاتينية من المهاجرين السوريين، واللبنانيين، والفلسطينيين ويرجع ذلك لخضوع تلك البلاد للحكم العثمانى ورياض حلبى فلسطينى مسلم مهاجر بجواز تركى مزور.

انتقـــام

ايزابيل الليندى - شيلى

حينما توجت دولثى روسا فى حفل مسابقة ملكة الجمال الذى أقيم فى منتصف نهار يوم مشرق بوضع التاج المجدول من زهور الياسمين على رأسها، تصاعد الهمس والاحتجاج بين أمهات المرشحات الأخريات اللاتى شككن فى النتيجة بادعاء التلاعب فيها حتى يكون التاج من نصيب دولثى روسا أوريليانو، وذلك لكونها ابنة السناتور انسلمو أوريليانو ـ الرجل ذو النفوذ القوى فى الأقليم كله ـ إلا أنهن سلمن بأن الفتاة تحظى بسحر خاص، كما أنها تجيد العزف على البيانو وترقص كما لا يرقص أحد، ولكن هذا لا ينفى أن الأخريات اللاتى اشتركن فى المسابقة وكان لديهن الأمل فى الحصول على الجائزة، كن أكثر جمالا منها، لقد تطلعن إليها وهى واقفة على خشبة المسرح، بفستانها الأورجانزا، وتاجها من زهور

الياسمين فيما تلوح محيية الجمهور، ومن بين أسنانهن كى يلعنَّها، ولذلك فقد واتت بعضهن الفرصة للفرح والشماتة بها عندما حلت الكارثة ببيت آل أوريليانو وانتشرت بذورها فيه، وهكذا تحتم عليهن أن ينتظرن خمسة وعشرين عاما حتى يشهدن بأعينهن حصادها.

أقيمت ليلة اختيار الملكة، حفلة رقص بدار بلدية سانتا تريسا، وتوافد الشباب من البلاد البعيدة لمشاهدة دولثى روسا والتعرف عليها، كانت سعادتها غامرة ورقصت بسرور بالغ حتى أن الكثريين لم يلحظوا أنها فى الحقيقة ليست الأكثر جمالا، وفى طريق عودتهم للبلاد التى قدموا منها، أخذوا يتحدثون عن الوجه الذى لم يروا أبدا وجها مثله، وهكذا فقد اكتسب جمالها صيتا لا يستحقه، لكن أحدا لا يستطيع بعد ذلك أن ينكره، بل كثر الكلام ودار من فم إلى فم بالأوصاف المبالغ فيها عن شفافية لون بشرتها، وصفاء لون عينيها، وأخذ كل واحد وهو ينقل هذه الأوصاف يزيد قليلا من عنده بما يتفق وخياله، حتى أن المدَّاحين أخذوا يتجولون فى طول البلاد وعرضها وهم يغنون المواويل عن ست الحسن والجمال دولثيا ولم تكن سوى أسطورة أوحى لهم بها اسم دولثى روسا.

وصل ما أشيع عن ذلك الجمال اليانع فى بيت السيناتور أوريليانو إلى سمع تاديو ثيسبيدس الذى لم يدر بخلده أبدا أن يتعرف عليها، لأنه خلال سنوات حياته كلها، لم يكن لديه الوقت الكافى لتعلم كتابة الأشعار، ولا للاهتمام بالنساء، كان شغله الشاغل فقط هو خوض غمار الحرب الأهلية، فمنذ أن نما له شارب وأخذ

يسويه، حمل بندقيته بين يديه، وظل منذ سنوات طويلة وحتى الآن يواصل حياته وسط دوى انفجارات البارود.

وكان ضمن ما نسيه ليس فقط قبلات أمه، بل حتى نشيد القداس، لم يكن يمتلك دائما أسبابا قوية لشن الغارات، لأنه فى بعض فترات السلم، خلال الهدنة، ولم يكن ثمة أعداء فى مواجهته ليطاردهم بفرقته، فإنه مع ذلك، حتى والسلام يجبره فى تلك الفترات على التوقف عن القتال، فقد كان يواصل حياته كقرصان، إذ كان العنف قد تحول إلى جزء من طبيعته، ولقد اعتاد عليه، فكان يقطع البلاد من شرقها لغربها، ومن شمالها لجنوبها يقاتل أعداء ظاهرين له عندما يوجدون بالفعل، ويشن الحرب ضد أشباح عندما تدفعه احتياجاته لخلقهم، كان عليه أن يواصل القتال للأبد كما لو أن حزبه لا يمكنه أبدا أن يكسب السلطة عن طريق الانتخاب.

آخر مهمة قتالية لتاديو ثيسبيدس كانت حملته التأديبية التى شنها على سانتاتريسا، وبمائة وعشرين مقاتلا داهم القرية ليجعل منها عبرة للقرى الأخرى كى يقضى على رؤوس المقاومة، أطلقوا الرصاص على النوافذ والواجهات الزجاجية للمبانى العامة ثم مضوا إلى الكنيسة فحطموا بابها واندفعوا بالخيول داخلها حتى المذبح الكبير وعندما حاول الأب كليمنتى الوقوف فى طريقهم اجتاحوه وداسوا عليه، وواصلوا هجومهم الخاطف، فوق الخيول التى تجرى فى جلبة وأصوات صاخبة متجهين إلى عزبة السيناتور أوريليانو الذى وقف ليواجههم شامخا على قمة التل.

وقف السيناتور فى انتظار تاديو ثيسبيدس على رأس اثنى عشرة من رجاله المخلصين بعدما أغلق على ابنته باب آخر غرفة فى الفناء الثالث وأطلق سراح الكلاب فى البيت. وفى تلك اللحظة زفر متنهدا مثلما حدث لمرات عديدة فى حياته، إذ لم يكن لديه خلفة من الذكور لكى يقفوا إلى جواره بالسلاح ويحموا معه شرف بيته، أحس بأنه هرم جدا، لكنه لم يكن يملك الوقت ليفكر فى نفسه، إذ خطفت بصره من تحته عند سفح التل الأنوار الباهرة المروعة لمائة وعشرين كشافا ينشرون الرعب فى ظلمة الليل، وزع آخر طلقات الذخيرة المتبقية على رجاله فى صمت، كل شىء تم الاستعدادا له، وكل منهم يعرف أنه سيموت قبل الفجر، وماعليه إلا أن يموت وهو يقاتل كما يليق بالرجل الذى لا تنقصه الشجاعة، وعلى آخر من يبقى حيا منكم أن يأخذ مفتاح الغرفة التى بها ابنتى، ويقوم بما ينبغى عمله، قال السيناتور ذلك عند سماعه لدوى أولى الطلقات باتجاههم.

كل هؤلاء الرجال الذين يقفون إلى جانبه شهدوا معه مولد دولثى روسا، أجلسوها على أرجلهم ولم تكد تتعلم المشى، وحكوا لها الحواديت عن الجنيات فى أمسيات الشتاء، وسمعوها وهى تعزف على البيانو، وصفقوا لها بتأثر شديد يوم تتويجها ملكة للكرنفال. ويستطيع أبوها أن يواجه الموت مطمئنا عليها، لأن الفتاة لن تقع وهى حية أبدا بين يدى تاديو ثيسبيدس، إلا أن الشىء الوحيد الذى لم يخطر أبدا على بال السيناتور أوريليانو، فآخر واحد كان على الموت أن يدركه كان هو، لقد رأى رفاقه يتساقطون واحدا فواحدا،

حتى انتهوا، وفى النهاية أدرك ألا جدوى من استمراره فى المقاومة وحده. وتحرك بالرصاصة التى أصابته واخترقت بطنه، وبالرؤية الغائمة التى لا تتضح فيها معالم ما يراه، ميز بالكاد خيالات من يتسلقون الجدران العالية لسور العزبة، ولكنه لم يفقد الوعى وهو يزحف حتى الفناء الثالث. ولقد تعرفت الكلاب على رائحته التى طغت على عرقه ودمائه والحزن الذى غطاه، وتفرقوا ليسمحوا له بالمرور من بينهم. أدخل المفتاح فى الكالون، ودفع الباب الثقيل فانفتح ومن خلال الضباب الذى يجعل الرؤية غير واضحة، رأى دولثى روسا وهى تقف فى انتظاره، فتاة صغيرة ترتدى فستان الأورجانزا نفسه الذى ارتدته يوم حفل الكرنفال، بينما زينت شعرها المصفف بتاج زهور الياسمين.

ـ لقد حان الوقت يا ابنتى.

سمعته وهو يقول لها ذلك بينما يشد الزناد للخلف فيحدث صوتا، ورأت بركة الدماء حول قدميه وهى تكبر وتتسع على الأرض.

ـ لا تقتلنى يا أبى.

ردت عليه بصوت متماسك.

ـ دعنى أحيا كى أنتقم لك، وانتقم لى.

تأمل السيناتور انسيلمو أوريليانو وجه ابنته ذات الخمس عشرة سنة وتخيل ما الذى يمكن أن يفعله بها ناديو ثيسبيدس، إلا أنه وجد شجاعة هائلة لا تخشى شيئا تومض فى العينين الصافيتين لدولثى روسا، أدرك بالفعل أنها قادرة على أن تواصل الحياة كى تنتقم من

مغتصبها، جلست الفتاة على السرير فأخذ الأب مكانه إلى جانبها مصوبا سلاحه إلى الباب.

عندما خفت ثم صمت عواء الكلاب المحتضرة، اقتلعت عارضة الباب الخشبية وتطاير الترباس واندفع أوائل الرجال المهاجمين مقتحمين الغرفة، تمكن السيناتور أن يطلق عليهم ست طلقات قبل أن يسقط مغشيا عليه، هيىء لتاديو ثيسبيدس أنه يحلم عند رؤيته لملاك متوج بزهور الياسمين، وهى تسند فى حضنها رجلا هرما يعانى سكرات الموت، بينما يتحول لون فستانها من الأبيض إلى الأحمر وهو يتشرب بحمرة الدم.

لكنها لم تحظ باشفاقه عليها عندما نظر إليها مرة أخرى، لأنه وهو محطم الأعصاب ومرهق من القتل لساعات طويلة صار سكرانا بالعنف:ـ المرأة لى:

أمرهم بذلك قبل أن يضع رجاله أيديهم عليها.

***

لاحت بوادر صباح يوم الجمعة فى السماء الرمادية، يلوثها الدخان فى ألسنة اللهب المتصاعدة من الحريق، بينما يجثم الصمت ثقيلا على التل، والأنات الأخيرة كانت قد غرقت فى الصمت عندما جاهدت دولثى روسا حتى يمكنها الوقوف على قدميها ومشت متجهة إلى نافورة الجنينة، والتى كانت تحوطها فى اليوم السابق زهور المانجوليا لكنها صارت الآن مجرد بركة يتصاعد خرير الماء منها وسط كسر أحجار الأنقاض المتداعية، ولم يتبق من فستانها سوى

مزق من قماش الأورجانزا، والتى خلعتها وأزاحتها عن جسدها ببطء لتقف عارية، غاصت فى الماء البارد، والشمس تطلع من بين أشجار البتولا، واستطاعت الفتاة أن ترى الماء فى ضوء أول النهار ولونه يحمر عندما أخذت تغسل الدم الذى طفر من بين فخذيها، والدم العالق من أبيها والذى تيبس بعضا منه بشعرها، ومرة واحدة عاد جسدها نظيفا، ووجهها رائقا، وعيناها بلا دموع، رجعت للبيت المهدم الذى تم تدميره، بحثت عن أى شىء تستر به نفسها، أخذت ملاءة من الكتان وخرجت إلى الطريق لتعود بجثمان السيناتور، كانوا قد أوثقوه من قدميه ليسحلوه على سفوح التل بربطه بحصان يركض حتى استحال جسده المشوه إلى كومة تبعث على الشفقة والحسرة، إلا أن الحب وحده أرشد ابنته وساعدها على التعرف عليه بلا تردد. لفته فى ملاءة الكتان وجلست إلى جواره ترقب علو الشمس فى سماء النهار، وعلى هذه الحال لقيها جيرانهم فى سانت تريسا، عندما تجرءوا وأتوا إلى عزبة آل أوريليانو، ساعدوا دولثى روسا فى دفن موتاها، وفى إطفاء ما بقى مشتعلا من الحرائق. ورجوها أن تذهب للعيش مع جدها لأمها فى القرية الأخرى، حيث لا أحد يتعرف مأساتها، إلا أنها رفضت أن ترحل وأصرت على البقاء، عندئذ كون الجيران من بينهم مجموعات لإعادة بناء البيت، وأهدوها ستة كلاب أشداء كى تبقى فى حراستها.

من لحظة أن خرجوا حاملين أباها، ولما يزل حيا، وأغلق تاديو ثيسبيدس عليهما الباب بظهره وفك الحزان الجلدى لبنطلونه، عاشت

دولثى روسا لكى تنتقم، وطوال السنين التى تلت ذلك: أبقاها التفكير فيه ساهرة طوال الليل، ومهمومة به طوال النهار، إلا أن ذلك كله لم يمح ابتسامتها ولم يصب بالوهن قوة إرادتها، وازداد الصيت الذى اكتسبه جمالها بسبب المداحين الجوالين الذين راحوا ينشرون فى كل الأنحاء الأغنيات التى تتغنى بسحر جمالها حتى حولوا حياتها إلى أسطورة حقيقية، كانت تصحو كل يوم فى الرابعة وقت الفجر وتخرج راكبة مهرتها لتمر على الأعمال فى الحقول ثم تعود لتشرف على أعمال البيت، تربى الحيوانات وتزرع شجيرات المانجوليا والياسمين فى جنينتها، وتشترى وتبيع وتساوم كما يساوم المهاجرون الشوام، وعندما يحل المساء تغير ملابسها، فتخلع بنطلونها، وحذاء الركوب، وتودع الأسلحة التى تحملها فى أماكن حفظها، وتعود لارتداء الفساتين التى كانت ترتديها قبل أن يخطف الموت ذويها، الفساتين التى كانت قد طلبتها فأتتها محمولة من العاصمة فى علب معطرة، ومع حلول الليل، يبدأ زوارها فى الوصول فستستقبلهم وترحب بهم وتبالغ فى الاحتفاء بأن تعزف لهم على البيانو بينما الخدم يقدمون لهم صوانى الحلوى وكؤوس شراب اللوز المثلجة، ولقد تساءل الكثيرون فى البداية كيف تمكنت من النجاة بنفسها دون أن تنتهى بها الأمور إلى الدخول فى قميص المجانين بإحدى المصحات العقلية، أو التخلص من حياتها بنذرها لحياة الرهبنة فى دير الكرمل للراهبات. وبدلا من ذلك كله، فهاهى تواصل إقامة الحفلات فى عزبة آل أوريليانو، وبمرور الزمن كف

الناس عن الخوض فى الحديث عن المأساة، وشحبت حتى انمحت ذكريات اغتيال السيناتور، بل بلغ الأمر ببعض الفرسان من ذوى الحسب والنسب أن تشجعوا وعبروا عن أن بإمكانهم التغاضى عن وصمة عار اغتصابها أمام افتتانهم بالجمال الساحر والإحساس المرهف لدولثى روسا، وتقدم أكثر من واحد وهو يأمل أن توافق على الزواج منه، إلا أنها اعتذرت ورفضت طلباتهم جميعا. لأن رسالتها فى هذه الحياة هى الانتقام.

وبالمثل لم يستطع تاديو ثيسبيدس أن يتخلص من ذكريات تلك الليلة المشئومة، فمشاعره الموارة بداخله أثناء عودته ظافرا من المذبحة التى أقامها وانتشاؤه بلذة الاغتصاب، انقضت بعد ساعات قليلة، عندما كان ماضيا فى طريقه إلى العاصمة ليقدم تقريرا عن حملته التأديبية. عندها خطرت لفكره الفتاة وهى ترتدى فستان حفلة الرقص. ومتوجة بزهور الياسمين . وما سبب له الألم فى صمت، فى عتمة تلك الغرفة حيث كان الهواء مثقلا برائحة البارود. استعاد رؤيتها فى آخر لحظة، منهارة ومرمية على أرضية الغرفة، لا تكاد تستر عريها المزق الغارقة فى الدم، غارقة فى رحمة النوم ورحمة انعدام شعورها، وعلى هذه الحال كانت تتراءى له كل ليلة فى اللحظة التى يدخل فيها نومه خلال ما بقى من حياته، لقد حوله السلام، وممارسة المسئوليات الحكومية، والتمتع بالنفوذ، إلى رجل هادىء، مجتهد فى أعماله، وبمرور الزمن شحبت ذكريات الحرب الأهلية، ثم طواها النسيان، وبدأ الناس يعرفونه باسم «دون تاديو»، لقد اشترى

عزبة على الجانب الآخر من سلسلة الجبال، وكرس حياته للعمل قاضيا ثم انتهت به الأمور إلى أن أصبح عمدة، ولولا شبح دولثى روسا أوريليانو الذى يطارده بلا رحمة، لكان بإمكانه أن ينال قدرا كبيرا من السعادة، إلا أنه كان يتكدر صفوه دائما مع كل النسوة اللواتى صادفهن فى طريقه، وفى كل مرة مارس فيها الحب، كان وجهها يطارده طوال كل تلك السنين، وجه ملكة الكرنفال، والمصيبة الكبرى، ولسوء حظه الفادح، أن الأغانى الشائعة كثيرا ما كانت تحمل اسمه مقترنا باسمها فى أشعار الشعراء الجوالين، فلا تتيح له أبدا أن يقتلعها من قلبه. والصورة التى نمت للفتاة بداخله استولت على تفكيره بقوة، وفى يوم من الأيام بلغت به الأمور حدا فاق كل احتماله، يومها كان جالسا على رأس مائدة طويلة فى مأدبة مقامة خصيصا له احتفالا ببلوغه السابعة والخمسين من عمره، محاطا بأصدقائه، وزملاء دفعته العسكرية، عندما خيل إليه أنه رأى فوق مفرش المائدة مخلوقة عارية راقدة وسط براعم زهور الياسمين، أدرك لحظتها أن هذا الكابوس لن يفارقه ويدعه فى سلام أبدا، حتى ولا بعد موته، ضرب بقبضته المائدة حتى أن الصحون اصطدمت ببعضها، قام وطلب قبعته وعصاه، وسأله رئيسه:

ـ إلى أين أنت ذاهب يا دون تاديو؟

ـ لأكفر عن ذنب قديم.

أجابه وخرج دون أن يعطى الفرصة لأحد كى يودعه.

لم يكن فى حاجة للبحث عنها، لأنه كان يعرف دائما أنه سيجدها

فى البيت نفسه الذى واجهت فيه نكبتها، ولذلك فقد قاد عربته باتجاهها، ويومها وجد أن طرقا سريعة قد مدت، والمسافات بدت أقصر، وبدا المشهد وقد تغير خلال تلك العقود من الزمن، إلا أنه عندما دار بعربته فى آخر منحنى حول التل، ظهرت العزبة كما كانت تماما مثلما يتذكرها قبل أن تداهمها فرقته وتستولى عليها عنوة، كانت هناك السقوف الخشبية المقامة وفق الطرز القديمة قائمة بسبب دخان ألسنة النيران التى طالتها، وكانت هناك الأشجار التى علق على فروعها جثث رجال السيناتور ،كان هناك الفناء حيث مذبحة الكلاب، أوقف عربته على بعد مائة متر من البوابة ولم يجرؤ على مواصلة السير لأبعد من ذلك لأنه أحس بقلبه وهو يكاد ينفجر داخل صدره، كان على وشك أن يستدير عائدا لعربته ليرجع من حيث أتى، عندما انبعثت من بين شجيرات الورد واحدة ملتفة فى دوامة من الجونلات، أغمض عينيه متمنيا بكل ما يملك من قوة ألا تتعرف عليه، وفى الضوء الشفيف للسادسة مساء، تطلع إلى دولثى روسا أوريليانو التى تقدمت نحوه كما لو أنها تأتيه طافية طائرة فوق طرقات الجنينة،، تأمل خصلات شعرها، وتأمل وجهها المتألق، وتأمل تناسق حركتها، وتموجات قماش فستانها، وخيل إليه أنه يلتقى بها فى حلم لا ينقضى منذ خمس وعشرين سنة.

ـ تاديو ثيسبيدس، أخيرا جئت.

قالت ذلك أول ما لمحته، دون أن تترك نفسها لتضللها بدلة العمدة السوداء التى يرتديها، ولا هالة شعر الفارس الرمادى، لأنه مازال

يحتفظ بنفس يدى القرصان: يديه.

ـ لقد ظللت تطاردينني بلا هوادة، لم أستطع أن أحب أى واحدة طوال حياتى، حبى ظل لك أنت وحدك.

غمغم لها بذلك، وانقطع صوته المبحوح من شدة الخجل.

تنهدت دولثى روسا مزهوة، لقد ظلت تفكر فيه، وتناديه ليل نهار طوال تلك السنين، لكن هاهو فى النهاية قد جاء، والآن جاء دورها . غير أنها عندما تطلعت إليه وحدثت فى عينيه لم تجد أثرا للقاتل والمغتصب الذى انتظرته، ما وجدته لم يكن سوى دموع تترقرق، بحثت فى قلبها عن الكراهية المغروسة طوال حياتها إلا أنها لم تجدها. استحضرت اللحظة التى رجت فيها أباها أن يقدمها قربانا بأن يبقى على حياتها لكى تسترد دينهما منه، واستعادت آلام الاغتصاب التى سببها لها الرجل الذى كثيرا ما لعنته، والفجر الذى لفت فيه جثمان أبيها فى ملاءة الكتان، استعادت الخطة المحكمة التى وضعتها لانتقامها، لكنها لم تجد السعادة التى توقعتها، بل على العكس من ذلك، غرقت فى شعور عميق بالحزن، تناول تاديو ثيسبيدس يدها برقة بالغة وقبل راحتها وبللها بدموعه إذ كان ينتحب، عندئذ انتهى بها التفكير إلى أنها من كثرة ما فكرت فى الانتقام كل لحظة، فقد تذوقت طعم الانتقام حتى استنفذته، لقد عاشت عواطفها الدورة الكاملة للنكبة والانتقام وعندما اتمتها انتهت بأن وقعت فى حبه.

خلال الأيام التالية رفع كلاهما البوابات والسدود أمام فيضان

حبهما المكبوت، وللمرة الأولى وسط أقدارهما القاسية فتح كل منهما أبوابه ليستقبل اقتراب الآخر منه، فتنزها معا فى الجناين وهما يتحدثان فى كل شىء عن نفسيهما دون أن يتفاديا الكلام عن تلك الليلة المشئومة التى تغيرت فيها كل سبل حياتهما، وفى المساء كانت تعزف له على البيانو، أما هو فكان يستريح ليستمع إلى عزفها وهو يدخن حتى يحس بعظامه وقد سرى فيها الخدر، والسعادة تشمله وتلفه كعباءة، وتمحو كوابيس الماضى، وبعد أن تناولا العشاء معا، غادر ثيسبيدس البيت متجها إلى سانتا تريسا، حيث لا أحد يذكر وقائع المأساة القديمة المرعبة، نزل فى أفخم فندق، ومنه بدأ يرتب لليلة عرسه، أرادها ليلة جديرة بأن تتباهى بها، وقرر أن ينفق عليها ببذخ، وأن تكون الموسيقى مسموعة للجميع، ولابد أن تحضر البلدة كلها لتشاركه ليلة عرسه، لقد اكتشف الحب فى فترة من العمر يكون الرجال فى سنه قد فقدوا فيها الأمل، وذلك ما أعاد لشبابه فتوته. لقد رغب فى أن يحيط دولثى بالحب وبآيات الجمال، وأن يهبها كل ما تحلم به ويمكنه بثروته أن يوفره لها، أن تنال فى شيخوختها ما يعوضها عن الأذى البالغ الذى ألحقه بها فى شبابها، فى بعض الأحيان كانت تنتابه حالة من الهلع، عندما كان يراقبها خلسة، باحثا فى ملامحها عن أى علامة تشى بذرة كراهية خفية، إلا أنه لم ير سوى نور الحب المتبادل، وذلك ما أعاد الطمأنينة إليه، وهكذا قضيا شهرا من الحب.

وقبل يوم العرس بيومين، شرع القائمون فى الفندق يجهزون

للحفلة فى حديقة الفندق، ذبحوا طيورا وخنازير مخصية للمأدبة وقطفوا الزهور والورود لتزيين البيت، بينما أخذت دولثى روسا أوريليانو تجهز فستان الزفاف، رأت صورتها منعكسة فى المرآة، مثلما رأتها يوم تتويجها ملكة للكرنفال، ورأت أنها لاتستطيع تنفيذ خطة انتقامها، لأنها أحبت القاتل، لكنها لا تستطيع بذلك أيضا أن تهب السكينة لروح السيناتور.وهكذا طلبت من الخياطة أن تنصرف، وأخذت المقص وذهبت به للغرفة فى الفناء الثالث، والتى ظلت خلال هذه السنين كلها مهجورة ولا يسكنها أحد.

بحث تاديو ثيسبيدس عنها فى كل أنحاء البيت، ينادى وهو يائس عليها، نباح الكلاب فقط هو الذى قاده إلى الناحية الأخرى من البيت وبمساعدة الجناينية دفع الباب المغلق بالترباس من الداخل حتى هوى مرتطما بالأرض، ودخل الغرفة حيث رأى مرة واحدة ملاكا متوجا بتاج من زهور الياسمين، وجد دولثى روسا أوريليانو، مثلما ظل يراها فى أحلامه كل ليلة طوال حياته، بفستان الأورجانزا الملطخ بالدم نفسه، وتكهن بأنه محكوم عليه أن يظل حيا حتى يكمل سنينه التسعين، ليكفر عن خطيئته، بتذكره الدائم للمرأة الوحيدة التى أمكن لروحه أن تجد لديها الحب.

المنسى أكثر من النسيان

ايزابيل الليندى - شيلى

استسلمت للمداعبة، صامتة، وقطرات العرق على خصرها، ورائحة سكر محروق تفوح من جسدها الساكن، كانت كما لو أنها تحدس أن صوتا واحدا يمكن له أن يهيج الذكريات يلقى بها كلها إلى النسيان، تحولها تلك اللحظة إلى ذرات متناثرة. والتى كان هو فيها مثل الآخرين: عاشقا بالصدفة، هو الذى عرفته فى الصباح رجلا آخر بلا ماض، مسحور بلون شعرها الأقرب إلى لون سنابل القمح، وبالنمش ببشرتها، والصوت الرنان العميق لصلصلة أساورها الغجرية، ولسبب آخر: أنه صادفها فى الشارع. واقترح عليها أن يتمشيا معا دون أى غرض، كان يعلق على حالة الجو، وحركة المرور ويلاحظ الازدحام بتلك الطمأنينة، وبقليل من الادعاء فى كلامه عن المواطنين فى أرض غريبة: رجل بلا أحزان أو أحقاد،

وليس لديه الاحساس بذنب.

نقى كالثلج، حتى أنه رغب بصدق أن يقضى معها اليوم متجولا بين المكتبات، وخلال المتنزهات، وأن يشربا قهوة، احتفالا بكونهما محظوظين بتعرفهما على بعضهما، تحدثا معا عن حنينهما لأيام زمان، عن كيف كانت الحياة عندما كانا يكبران معا فى المدينة ذاتها، وفى نفس الضاحية عندما بلغ سنهما الرابعة عشرة. أتذكرين فصول الشتاء، وأحذيتنا التى غطاها الصقيع، ودفايات زيت البرافين، ثم فصول الصيف، ووجودنا هناك فى البلد الذى كان محظورا علينا التجول فيه.. ربما أحست بوحدتها إلى حد ما، أو بدا لها أنها كانت لديها الفرصة لأن تمارس الحب بدون أسئة. ولهذا، ففى نهاية المساء، ولما لم تكن هناك حجج إضافية ليواصلا تمشيتهما: أخذته من يده وصحبته إلى مسكنها، حيث تتقاسم مع آخرين منفيين: شقة متسخة، فى مبنى لونه أصفر يقع فى نهاية حارة سد، مليئة بأكياس القمامة، أما غرفتها نفسها، فكانت غرفة ضيقة، وعلى أرضيتها فرشت مرتبة مغطاة ببطانية مخططة، وبجوارها، على جنب، ألواح خشبية تستند على صفين من قوالب الطوب. وتجعل منها رفوفا للكتب، وكانت هناك أيضا الأفيشات وثوب ملقى فوق كرسى، وحقيبة فى الركن، وهنا خلعت ثيابها بلا مقدمات، وتصرفت كطفلة لطيفة ومطيعة.

حاول أن يمارس الحب معها، فطاف بجسدها متأنيا، صاعدا مرتفعاتها، وهابطا حيث منخفضاتها، ورسا دون ما استعجال على

مداخلها وهو يمسح عن جسدها رقائق بالغة الرقة من الطين فوق الملاءات، حت استسلمت وانفتحت له، عندها تراجع هو بتحفظ أصم، استدارت هى تبحث عنه متكورة على بطنه وهى تخفى وجهها، كما يجبرها على ذلك حياؤها البالغ، بينما تتحسسه وتلحسه، وتجلده، رغب فى أن يدعها تفعل ذلك بعينين مغمضتين وهى تركته يفعل ذلك للحظة حتى يتغلب على الحزن أو الخجل . وكان لزاما عليه أن يبتعد عنها، وأشعلا سيجارة أخرى، لم يكن ذلك تواطؤا على ارتكاب الفعل، فقد أضاع الهجوم المفاجىء الاحتياج الملح لأن يتحدا فى ممارسة الحب خلال ذلك اليوم، إلا أنهما ظلا فقط فى الفراش كائنين لا شىء يسترهما أو يحميهما، مذاكرة ساهية عما حولها، طافية فوق الخواء المخيف للكثير من الكلمات الخرساء، عندما تعرفا ببعضهما هذا الصباح، كانا يطمعان فى شىء غير معتاد، ولم يطلبا الكثير، فقط نوعا من الصحبة، وقليلا من المتعة، ولا أكثر، لكن فى ساعة اللقاء: قهرهما الحزن، إننا مرهقان، وابتسمت هى ملتمسة الأعذار عن هذا الكابوس الذى أقام جدارا بينهما، وفى اندفاعة أخيرة لكسب الوقت: أخذ هو وجه المرأة بين راحتيه وقبل رموش عينيها، وتمددا جنبا إلى جنب، ممسكين بأيديهما، وأخذا يتحدثان عن حياتهما فى هذه البلاد حيث التقيا بالصدفة، مكان حافل بالخضرة والترحيب، وحيث سيكونان بلا شك غرباء، وفكر فى أن يرتدى ملابسه ويقول لها وداعا قبل أن ينفث فيها سمومه من كوابيسه التى ستسمم الجو، إلا أنها كانت تراه شابا، قابلا لأن تنجرح أحاسيسه،

وأرادته صديقا لها، وليس عشيقا، صديقا يقتسمان معا ساعات من السكينة، دون تطلب حاجات ملحة، ولا أوضاعا محرجة، أرادته صديقا حتى لا يكون وحيدا، وحتى يمكنه أن يقاوم الخوف، وهو لم يقرر الافتراق عنها ولا أن يسحب يده، وغمره شعور حار ولطيف بحنان هائل، كما لو كان الحنان نفسه يغمرهما معا فجعل العيون تلمع وتبرق، وانتفخت الستارة بالهواء كما لو كانت شراعا، فقامت هى لتغلق النافذة، متخيلة أن العتمة يمكن أن تساعدهما على استرداد الرغبة فى أن يقتربا من بعضهما ويتجاورا فتستيقظ الرغبة فى أن يتعانقا، لكن لم يكن الأمر هكذا، فقد كان فى حاجة إلى تلك المزق المتسربة من نور الشارع، لأنها لو لم تكن موجودة، فسيحس بأنه محبوس من جديد فى جحيم التسعين سنتيمترا فى الزنزانة، خارج الزمن وهو يتخبط حانقا فى غائطه، وكذب عليها: دعى الستارة مفتوحة: لأننى أحب أن أراك .

كذب: لأنه لم يجرؤ على الاعتراف لها برعبه من الليل، عندما ضيقوا الخناق عليه مرة أخرى بالعطش، وبالعصابة المشدودة حول رأسه مثل تاج من المسامير، ومشاهد السلوك المنحدر من أزمنة الكهوف والمهمة التى تنفذها عدة أشباح، لم يستطع أن يكلمها عن ذلك، لأن كل شىء سيقود إلى شىء آخر، وسينتهى الأمر بأن يتكلم عنه أبدا، عادت هى لتقترب منه فى الفراش، وأخذت تداعبه بفتور، مرت أصابعها بين الآثار التى تركت بعض العلامات وهى تتفحصها، لا تشغل بالك، فهى ليست أشياء معدية، إنها مجرد ندوب، صدرت

عنه ضحكة هى أقرب إلى نهنهة البكاء، وأدركت الفتاة من صوته الخائر ثم انقطاعه، أن ذلك دليل على انهياره وسقطته، كان حذرا ويتصرف بتحفظ، وفى تلك اللحظة كان عليه أن يقول لها، بأن هذه ليست بداية لحب جديد، ولا لهوى عابر. وأنها لا تعدو لحظة هدنة، لحظة سذاجة، وسوف يجتازها بعد قليل، وعندما ستنام هى، سيذهب هو، ينبغى أن يقول لها، أنه لا توجد مشاريع ولا تصورات من أجلهما، ولا توجد طرق سرية، ولن يتسكعا مرة أخرى يدا بيد فى الشوارع، ولن يتقاسما ألعاب العشاق، لكنه لم يستطع الكلام، وبقى الصوت متشبثا وناشبا بصدره باستماتة مخلب، وأحس بأنه يغرق وحاول أن يتمسك بالواقع، الذى ينفلت من بين يديه، أو أن ترسو روحه على أى أرض صلبة. تشبث بالتطلع إلى الثوب الملقى بإهمال فوق الكرسى، والكتب المكومة فوق الأرض، والأفيش من شيلى المعلق على الحائط، والإحساس بعمق بالطراوة المنعشة لتلك الليلة الكاريبية، والتنصت على تلك الضجة الصماء الآتية من الشارع، حاول أن يركز بصره فى هذا الجسد الممنوح له ولا يفكر سوى فى هذا الشعر الجامح للفتاة، وفى تشمم رائحتها الحلوة، ورجاها بلا صوت أن تحسن إليه وتساعده فى أن ينقذ هذه الثوانى، بينما كانت هى ترقبه من الركن الأكثر بعدا من الفراش، وفى جلستها كانت تتخذ شكل فقير جالس، وحلمتا ثدييها صريحتان متقاطعتان، وعين سرتها تنظر له أيضا، تسجل ارتجافة واصطكاك أسنانه، ثم تصاعد عويله، وسمع الرجل تنامى الصمت بداخله،

وأعتقد أن روحه قد أنهارت، مثلما فعلوا به من قبل فى مرات كثيرة، وانقطع عن استمراره فى النضال، والآن يصرح بسره. السر الذى جعله يدفع بقسوة للسقوط المهلك بلا حد، وأحس بالسيور فى كعبيه ومعصميه، وإطلاق النار الوحشى، وأوتار العرقوب الممزقة، والأصوات هى تسب وتشتم وهى تنادى على الأسماء، والصرخات التى لا يمكن نسيانها من «أنا» وهى تتوسل بجانبه، ومن الآخرين وهم معلقون من أذرعهم فى الفناء.

ما الذى جرى لك بحق ربنا، ما الذى جرى لك! من بعيد جاء إليه صوت «أنا» . لا ف «أنا» بقيت موصولة فى مستنقعات الجنوب. وأعتقد أنه رأى واحدة مجهولة له، عارية، وهى التى زلزلته عندما نادته باسمه، لكنه لم يفلح فى أن يهرب من الأشباح حيث كانت الأعلام ترفرف والكرابيج تفرقع هائجة فوقه.

انهار وتقوس ظهره وانكفأ وهو يحاول أن يسيطر على نوبات القىء، وانخرط يبكى من أجل «أنا» ومن أجل الآخرين، ما الذى جرى لك؟ ومرة أخرى جاءه نداء الفتاة من مكان ما... لا شىء. خذينى فى حضنك..! رجاها بينما كانت تقترب منه وهى خائفة. لفت حوله ذراعيها وأخذت تناغيه كطفل وهى تقبل جبينه وتقول له: ابك، ابك، ومددته على ظهره فى الفراش، وتمددت هى فوقه وجسدها يتقاطع مع جسده فيأخذان شكل الصليب.

وظلا متعانقين هكذا لألف عام حتى غادرته هلوساته ببطء وعاد للغرفة، ووجد أنه مازال حيا بالرغم من كل ما جرى، وبدأ يتنفس بعمق، وقلبه ينبض مع ضغط جسدها على جسده والاثنان يتيمان

طريدان، وفى تلك اللحظة، وكما لو أنها وعت فجأة كل شىء، قالت له أن الخوف أقوى من الرغبة، ومن الحب، ومن الحقد، ومن الإحساس بالندم، ومن السخط، وأشد قوة من الالتزام بالعهد، الخوف شىء كلى، قاطع وباتر، كانت تقول ذلك ودموعها تنحدر لتسيل على عنقه، وتوقف كل شىء عند الرجل، ومس الجرح الأكثر خفاء، واتضح له أنها ليست فقط فتاة قادرة على ممارسة الحب، بل أن لديها القدرة أيضا على أن تعرف كيف تجد ذلك الشىء الرابض الأبعد من الصمت، خلف الوحدة المطلقة، الأبعد من الصندوق المختوم بالشمع الأحمر الذى أخفاه عن الكولونيل، وخيانته الحقيقية، الأبعد من تذكر «آنا ديان» والرفاق الآخرين، الوشاة، الذين كانوا قد أحضروهم واحدا فواحدا بأعين معصوبة، كيف تمكنت وكان بقدرتها أن تعرف ذلك كله؟

استوت الفتاة جالسة، وأمام النور المنبس لزجاج الشباك ظهر ذراعها النحيل بوضوح، أخذت تبحث عن زر نور الكهرباء، وأضاءت النور، ثم خلعت سواراتها المعدنية واحدا فواحدا، لتقع بلا ضجة على الفراش، كان شعرها يغطى نصف وجهها عندما مدت له يديها، كانت الندوب بها أيضا، ندوب بيضاء غائرة فى المعصمين، وخلال لحظة كالأبد، نظر وهو لا يصدق حتى أدركه تماما، الحب، ورآها وهى مقيدة بالسيور فوق شبكة التعذيب بالصعق الكهربائى ولحظتها أمكنهما أن يتعانقا وأن يبكيا، واستبد بهما جوع طاغ للتضامن والثقة، للكلمات المحظور النطق بها، لوعود الغد، ليتقاسما فى النهاية، السر الأكثر خفاء.

وسم السيف

خورخى لويس بورخيس - الأرجنتين

أثر الجرح الذى يحزم الوجه فيقطعه من أول الجانب المقابل حتى الجانب الآخر، يكشف عن الغل الذى سددت به الطعنة، قوس رمادى يمتد بكامل طوله حتى شوه الوجه بدءا من الصدغ فى ناحية حتى عظم الخد فى الناحية الأخرى، ما من أهمية الآن لاسمه الحقيقى، إذ أن الجميع فى تاكوارايمبو[١] أطلقوا عليه اسم: الإنجليزى القادم م الكولورادا[٢]. وكاردوسو مالك أراضى هذه الناحية لم يكن يريد أن يبيع له، ولقد سمعت أن الإنجليزى تحايل بطريقة لا يمكن أن تخطر على البال، مبرهنا على أن له الحق فيما يطلب، بأن اعترف بالسر أمام كاردوسو: سر هذا الجرح، كان الإنجليزى قد أتى من نواحى الحدود من منطقة: نهر الجنوب الكبير[٣]، ولم يخطىء من قال بأنه . فى البرازيل. كان مهربا. الأراضى التى أشتراها كانت

مغطاة بالحشائش الضارة والنباتات الشائكة والمياه المخصصة لريها كانت غير عذبة ومالحة، واضطر الإنجليزى لكى يصلح هذه الأرض ويعالج مشكلاتها أن يشتغل يدا بيد مع عمال الترحيلة الذين استأجروهم، يقولون أنه رجل شديد فى معاملته حتى القسوة، إلا أنه دقيق وحقانى، لكنهم يقولون أيضا أنه يشرب كثيرا لدرجة السكر، وأنه فى سنة حبس نفسه مرتين فى الغرفة العلوية ذات الشرف ثم خرج بعد يومين أو ثلاثة كما لو كان هاربا من الحرب أو من شىء أصابه بالذهول. كان شاحبا يرتجف، يسلك بشكل مرتبك، ومتسلط كما كان من قبل، أذكر نظرته وقد جمدت، وقواه الخائرة وشاربه الرمادى، لم يكن يولى أحدا ثقته حتى يساعده، وكان ينطق الأسبانية بطريقة بدائية فى الحقيقة، تتخللها بشكل فظيع اللغة البرازيلية، وفيما عدا بعض المكاتبات التى تخص أشغاله، أو كتيبات ما، لم يتلق أية رسائل، آخر مرة سافرت فيها للمقاطعات الشمالية، أرغمنى فيضان نهر كاراجوتا على أن أقضى ليلتى فى الكولورادا ولكنى أحسست بعد ظهورى بعدة دقائق أننى جئت فى الوقت غير المناسب.

لذا سعيت بشدة للتقرب إلى الإنجليزى علَّنى أحظى بمودته. فلجأت إلى طريقة لا تحتاج إلى كثير من الفطنة إذ شرعت فى مغازلة ميوله الوطنية، قلت أن وطنا وهبت له الروح التى لإنجلترا هو وطن لا يمكن قهره، أمن محدثى على كلامى، لكنه أضاف مبتسما بأنه ليس إنجليزيا، بل هو أيرلندى، من «دونجاربان» (وهى مدينة فى

أيرلندا الجنوبية) صرح بقوله هذا ثم توقف عن الكلام كما لو أنه قد أفشى سرا، بعد العشاء، خرجنا، لنتطلع إلى السماء: المطر قد انقطع، لكن خلف التلال فى الجنوب دوى صوت الرعد وانبعث وهج البروق، وبدا كما لو أن عاصفة أخرى تتكون وتتهيأ لأن تهب علينا، عدنا إلى قاعة الطعام وكانت بحالة سيئة، حيث حمل إلينا الخادم الذى خدمنا على العشاء من قبل زجاجة روم. وقضينا الوقت بطوله، ونحن نشرب فى صمت.

عندما انتبهت إلى أننى سكرت، لم أكن أعرف كم كانت الساعة، ولا أعرف إذا كان ما حدث كان بدافع من الإلهام أم من نشوة السكر أو من وطأة الشعور بالملل، ذلك الذى جعلنى أشير إلى الجرح، وما أن أشرت إليه حتى شحب وجه الإنجليزى وللحظات فكرت أنه سوف يلقى بى خارج البيت، لكنه فى النهاية قال بصوت أليف:

سأروى لك حكاية هذا الجرح ولكن تحت شرط واحد: ألا تحاول أن تخفف عنى أبدا وطأة هذا العار، أو ترجع هذه الفضيحة للظروف. وافقت، وهذه هى الحكاية التى رواها لى بلغته التى هى خليط من الأسبانية والإنجليزية والبرتغالية:

كنا حوالى ١٩٢٢، فى إحدى مدن كناوت[٤]، وكنت واحدا ضمن كثيرين ممن يدبرون ويعملون سرا على استقلال أيرلندا[٥]، بعض رفاقنا نجوا بحياتهم بأن حصروها فى إطار الجهود السلمية، وآخرون ساروا على النقيض من ذلك فخاضوا القتال فى الصحراء

تحت العلم الإنجليزى أما البعض الآخر، وكانوا أكثرنا نبوغا ووعيا فلقد أعدموا فى فناء إحدى الثكنات العسكرية فى الفجر، أطلق عليهم الرصاص جنود كانوا مازالوا مثقلين بالنعاس، وآخرون (وليسوا أكثرنا تعاسة) . فلقد لاقوا حتفهم فى المعارك التى لم يعرف بها أحد والتى هى أقرب ماتكون إلى عمليات سرية فى جحيم الحرب الأهلية، لقد كنا جمهوريين، كاثوليك، وكنا كما أعتقد، رومانتيكيين، إذ لم تكن أيرلندا بالنسبة لنا المستقبل الطوباوى فقط، والحاضر الذى لا يمكن تحمله، بل كانت أسطورة مفعمة بالمرارة والحنان، لقد كانت الأبراج المستديرة، والمستنقعات الدامية، ونكران بارنيل[٦].

وملاحم البطولات العظيمة التى تحكى عن سارقى الثيران، والتى تتجسد فتخرج علينا أبطالا مرة، وحيتانا وجبالا مرة أخرى. وفى ليلة لن أنساها أبدا، أتى إلينا رفيق من رفقاء حزبنا فى مونستر[٧]. وكان هذا الرفيق هو جون فنسنت مون نفسه، كان فى العشرين من عمره على الأقل، وكان بالرغم من نحافته رخوا ويعطى المرء إحساسا بالإنزعاج لكونه يبدو عديم الفقرات، كان مجادلا صعب المراس إذ كان يجادل بحدة وخيلاء وبطريقة واحدة تقريبا كل الأوراق التى لا أعرف أن كانت من كتيبات شيوعية أم من كتابات أخرى، مستخدما المادية الجدلية كسيف مصلت للمقاطعة والتعمية على الحقائق فى النقاش. إن الأسباب التى يمكن للإنسان أن يتخذها كى يكره إنسانا آخر أو يحبه أسباب لا تنتهى، ولقد اختزل مون تاريخ العالم إلى صراع اقتصادى أصم، وانتهى إلى الزعم بأن

الثورة أوشكت على الانتصار.

أجبته باعتقادى أنه فيما يخص الإنسان النبيل، فالقضايا الخاسرة وحدها هى التى تحظى باهتمامه.. وكنا مازلنا بالليل ونحن نواصل جدلنا فى المدخل، وعلى السلالم ثم طوال تجوالنا فى الشوارع، والأثر الذى كانت تتركه آراء مون فى النهائية على تفكيرى كان أقل من أثر لهجته غير القابلة للرد، إذ ينطقها بشكل قاطع، وهكذا فإن الرفيق الجديد لم يكن ليحاول أن يقنع أحدا بل يكتفى بأن يملى ما يراه بتعال ووجه مكفهر يستشيط غضبا.

عندما كنا نصعد الطريق نحو البيوت التى تقع فى نهايته أوقفنا إطلاق نار مفاجىء (قبله أو بعده وكنا بمحاذاة سور مصمت بلا نوافذ ربما كان سور مصنع أو ثكنة عسكرية) عدنا ودخلنا فى شارع مترب غير مرصوف، خرج علينا جندى هائل الحجم من كشك مضاء وهو يصرخ فينا ويأمرنا بالتوقف، غير أننى شددت الخطى بعيدا عنه، إلا أن رفيقى لم يتبعنى فى السير، التفت ورائى: ظل جون فينسنت مون بلا حراك، واقفا فى حالة ذهول كما لو أنه قد تحجر من الرعب، حينئذ استدرت عائدا لهما، وبضربة واحدة طرحت الجندى أرضا، ثم جذبت مون، ووبخته وأمرته أن يتبعنى، وكان لزاما على أن آخذه من ذراعه، إذ جعله خوفه المريع عاجزا عن السير، فررنا فى الليل الذى كانت تخترقه طلقات الرصاص، وابل من طلقات البنادق كان يترصدنا، وخدشت طلقة كتف مون الأيمن، وفى اندفاعنا لنتخفى داخل أشجار الصنوبر سمعته ينخرط فى

البكاء بصوت خافت..

كنت قد عثرت فى ذلك الخريف من عام ١٩٢٢ على مكان احتمى فيه، كان فيلا الجنرال بيركلى (وهو الرجل الذى لم أكن قد قابلته أبدا) إذ كان وقتها فى الخارج مكلفا من الإدارة ببعض المهام الخارجية فى البنغال.

لم يبلغ عمر المبنى قرنا من الزمان، ومع ذلك فلقد كان مبنى متداعيا، معتما وكئيبا، كانت له عدة مداخل يتوه المرء فى ممراتها، وكانت قاعاته خاوية، أما المتحف والمكتبة فقد احتلا الدور الأرضى بكامله، كانت الكتب المثيرة للجدل حول ما تطرحه، ولم تكن مرتبة تغطى بشكل ما تاريخ القرن التاسع عشر، أما السيوف المقوسة من نيسابور وفى وضعها كأقواس فى دائرة فلقد كانت تبدو كما لو أنها ظلت محتفظة بالعواصف واحتدام الحروب، أعتقد أننا دخلنا . على ما أذكر، من الأبواب الخلفية، كان مون يرتجف وشفاهه متيبسة، همس لى بأن أحداث الليلة كانت مثيرة عملت له الإسعافات الأولية وجئت له بكوب من الشاى، واكتشفت أن جرحه كان سطحيا، أسرع وهو يغمغم مرتبكا.

ـ لكنك أقدمت على مخاطرة تكشف عن رقة قلبك.

قلت له ألا يشغل باله (لأن طبيعة الحرب الأهلية كانت تدفعنى بالضرورة لأن أفعل مثلما فعلت، وعلاوة على ذلك، فإن سجن رفيق واحد يعرض قضيتنا للخطر)

فى اليوم التالى استرد مون رباطة جأشه، تناول سيجارة ومارس

على ضغوطا شديدة وهو يستجوبنى ويتقصى عن مصادر تمويل حزبنا الثورى. كانت أسئلته سافرة تماما، أخبرته (وكانت تلك هى الحقيقة) بأن الموقف المالى متأزم لدرجة الخطورة مع أن صوت رصاص بندقية واحدة تكفى لإثارة القلاقل فى الجنوب، وأبلغت مون بأن رفاقنا فى انتظارنا، معطفى ومسدسى كانا بغرفتى، عند عودتى بهما وجدت مون ممدا على الكنبة وبعينين مقفلتين أبدى مخاوفه من أن تكون الحمى ألمت به، مشيرا إلى تقلصات مؤلمة بكتفه، أدركت حينئذ أن جبنه لا علاج له، وبتبلد أربكه بالتأكيد، طلبت منه أن يعتنى بنفسه ثم ودعته، لقد أخجلنى هذا الشخص بخوفه، كما لو أننى أنا الذى بدوت جبانا وليس فنسنت مون، فما يأتيه إنسان يصبح كما لو أتاه الناس جميعا، ولذلك فليس من الظلم أن وجود إنسان واحد شقى فى حديقة ما يمكنه أن يلوث شرف الجنس البشرى كله. وكذلك فليس من الظلم أن القيام بعملية الصلب لواحد من اليهود(*) يكفى ليخلص العالم. وربما لشوبنهاور الحق فى أن يقول : «أنا هو الآخرون» أى أن كل إنسان هو كل الناس، وأن شكسبير هو على نحو ما: فنسنت مون الشقى.

قضينا تسعة أيام فى البيت الكبير للجنرال، وأما عن معاناتنا من ويلات الحرب، أو التباهى بأمجادها، فلن أفضى بشىء: إذ أن هدفى هو أن أروى حكاية هذا الجرح وأثره الذى يلحق به المهانة. وتلك الأيام التسعة حسبما أتذكرها، تكون يوما واحدا متصلا باستثناء اليوم قبل الأخير عندما اقتحم رجالنا إحدى الثكنات العسكرية،

وتمكنوا من أن يثأروا ،كما كان يجب، لرفاقنا الستة عشر الذين كانوا قد حصدوهم بالمدافع الرشاشة فى قرية «إلفين» [٨] وكنت قد تسللت من البيت حوالى الفجر، فى غبشة الغسق، وعند حلول الليل كنت قد عدت، كان رفيقى ينتظرنى بالدور العلوى إذ لم يسمح له جرحه بالنزول إلىّ فى الدور الأرضى، أتذكره وبيده كتاب ما عن الإستراتيجية فى الحرب : «ف. ن. مادوى. أوكلاوشفيتز»، ولقد اعترف لى ذات ليلة بأن السلاح الذى أفضله هو المدفعية ». ثم بات يسألنى عن خططنا فى المعارك. وانتقدها، ثم أبدى رغبته فى تغييرها، وأعتاد أن يشهر أيضا بوضعنا الاقتصادى الذى يرثى له» وتنبأ بطريقته الدوجماتيكية الكئيبة بالنهاية المروعة التى تنتظرنا ثم غمغم بالفرنسية:

(C'est une affaire Flam Lie) «إنها قضية خاسرة» ولكى يبدى عدم اكتراثه بطبيعة الجبن فيه، والتى انكشفت أمامى، أخذ يتفاخر ويتباهى بعظمة قدراته العقلية الهائلة، لقد انقضت على هذا المنوال، وسواء أكان ذلك خيرا أم شرا، تلك الأيام العشرة. وفى اليوم العاشر سقطت المدينة بشكل نهائى فى أيدى: The Black and Tans [٩] فوق الأحصنة كان عسكر السوارى الطوال ساكتين فيما يقومون بدوريات حراسة ليلية فى الطرق حيث تهب الرياح محملة بالتراب المثار ودخان الحرائق، وعند ناصية الشارع رأيت على الأرض جثة مرمية، لصقت بذاكرتى أقل مما حدث للدمية التى كان العساكر يتدربون بإطلاق النار عليها كهدف فى قلب الميدان

العام بلا توقف.

فى الوقت الذى ملأ السماء فيه نور الصباح خرجت، وقبل أن ينتصف النهار كنت قد عدت، كان مون فى المكتبة، وكان يتحدث إلى شخص ما، ونبرة صوته هى التى جعلتنى أدرك أنه كان يتحدث فى التليفون. بعد قليل سمعته يذكر اسمى، وبعد أن قال إننى. أنا. سأعود فى السابعة مساء، أرشدهم إلى الكيفية التى سيتمكنون بها من القبض علىّ عند اجتيازى حديقة المنزل.

وهكذا فلقد كان صديقى العقلانى يبيعنى وهو فى أوج تعقله!... بعد ذلك سمعته وهو يطلب الضمانات التى تخص سلامته الشخصية.

وعند هذا الحد، فحكايتى تنعقد خيوطها، وتكاد تفلت منى. غير أن ما أعرفه جيدا أننى اندفعت وراء ذلك المخبر، من عتمة الممرات الكابوسية حتى السلالم الملتوية المنحدرة بشدة إلى أسفل حتى أصابنى الدوار، واضح أن مون يعرف البيت جيدا، بل ويعرفه أكثر منى، إذ أنه نجح فى الإفلات منى مرة أو مرتين، إلا أننى أدركته وحاصرته فى أحد الأركان، وقبل أن يأتى الجنود ويمسكوا بى، خطفت من خزانة أسلحة الجنرال، السيف المقوس القصير الثقيل، وبذلك النصف قمر من الصلب وسمت وجهه للأبد، بنصف قمر من الدم، «بورخيس: ها أنا قد أعترفت لك، لرجل لا أعرفه وهكذا فإن احتقارك لى لن يضاعف من آلامى».

توقف الرجل عن حكايته عند هذا الحد، ولاحظت يديه ورأيتهما ترتجفان، سألته: « وماذا عن مون؟» أجابنى: تقاضى ثمن خيانته

وهرب إلى البرازيل، فلقد فوجىء عصر ذلك اليوم بضرب نار فى الميدان من جماعة سكارى على دمية. وعندئذ تنهد بحرقة، ثم أخذ يرينى برقة وعذوبة الجرح المقوس الضارب إلى البياض ثم قال وهو لا يكاد يبين:

ـ « حضرتك لاتصدقنى؟» ألا ترانى أحمل عارى هذا مكتوبا على وجهى؟

لقد حكيت لك هذه الحكاية يا سيدى بهذه الطريقة حتى تسمعها للنهاية، لقد وشيت بالرجل الذى منحنى حمايته: أنا فنسنت مون، والآن لك أن تحتقرنى.

الهوامش:

(١) تاكوارايمبو: مدينة تقع فى شمال الأورجواى ولا تبعد كثيرا عن حدود البرازيل.

(٢) الكولورادا: اسم مزرعة كبيرة لتربية المواشى والدواجن

(٣) نهر الجنوب الكبير: أكبر ولاية فى جنوب البرازيل.

(٤) كناوت: إقليم يقع غربى أيرلندا.

(٥) حرب الاستقلال: حرب من أجل استقلال أيرلندا نشبت فى الفترة من ١٩١٧ حتى ١٩٢١، وفى عام ١٩٢١ أصبحت دولة أيرلندا الحرة تابعة للكومنولث البريطانى وعندئذ اندلعت الحرب الأهلية التى دامت حتى ١٩٢٢.

(٦) بارنيل: زعيم المقاومة الأيرلندية ضد حكام المقاطعات الإنجليزية اتفق مع جلاوستون على مشروع الإصلاح الزراعى لإعادة توزيع الأراضى الزراعية فى أيرلندا توزيعا عادلا.

(٧) مونستر: مدينة جنوب غرب أيرلندا.

(٨) إلفين: قرية فى أيرلندا.

(٩) Black and Tans: اسم أطلقه الوطنيون الأيرلنديون على الفرق المسلحة من جنود الخيانة البريطانية التى تقاتل ضدهم.

السر المعجزة

خورخى لويس بورخيس - الأرجنتين

(فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم)

(سورة البقرة الآية ٢٥٩)

فى تلك الليلة من الرابع عشر من عام ١٩٣٩ وفى شقة زلتنير جاس ببراغ، حلم جارومير هلادك مؤلف تراجيديا «الأعداء» التى لم تكتمل، وكاتب «دفاع عن الأبدية»، وبحث عن المصادر اليهودية غير المباشرة لـ «جاكوب باوم» بأنه يلعب دور شطرنج طويلا، لم تكن المباراة بين شخصين بل بين عائلتين شهيرتين، ولقد بدأت المبارة منذ عدة قرون ولم يكن باستطاعة أحد أن يتذكر ما الذى كان يتراهنان عليه، لكنهم أشاعوا بأنه كان رهانا خطيرا، وبلاحدود، كانت القطع ورقعة الشطرنج موجودة بأحد الأبراج غير المعروفة، (وفى الحلم) كان جارومير هوالابن البكر لإحدى العائلات المعروفة بنضالاتها،

وكل الساعات دقت ساعة بدء المباراة التى كان من المستحيل تأجيلها، وكان الحالم يركض فى الصحراء التى تجتاح رمالها الأمطار، ولم يفلح فى تذكر أى من قطع الشطرنج أو الملوك، وفى تلك اللحظة صحا من نومه.

كانت قرقعة الأمطار قد انقطعت، والدقات الرنانة المرعبة للساعات قد توقفت وبإيقاع متوافق أخذت تتعالى الصيحات من زلتنير جاس بينما تقطعها أصوات تصدر الأوامر، كان ذلك وقت الفجر، وهو الوقت نفسه الذى كانت طلائع التاريخ الثالث تدخل فيه براغ.

التسعة عشر الذين يشكلون المجلس الحاكم تلقوا عريضة الاتهام ضد الرجل التاسع عشر جرومير هلادك، وكان قد اعتقل فى ساعة متأخرة من الليل واقتادوه إلى معسكر من معسكرات التطهير، وكان عبارة عن ثكنة عسكرية مدهونة باللون الأبيض فى الجهة المقابلة لـ «مولداو». لم يكن بمقدوره دفع التهمة، إذ أن إحدى التهم التى وجهها الجستابو إليه، كانت أن اسم عائلة والدته هو .. جاروسلافسكى، وبذلك فقد كان ممن يحملون فى عروقهم الدم اليهودى، ثم أن بحثه عن «باوم» كان دليلا دامغا على يهوديته. وإمضاءه عليه كان الذريعة التى أطلقت أيديهم لوضعه فى خانة المحرضين على عدم التعاون مع المجلس الحاكم، ثم أنه قد سبق له أن ترجم «سفر عزرا» سنة ١٩٢٨ لدار نشر «هرمان بارسدورف» ولم يخف كتالوج هذه الدار نزوعه إلى المبالغة فى مدى شهرة

المترجم، وكان ذلك لأسباب تجارية تخدم أغراض النشر، هذا الكتالوج تصفحه «يوليوس روث» أحد رجال السلطة الذين يملكون فى أيديهم تقرير مصير هلادك، وكان من المستحيل وجود إنسان واحد، بعيد عن تخصصه، ولا يتورط فى التصديق على الفور على هذا الاتهام، إذ أن التعرف على سمة أو سمتين لخطه القوطى يكفى لأن يدفع يوليوس روث، إلى الإقرار بخطورة هلادك، وإدانته والحكم عليه بالموت، استنادا إلى تحريضه للآخرين على عدم التعاون مع المجلس الحاكم، وتحدد لتنفيذ حكم الإعدام يوم ٢٩ مارس الساعة التاسعة قبل الظهر وذلك التأجيل فى تنفيذ الحكم (ولسوف يدرك القارىء أهمية ذلك فيما بعد) كان وفقا لمشيئة السلطات الحاكمة، والتى لم تتسم إجراءاتها بأى طابع إنسانى، بل بالآلية المصمتة التى تحكم حركة النباتات والكواكب. أول ما انتاب هلادك كان إحساسا مطلقا بالرعب، فكر بأنه ربما لم تكن المشنقة لتثير فيه هذا الرعب، أو ضرب العنق أو الذبح، لكن الإعدام بالرصاص فهذا شىء لا يمكن احتماله، وعبثا كرر القول لنفسه بأن الموت نفسه عموما، إذا جردناه من الظروف المحيطة به، هو المرعب، وليس الظروف المحددة التى يجىء فيها الموت، لم يتعب من تخيل تلك الظروف، وبشكل عبثى ألح بالتفكير فى استنفاد كل الظروف المختلفة والمحتملة، ولم يكف عن التنبؤ بما ستكون عليه صورة الإجراءات فى تنفيذ الإعدام الذى صدر به الحكم، من أول الأرق الذى سيلازمه حتى طلوع الفجر، وحتى الفرقة المجهولة التى ستطلق عليه النار، وقبل أن يأتى اليوم

الذى حدده «يوليوس روث» مات مئات الميتات فى أغنية أرهقت أشكالها وزواياها علم الهندسة: مرميا برصاص المترووليوزات التى يحملها جنود مختلفون يتغيرون فى كل مرة ويتغير عددهم، أحيانا يفتحون النار عليه ويعدمونه من مسافة بعيدة، وأحيانا أخرى من مدى أقرب جدا، واجه تصوراته لحكم الإعدام التى تخيلها بخوف حقيقى (وربما بشجاعة حقيقية) ولم تدم كل صورة متخيلة إلا لثوان معدودة، ولما استحكمت حلقة هذه الخيالات حوله، رجع جارومير مرة أخرى إلى وقت امتد طويلا فى صلوات المساء متهيبا ليلة موته، وحينئذ فكر بترو فى أن ما يجرى فى الواقع لا يتطابق، فى العادة، تماما مع توقعاتنا له، وبمنطقه المراوغ والمضلل تحايل كى يخرج بنتيجة يكون لزاما عليه بمؤداها أن يتنبأ بوقوع أحداث تطرأ على ترتيبات تنفيذ حكم الإعدام وتحول دون حدوثه، وأمينا مع نفسه وإدراكه لضعف هذه الحيلة السحرية التى لا تعدو نوعا من الشعوذة، تخيل وقوع معجزات هائلة، كى تحول دون حدوث وقائع إعدامه، غير أن خوفه انتهى إلى أن هذه المعجزات، بالطبع، ما هى إلا توقعاته، ويائسا فى الليل، سعى جاهدا لأن يمسك بالجوهر اللامتناهى للزمن، مدركا أن ذلك الذى ينفلت منه يتسارع مندفعا نحو فجر اليوم التاسع والعشرين، وفكر بصوت عال: أننى الآن فى الليلة الثانية والعشرين وطوال هذه الليلة (وطوال ست ليال أخرى) فأنا محصن ضد الموت وباق على قيد الحياة، وفكر بأن ليالى النوم تبدو بالنسبة له مظلمة وعميقة كمياه المستنقعات وباستطاعته أن يغرق نفسه فيها،

وأحيانا كان يتمنى وقد نفذ صبره أن يطلق الرصاص عليه من فرقة الاعدام التى يمكنها أن تحسم أمره وتحرره، سواء كان ذلك هو الأفضل أو الأسوأ بالنسبة إليه، فإنها سوف تحرره من حمله مكرها على مواصلة تفكيره العبثى.

فى الليلة الثامنة والعشرين، وقتما كانت أشعة شمس آخر غروب تنعكس على زجاج نوافذ الحائط العالى المواجه له، انتشله من تلك الانشغالات التافهة، تفكيره فى مسرحيته «الأعداء».

كان هلادك قد تجاوز الأربعين من عمره، وإذا استثنينا بعض الصداقات وكثيرا من عاداته، فإن مزاولته للأدب، ،التى يكتنفها الغموض، هى التى تشكل جوهر حياته، وككل كاتب فالمعيار الذى يقيم به إنجازات الآخرين يكون من خلال ما برعوا فى إنجازه طالبا منهم أن يتموه هو بما تخيله أو هيىء له، كل الكتب التى نشرها خلفت فى روحه الإحساس المعقد والمتكرر بالأسف على كتابتها، ولقد بدت السمة الأساسية لتحقيقاته لعمل باوم حول «ابن عزرا» بشكل ينم عن التهافت والإرهاق والتخمينات الملقاة على عواهنها.

ربما تميز «دفاع عن الأبدية» بأن جوانب قصوره أقل، فالمجلد الأول يحكى تاريخ تخيلات الإنسان للأبدية، بدءا من الوجود الذى لا يمكن تغييره حسبما يرى بارمينيدس حتى الماضى الذى يمكن تغييره حسبما يرى هنتون، البرهان الثانى(حسبما يرى فرانسيس برادلى) أن كل الأحداث فى العالم، والتى تتوالى فى الزمن أثبتت أنه لا نهاية لعدد أشكال الوجود المحتملة للإنسان وأنه يكفى أن يحدث

عود لحياة لمرة أخرى واحدة حتى يبرهن على أن الزمن خدعة.. ولسوء الحظ فإن تلك البراهين أو الحجج التى تبرهن على ذلك لم تكن أقل خداعا، وكان هلادك يتطلع إلى ذلك كله بازدراء وحيرة، وكان قد كتب من قبل مجموعة من القصائد التعبيرية، ومما أربكه أنها نشرت ضمن منتخبات شعرية سنة ١٩٢٤، وما من منتخبات شعرية أخرى كانت تصدر بعد ذلك إلا ونشرتها ضمنها، بسبب كل هذا الماضى الهزيل المشكوك فى قيمته، أمل هلادك أن يرد الاعتبار لذاته بمسرحيته الشعرية «الأعداء» (امتدح هلادك نفسه وأشار بأنه كتب هذه المسرحية شعرا) لأن ذلك يحول بين مشاهدى المسرحية والسهو عن لا واقعيتها، والتى هى شرط من شروط الفن.

هذه المسرحية حافظت على وحدات الزمن، والمكان، والحدث ولقد جرت أحداثها فى هرادكانى، فى مكتبة البارون دى روميرستاد فى إحدى أمسيات الأيام الأخيرة للقرن التاسع عشر. ففى اللوحة الأولى من الفصل الأول يزور شخص غريب روميرستاد.(دقات الساعة تعلن السابعة، أشعة شمس الغروب الأخيرة تتوهج بشدة وتكسو بروعتها النوافذ الزجاجية، والنسائم تحمل صوت موسيقى مجرية أليفة وساحرة) هذه الزيارة أعقبتها زيارات آخرين وروميرستاد يجهل هؤلاء الأشخاص الذين يتدافعون بإلحاح لزيارته، غير أنه يحمل شعورا بعدم الارتياح لهم، إذ يبدون له كما لو كان قد رآهم بشكل ما من قبل، ربما كان ذلك فى حلم.

إنهم يتملقونه ،كلهم، بشكل مبالغ فيه، هذا أول ما يتضح لمن

يشاهدون المسرحية ثم للبارون بعد ذلك، أنهم أعداؤه المتخفون والذين يتآمرون للقضاء عليه، نجح روميرستاد فى أن يوقفهم عند حدهم أو تجنب الوقوع فى الفخاخ التى نصبوها له، إذا لمّحوا فى الحديث إلى خطيبته «جوليا فون فيديانو» وواحد مثل «جاروسلاف كوبين» الذى ألمح مرة عن حبه لها، والآن يبدو هذا الرجل وكأنه قد فقد صوابه، إذ يعتقد أنه أصبح هو نفسه «روميرستاد» وهكذا، فالأخطار تتزايد حتى أن «روميرستاد» فى الفصل الثانى اضطر لأن يقتل أحد المتآمرين، يفتح الفصل الثالث والأخير وقد فقد الحوار تماسكه شيئا فشيئا: لقد عاد الممثلون الذين بدأوا، وكانوا قد استبعدوا فى التو من المسرحية، وعاد خلال لحظة واحدة الرجل الذى قتل بيد «روميرستاد» ثمة شخص لاحظ أن المساء لم يحل بعد: الساعة دقت السابعة، فى زجاج النوافذ العالية توهجت الشمس الغاربة، حمل النسيم صوت الموسيقى المجرية الساحرة. ظهر الراوى الأول وكرر العبارات التى ألقاها من قبل فى اللوحة الأولى من الفصل الأول، وتحدث إليه «روميرستاد» دون أن يبدو عليه الاندهاش، والمتفرجون يدركون أن «روميرستاد» هو نفسه «جاروسلاف كوبين» البائس، بل أن المسرحية نفسها لم يحدث أبدا أن عرضت على المسرح، إنها الهذيان الذى يحياه كوبين ثم يحياه من جديد دون أن ينتهى أبدا.

وأبدا لم يسأل هلادك نفسه إذا ما كانت التراجيكوميدية المليئة بالأوهام المسرحية تافهة أم فى مقدورها أن تحظى بالإعجاب.

محكمة البناء أم تقوم على محض عدة مصادفات، لقد أحس بأن حبكة المسرحية التى قدمت لها فى التو وصفا سريعا، كانت أفضل وسيلة لإخفاء نواقصه، وحتى يتمرن فيها على الأعمال التى تمنحه حالات من المتع، ومن أجل أن تعمل من خلالها طاقاته الذهبية والقدرة على إنقاذ جوهر حياته (بشكل رمزى) فلقد أتم الفصل الأول، ومشهدا أو اثنين من الفصل الثالث: والبحر العروضى الذى أتخذه لعمله الشعرى أتاح له قدرة دائمة على ضبط الأوزان السداسية(فى العروض اليونانى) دون أن يكون المخطوط أمامه، فكر بأنه لن يتمكن بعد من الانتهاء من كتابة فصلين، وأنه سيمضى فى الصباح الباكر ليواجه حتفه، وفى ظلمة الليل أخذ يتكلم بصوت مسموع مناجيا الله: إذا كنت قد خلقتنى من طراز ما من البشر. وقد لا أكون واحدا من رجالك المصطفين والذين لا يمكن أن يوجد مثلهم على الأرض، إلا أننى خلقت فى هذه الحياة كمؤلف لمسرحية «الأعداء» وحتى أكمل هذه المسرحية، وحتى يمكنك أن تغفر لى خطاياى وأن تتجلى قدرتك فإننى أسألك ياربى أن تمد فى عمرى سنة واحدة أخرى، امنحنى تلك الأيام، أنت يا من تعن له القرون والأزمان، وكانت تلك هى الليلة الأخيرة، الليلة الأفظع من لياليه التى انقضت، إلا أنه، وبعد عشر دقائق فقط، أغرقه النوم كموج مظلم.

وفى نومه حلم هلادك، وكان ذلك حوالى الفجر، بأنه كان مختفيا فى إحدى قاعات مكتبة (الرحمة) وكان أمين المكتبة يضع على عينيه نظارة سوداء، سأله: «عم تبحث؟» أجابه هلادك: «أبحث عن الله».

قال له أمين المكتبة:« أن الطريق إلى الله يبدأ من حرف من الحروف فى صفحة من الصفحات من مجلد من المجلدات الأربعمائة ألف الموجودة فى مكتبة الرحمة، آباؤنا وآباء أبائنا قد بحثوا عن هذا الحرف، ولقد ظللت أبحث عنه حتى عميت... ثم خلع نظارته ورأى هلادك عينيه اللتين فقدتا قدرتهما الحية على أن تبصرا، عينيه الميتتين، وأقترب منهما قارىء من رواد المكتبة ليرد للأمين أطلس للخرائط: «هذا الأطلس لا فائدة منه»، ثم ناوله لهلادك الذى فتح صفحاته كيفما اتفق فإذا بالكتاب ينفتح على خريطة من الهند أذهلته وأصابته بالدوار، ومن المؤكد أنه فوجىء بنفسه وهو يتحسس واحدا من أصغر الحروف وأرقها، حرفا صغيرا جدا، ثم وهو يسمع صوتا يملأ الكون ويأتيه ويكلمه: الزمن الذى تحتاجه لعملك قد منح لك، وهنا استيقظ هلادك.

تذكر أن أحلام البشر من عمل الرب ولقد كتب موسى ابن ميمون أن الأصوات التى تأتى فى الحلم ما هى إلا أصوات سماوية، خصوصا عندما تنطق بطريقة واضحة الاختلاف، ولا يمكننا أن نرى عمن يصدر الصوت، ارتدى ملابسه، حالما فتح جنديان زنزانته ودخلا عليه وأمراه أن يقوم ويتبعهما.

كان هلادك قد تخيل، من خلف الباب، كل ما سوف يراه: متاهة من الدهاليز والسلالم العديدة، بنايات عسكرية منفصلة، لكن الواقع كان أقل إثارة مما تخيل، وأكثر بؤسا، فلقد نزلوا درجة سلم حديدى واحدة ليصلوا لأرض الفناء الداخلى، كان بأرض الفناء جنود

عديدون، يرتدون سترات عسكرية رسمية مفتوحة الأزرار بينما يفحصون موتوسيكلا ويتناقشون حوله، نظر الرقيب أول إلى الساعة، كانت الثامنة وأربعين دقيقة، وكان عليهم الانتظار حتى تدق التاسعة، وبينما كان هلادك ينتظر قاعدا على كومة من الخشب كان يغمره الاحساس بأنه لا قيمة له أكثر من إحساسه بأنه شقى، وانتبه إلى أن عيون الجنود تتحاشى النظر فى عينيه، ولكى يخفف عنه الرقيب أول وطأة الانتظار: قدم له سيجارة، لم يسبق لهلادك أن دخن السجائر، إلا أنه قبلها من باب المجاملة والتواضع، وبينما كان الرقيب أول من يشعلها له لاحظ أن يديه كانتا ترتجفان، كان اليوم غائما، والجنود كانوا يتكلمون بصوت خافت كما لو أنه مات، وعبثا حاول أن يتذكر المرأة التى كانت «جوليا فون فيدنياو» رمزا لها.

تشكلت الفصيلة وأخذت وضع الاستعداد لضرب النار، ووقف هلادك أمامها وظهره ملتصق بحائط الثكنة العسكرية منتظرا لحظة إطلاق النار عليه، شخص ما منهم أوضح أنه يخشى من أن يظل الحائط بعده ملطخا بدمه، ولذلك أمروا المتهم أن يتقدم بضع خطوات للأمام.

وبشكل لامعقول، ولا يتفق أبدا مع هذا الموقف، تذكر هلادك لمسات أيدى المصورين المرتبكة التى تحضر الشخص لالتقاط صورة كبيرة له، وعلى صدغ هلادك وقعت نقطة كبيرة من ماء المطر وأخذت تنحدرو ببطء نحو أسفل الخد، وصرخ الرقيب أول عليهم للمرة الأخيرة مصدرا لهم الأمر بإطلاق النار، لكن الكون توقف.

البنادق المعدة لإطلاق النار على هلادك كانت مصوبة بالفعل، لكن الرجال الذين كان عليهم أن يصرعوه لبثوا جامدين بلا حركة. ذراع الرقيب أول المرفوع اتخذ الوضع الثابت لإعطاء إشارة بأمر الضرب لا تنتهى وعلى حجر من الأحجار المبلطة بها أرض الفناء ألقت نحلة بظل لا يريم، والريح لم تكن تتحرك كما لو كانت ريحا مرسومة فى إحدى اللوحات، حاول هلادك أن يصيح أو يصفر أو يدير إحدى راحتيه، لكنه تأكد من أنه مشلول، ولم يصله ولا حتى أقل صوت لحفيف يصدر عن العالم العاجز عن الاتيان بأية حركة فكر «أنا فى الجحيم» أنا ميت وفكر «أنا مجنون» وفكر «الزمن قد توقف» بعد ذلك فكر بترو، إذا كان الأمر على هذا النحو، كما يبدو فلابد وأن ذهنه قد توقف أيضا عن التفكير ورغب فى أن يجرب ليتأكد من هذا الافتراض: أعاد القراءة (دون أن يحرك شفتيه) لربع القصيدة الرعوية لفيرجيليو، وتخيل أن الجنود الواقفين على مبعدة منه يشاركونه، فانتابه الحنين لأن يتواصل معهم بالتحدث إليهم ولقد أدهشه ألا يحس بأقل تعب ولا حتى إحساس بالدوار من طول وقفته الممتدة طويلا بلا حركة، وبعد مرور وقت لم يتمكن من تحديده، نام وعندما استيقظ كان العالم على حاله من الصمت والصمم، وبخده طلت عالقة قطرة ماء المطر، وظل النحلة بقى ثابتا على أرض الفناء، ودخان السيجارة التى رمى بها على الأرض مشتعلة ظل معلقا فى الهواء لم يتبدد أو يختف مطلقا، ومر يوم آخر قبل أن يدرك هلادك مغزى ما حدث.

إنه العام الكامل الذى التمسه من الرب ليكمل عمله، ولقد منحه ربه القادر على كل شىء العام كاملا، وحقق له الرب المعجزة التى تخفى على الجميع، فالرصاص الألمانى سيصرعه فى الموعد الذى تحدد لكن ما رسخ فى وعيه أن عاما كاملا سينقضى بين الأمر وتنفيذه، وتحولت مشاعره من الحيرة إلى الذهول، ومن الذهول إلى التسليم، ومن التسليم إلى فورة من جيشان المشاعر والامتنان للرب.

لم يكن هلادك يحضر لعمله من نص مكتوب، بل من ذاكرته، والمهارة التى اكتسبها مع كل إضافة لسطر من الشعر كانت تمنحه المقومات الأساسية لكى يتقن عمله المسرحى الذى لا يمكن أن يخامر الشك فيه أولئك الذين يجلسون أمام خشبة المسرح وينسون مؤقتا الفقرات غير المكتملة، لم يكن عمله من أجل الأجيال المقبلة ولا حتى الله، أو متذوقى أدبه من القراء والذين لم يكونوا معروفين له. وشرع مولعا بالاهتمام بالتفاصيل، ودون أن تصدر عنه نأمة، وفى السر، يكتب فى الزمن الممنوح له متاهته الشامخة خفية، أعاد كتابة الفصل الثالث أكثر من مرتين، وشطب على حادثة رمزية زائدة، وشطب دقات الجرس، وألغى الموسيقى، ولم يسمح لأى شىء يلح عليه ليرغمه على الإسراع فى إنجاز عمله، حذف، وكثف وتوسع، وفى إحدى المرات اختار عبارات من الرواية الأصلية، ووصل للحالة التى أحس فيها بحنين إلى الفناء وإلى الثكنات العسكرية، وإلى أحد وجوه الذين واجهوه ولطفت من نظرته إلى شخصية روميرستاد، واكتشفت أن تنافر الأصوات المثير للملل والذى حذر منه فلوبير كان مجرد

خرافات نظرية، لأن حالات الركاكة، وحالات الضجر تأتى من الكلمة المكتوبة لا الكلمة المنطوقة... لقد أتم عمله المسرحى، كانت لديه مشكلة واحدة خاصة بجملة ما، وقد وجد لها حلا، قطرة ماء المطر تحت خده بدأت تنحدر، انبعثت صرخة مجنونة، تلفت بوجهه نحوها، فتحت فرقة الإعدام النار عليه، وبأربع دفعات من طلقات الرصاص كانت قد محته.

جارومير هلادك مات فى التاسع والعشرين من مارس، فى الساعة التاسعة ودقيقتين من صباح اليوم نفسه.

الهوامش:

(*) الآية أوردها بورخيس مترجمة إلى الأسبانية.

إثور أو متى تكلمت القرود ؟!

ليوبولدو لوجونيس - الأرجنتين

كنت قد اشتريت القرد من صالة المزاد العلنى الذى أقامه السيرك، يحتل مكان السيرك الآن بنك كروبت، ولقد خطر لى أن أقوم بهذه التجربة التى عبر عنها فى هذه السطور.أثناء قراءاتى لإحدى المقالات عصر أحد الأيام والتى تتحدث عن أن سكان جزيرة «جاوا» فى أندونيسيا يرجعون عدم كلام القرود ليس إلى حقيقة أنهم لا يستطيعونه، بل ببساطة لأنهم لا يريدون أن يتكلموا ولأنهم ممسكون عن الكلام، ويقال أن الناس لهذا السبب لا يستخدمونهم فى الأعمال التى تمس حياتهم الخاصة.

هذه الفكرة التى لم أعرها اهتماما فى أول الأمر، استحوذت علىّ حتى تطورت إلى هذه النظرية فى مجال الانثروبولوجيا.

«إأن القرود كانوا آدميين، وهم لسبب أو لآخر ممسكون عن

الكلام، وهذا التوقف جعل الأعضاء التى تستخدم فى الكلام ومراكز المخ التى تتحكم فيه تنتهى إلى الضمور للحد الذى جعل الصلة بينهما تضعف حتى تلاشت بالفعل».

لقد تحولت اللغة إلى نوع من الصرخات غير الواضحة، والإنسان البدائى انحدر إلى مرتبة الحيوانات ومن الواضح أنه إذا ما تم إثبات ذلك، فكل الخصائص الاستثنائية التى تجعل القرود مجرد مخلوقات غير عادية، يمكن تفسيرها على الفور، ولكن لابد أن يوجد دليل واحد يمكننا أن ندلل به على أنه من الممكن إجبار القرود على الكلام مرة أخرى.

وأثناء رحلاتى التى كنت أجوب فيها أنحاء العالم وكان يصحبنى فيها قردى وبينما كنت أسحبه خلال نزهاتنا ومغامراتنا كان يزداد قربا منى، وفى أوروبا جذب انتباه كل شخص قابلناه، وكم كانت لدى الرغبة دائما فى جعله يحظى باستقبال احتفالى أكثر مما يحظى به أى قنصل، لكن الضرورات العملية والتى تحكمنى كواحد من رجال الأعمال لم تدع لى الفرصة للتمسك بشكليات كهذه، والتى لا تعدو كونها حماقات لا أكثر.

وواصلت بحوثى مدفوعا باعتقادى الراسخ فى قدرة القرود على الكلام، واطلعت على بليوجرافيا كاملة عن الموضوع دون أن أوصل إلى نتيجة تذكر، لكن الشىء الوحيد الذى تأكدت منه بشكل قاطع، هو عدم وجود سبب علمى يفسر لنا لماذا لا تستطيع القرود الكلام، ولقد استغرق ذلك منى خمس سنوات فى البحث وإمعان التفكير.

كان «إثور » وهو الاسم الذى أطلقه عليه أحد مالكيه السابقين، ولم أستطيع أن أعرف من كان الرجل، أقول أن إثور كان حيوانا رائعا بالتأكيد، والتدريبات التى تلقاها فى السيرك، بالرغم من أن معظمها كان يدور فى حدود شكل من أشكال التمثيل الهزلى، قد نمى إلى حد كبير قدراته العقلية، وهذا ما دفعنى أيضا لأن أجرب نظريتى غير المعقولة عنه، وعلاوة على ذلك، فمن المعروف أن الشمبانزى، الذى كان إثور، هو واحد من أكثر القرود وداعة، والأكثر استعدادا للتعامل من الناحية العقلية، وهو ما يزيد فرصى فى النجاح.

وفى كل الأوقات التى كنت أراه فيها وهو يتمشى على قدميه ويداه دائما خلف ظهره لكى يحتفظ بتوازنه متخذا هيئة بحار سكران، جعل من احتمال كونه انسانيا بدائيا احتمالا أقوى فى داخلى.

وبالفعل لم يكن هناك سبب معقول يفسر لنا لماذا لا يستطيع قرد أن يبادر بالنطق فى شكل كلمات، فحديثه الطبيعى، الذى يمكن القول إنه خليط من صرخات يتصل بها أمثاله من المخلوقات، يتخذ أشكالا شديدة التنوع: وحنجرته بالرغم من اختلافها عن حنجرة الإنسان إلا أنها لا تختلف كثيرا كما هو الحال مثلا عند الببغاء، بل حتى الببغاء يمكنه أن ينطق بعض الكلمات، وأكثر من ذلك فإن المقارنة بالببغاء تزيل كل شك، وعلينا أن نتذكر أن مخ الأبله هو أيضا مخ لم ينل حظه من النمو الكافى. وبالرغم من ذلك فإنه يوجد

بلهاء يمكنهم أن ينطقوا ببعض الكلمات، وبشكل ما فإن المنطقة التى تسمى بتلافيف بروكاس فى المخ، لها صلة بهذا الأمر، غير أن ذلك يعتمد بالطبع على التطور الكلى لتركيب المخ: فضلا عن أنه لم تتم البرهنة بشكل حاسم على أن هذه المنطقة التى تتحكم فى الكلام، وبالرغم من أنها أكثر منطقة محتملة من الناحية التشريحية، إلا أنه توجد براهين أخرى لا تقبل الجدل عكس ذلك.

ومن حسن الحظ أن القرد أضاف لصفاته العديدة الرديئة ميزات أخرى هى: حب التعلم، ونزعته المشهور بها لتقليد سلوك البشر، وكشفه عن قدراته العالية فيما يخص ردود أفعاله تجاه أى شىء والتظاهر البارع لشد الانتباه حتى أنه ليتفوق كثيرا على طفل لو قارناه به فى هذا المجال، وبذلك فهو يعد من أخطر النماذج الحية الواعدة فى مسألة التربية، زد على ذلك بأن قردى كان فتيا، ومن المعروف أن مرحلة الشباب بالنسبة للقرود هى أعظم مراحل تجليات ذكائه وقدرته على الفهم والإدراك، وتكمن الصعوبة الوحيدة فى الطريقة التى ينبغى على أن أتبعها فى تعليمه كى ينطق الكلمات، ولقد اطلعت على كل المحاولات غير المثمرة لمن سبقونى فى هذا المجال، ولقد جرى ذلك دون أن أبدى وجهة نظر فى كفاءة البعض منهم، والنتائج السلبية تماما لكل جهودهم، لقد تعرض إصرارى لبعض التردد فى أكثر من مناسبة، إلا أن آرائى كلها حول الموضوع ظلت تقودنى إلى هذا الاستنتاج، إن الخطوة الأولى هى السعى من أجل تنمية الجهاز العضوى الذى يصدر الأصوات، وهذه هى

الطريقة التى نلجأ إليها مع الصم والبكم لحملهم على نطق الكلمات بشكل واضح، وبالكاد بدأت أعتقد فى ذلك حين انتبهت إلى أوجه الشبه العديدة بين القرود وبين الصم والبكم فيما يتصل بالتفكير العقلى، وقبل كل شىء فالقرود تتوافر لها السهولة غير العادية فى التقليد، والتى تعوض نقص التكوين العضوى لأجهزة النطق، وتكشف عن أن العجز عن الكلام لا يعنى العجز عن التفكير حتى لو كان ذلك يقلل من القدرة العقلية فى الأزمنة الأخيرة التى تتناسب مع تعطيلها فى الأزمنة الغابرة، فضلا عن ذلك فإن هناك مميزات أكثر غرابة لأنها أكثر تنوعا وتعددا: الاجتهاد والكد فى العمل، الاخلاص، الأمانة، الشجاعة، ومن المؤكد أنها كلمات نمت بسبب العلاقة المطردة فيما بينها، والتى تكشف بالتأكيد عن براعة واقتدار فى تحقيق التوازن ومقاومة الدوار.

قررت بعد ذلك أن أبدأ جهودى مع قردى بتدريبات عملية على حركة الشفاه واللسان، بهذا أعلمه مثلما نعلم الصم والبكم ولسوف تساعده حاسة السمع بعد ذلك فى الاهتداء إلى لغة اتصال مباشرة دون أن يضطر للاستعانة بحاسة اللمس، ولسوف يلاحظ القارىء أننى كنت أواصل تنفيذ خطتى بتفاؤل لا حد له.

ولحسن الحظ، فالشمبانزى تمتلك، من بين كل القرود العليا، الشفاه الأكثر مقدرة على الحركة، وفى هذا الأمر على وجه الخصوص، فإن إثور الذى كان يعانى وقتها من التهابات فى الحلق، عرف كيف يفتح فمه بأقصى اتساعه حتى يتمكنوا من الكشف عليه،

ولقد أثبت أول كشف جانبا من توقعاتى: فلسانه كان يرقد فى قاع فمه ككتلة هامدة، ولا يتحرك إلا عندما يبتلع ريقه أو طعامه، لكن سرعان ما أثمر تدريبه، إذ بعد شهرين عرف كيف يخرج لى لسانه ليرد بوقاحة، وكانت هذه أول علاقة فعلية يربط بها بين تحريك لسانه وفكرة ما، كما أنها لا تتمشى وقناع وجهه الذى يطالعنى به.

إلا أن شفتيه سببتا لى إزعاجا شديدا، إذ اضطررت أحيانا إلى شدهما بملقاط شعر، لكنه أدرك، ربما من طريقتى فى التعبير . أهمية تلك العملية فانخرط فيها مبديا الاستعداد والإصرار، وحينما كنت أقوم بتدريبه بأن أؤدى حركات الشفاه مع الكلام أمامه كى يقلدها، كان يقعد هناك ملقيا بذراعيه المنثنيين وراءه ليهرش مؤخرته، ويغمز لى بعينيه بجدية هازلة، أوعلى الأقل كان لزاما عليه أن يملأ شدقيه اللذين يغطيهما الشعر بالهواء كى يساعد الرجل الذى يقود تفكيره طوال الوقت بإشارات تصاحبها إيقاعات معينة، وأخيرا تعلم كيف يحرك شفتيه.

غير أن المهارات اللغوية بدت أصعب من أن يكتسبها بسهولة. كما يحدث فى مرحلة الطفولة الطويلة، التأثأة التى يتوصل من خلالها الطفل إلى اكتساب تعوده للكلام وفق ما يساعده ذكاؤه ويمكننا بالتأكيد، ملاحظة أن مركز إحداث الصوت يرتبط بمركز الكلام فى المخ بتلك الطريقة التى يعتمد تطورها الطبيعى على عملها مثلما تعمل المركبة ذات الجوادين أحدهما وراء الآخر، أو العجلة ذات المقعدين أحدهما وراء الآخر، وهذا ما تم التنبؤ به بالفعل،

باعتباره محسوما من الناحية المنطقية فى عام ١٧٨٥ بواسطة هينكه مكتشف الطريقة الشفاهية لتعلم الصم والبكم بواسطة استخدام حركة الشفاه وقد اعتاد أن يتطرق إلى ديناميكية تسلسل الأفكار وهو تعبير يبلور بشكل بالغ الوضوح واجب الاحتفاء بأكبر عالم نفسى معاصر.

وفيما يتعلق بالمهارات اللغوية، فلقد كان وضع إثور مساويا لوضع الطفل الذى يدرك مفردات كثيرة قبل أن ينطق بها، إلا أنه كان أكثر من بارع فى التوصل للقرار والتصرف الصحيح لتحقيق احتياجاته معتمدا فى ذلك على تجارب حياته الغنية ولابد أن تكون هذه القرارات نتيجة، ليس فقط لانطباعاته، ولكن أيضا لزيادة الفضول لديه وشغفه بالبحث والتفتيش الذى يتميز بهما مما يشهد بتنوع قدراته الشخصية، ومن هذه الافتراضات المسبقة والمجردة يكشف إثور عن درجة عالية من الذكاء، مما كان عونا لى بالتأكيد على تحقيق هدفى.

وإذا كانت افتراضاتى تبدو نوعا من المخاطرة إلى حد بعيد فلابد أنها تولدت عن القياس المنطقى الذى اتبعه وهو أساس المنطق، وهو ليس غريبا فى الحقيقة عن تفكير العديد من أنواع الحيوانات، ذلك لأن القياس المنطقى أساسا هو مقارنة بين حالتين للشعور، وإن لم يكن كذلك، فلماذا تفر الحيوانات التى تعرف الإنسان منه، بينما لا تفعل ذلك الحيوانات التى لم تعرفه مطلقا ؟

بعد ذلك بدأت مع إثور التدريب على نطق الأصوات، وكان

الأساس الذى بنيت عليه نظريتى من البداية هو تعليمه آلية النطق ثم بعد ذلك توجيهه بالتدريج إلى نطق كلمات لها معنى، ولقد استغرق ذلك زمنا أكثر مما يستغرقه واحد من الصم والبكم . لكنه تطور إلى حد كبير إذ امتلك صوتا واستطاع التحكم بشكل أفضل فى أجهزة نطقه لبعض الحروف بوضوح.

وصارت مشكلة تعليمه هى كيف ينغم نطق الحروف، وكيف ينطق الحروف الساكنة والحروف المتحركة، وأخذا بوجهة النظر التى ترى غرام القرود بالطعام، فقد اتبعت فى ذلك طريقة هينكه المستخدمة مع الصم والبكم، إذ تعمدت فى تعليم إثور أن أربط كل حرف ساكن أو متحرك باسم نوع من الطعام يبدأ بحرف ساكن ، أو متحرك، وكان يستجيب لذلك لدرجة أن الحرف الذى كان يتضمنه اسم طعام يشتهيه كان ينطقه وحده، أو مع الاسم فى شكل مقاطع مضغوطة أو ممطوطة، وذلك كله كان يتم على أحسن وجه بقدر ما كانت تلك الحروف متوافقة مع الطريقة التى يفتح بها فمه، تعلم إثور ذلك خلال أسبوعين فقط إلا أن حرف «يو ـ لما» كان أصعب الحروف فى النطق بالنسبة له.

إلا أن الحروف الساكنة أخذت منى جهدا خارقا فى التدريب وانتهت بنا الأمور إلى أنه لم يفلح فى نطق تلك الحروف، وثمة مشكلة فى نطقها باستخدام كل من الأسنان واللثة إذ كانت أنيابه الطويلة تمنع ذلك تماما، ثم أن مجموع المفردات التى يستخدم إثور كان محدودا، وذلك لأنه فضلا عن الحروف الخمسة: ب. ك . م. ج، ف

والـ س كانت كل الحروف الساكنة تنطق فقط باستخدام سقف الحلق واللسان، وحتى لكى يقوم بذلك، فإن أسلوب التعلم عن طريق السماع لم يكن كافيا، ولذلك لجأت إلى حاسة اللمس كما يحدث مع الصم والبكم، فكنت أضع راحة يده على صدرى ثم على صدره حتى يستطيع أن يحس الاهتزازات التى تحدثها ذبذبات الصوت.

وعلى هذا المنوال مرت ثلاث سنوات دون أن أنجح فى جعله يستطيع تكوين كلمة واحدة، ومال إلى أن يسمى الأشياء بالحروف الأكثر بروزا فيها، وكان ذلك كل ماتحقق.

كان قد سبق له أن تعلم فى السيرك أن ينبح كالكلاب، لأنهم كانوا يصاحبونه فى ألعاب السيرك، وعندما رآنى يائسا من محاولاتى بلا طائل فى انتزاع الكلام منه، كان ينبح بصوت عال كما لو كان يريد أن يرينى كل ما يقدر عليه، كان باستطاعته نطق الحروف الساكنة منفصلة، لكنه لم يكن باستطاعته النطق بها مجتمعة، وفى أحسن الأحوال كان يظهر وقد أصابه نجاحه بالدوار عندما ينطق بس . مس.

وبالرغم من تقدمه البطىء فإن تغيرا عظيما قد طرأ على شخصيته، فقد بدأ يحرك قسمات وجهه أقل مما كان، وصارت تعبيراته بملامح الوجه أكثر رقة، وأصابته لعنة اتخاذ وضع المتأمل، بل لقد اكتسب على سبيل المثال عادة التطلع إلى النجوم والتحديق فيها، ازدادت حساسيته لذلك، وازداد ميله للبكاء.

تواصلت تدريباتى له بدأب لكنها لم تثمر شيئا، وبالرغم من أنه

لم تصاحبه نجاحات ملحوظة، فلقد استحال العمل كله إلى فكرة متسلطة مسببة للألم، وشيئا فشيئا استبد بى النزوع لاستخدام الشدة معه.

لقد صار عملى أكثر مدعاة للإحساس بالمرارة بسبب الفشل. وعند ذلك انتهيت بدون أن أشعر إلى العداء تجاه إثور، وكان قد بدأ يقنعنى تماما بأننى لن أستطيع أن أخرجه منه إطلاقا، وعندها أيقنت فجأة أنه لم يكن يتكلم لأنه لا يريد ذلك!

وذات ليلة، أتى الطباخ إلى وهو يجرى مذعورا ليخبرنى بأنه فوجىء بأن القرد ينطق بكلمات سليمة، وحسب روايته، فإن إثور كان يجلس القرفصاء مستندا بظهره إلى جذع شجرة التين فى الجنينة، لكن الذعر من سماعه للقرد يتكلم حال بين الطباخ وبين أن يتذكر أهم شىء فى الموضوع، وهو الكلمات نفسها، قال أنه يظن أن باستطاعته تذكر كلمتين فقط: «السرير، والبايب»، وبسبب غبائه فقد كدت أن أركله.

لا حاجة للقول بأننى قضيت الليلة تحت وطأة انفعالات حادة والشىء الذى لم أقدم عليه طوال سنوات ثلاث وهوالخطأ الذى دمر كل شىء، وقع نتيجة للانفعالات التى احتاجتنى بسبب تلك الليلة التى أصابنى فيها الأرق، وأيضا بسبب فضولى الزائد لدرجة الهوس، وبالرغم من أننى كنت قد قررت من قبل أن أترك القرد يصل إلى النقطة التى يتكلم عندها بشكل طبيعى، فإننى ناديته فى اليوم التالى، وجربت أن أنتزع منه الكلام بإجباره على الامتثال لأوامرى له

بذلك، غير أن كل ما أمكننى انتزاعه منه لم يزد عن: بس . مس. بطريقة أصابتنى بالضجر مما شبعت منه وعادته فى أن ينافقنى بأن يغمز لى بعينيه، وسخريته المؤكدة منى والتى لمحتها فى عينيه، وحركة تقطيب وجهه غير المريحة، وليغفر الله لى، إذا استبد بى الغضب، وبلا تفكير رفعت الكرباج وضربته به، والنتيجة الوحيدة التى ترتبت على ضربى له أن الدموع طفرت من عينيه وظلت تنهمر فى صمت مطبق لم يحطمه حتى بالأنين.

بعد ذلك، وطوال الأيام الثلاثة التالية، سقط مريضا وفى حالة اكتئاب، انتابه ضعف ذهنى شديد، وبدت عليه أعراض الالتهاب السحائى، جئت له بالأطباء الذين غمروه بحمامات باردة ومطهرات، وعملوا له مثيرات مضادة لأحداث التهيج فى موضع من جسمه لتخفيف الألم عن موضع آخر، وعالجوه بالمستحضرات الكحولية، ومستحضرات البروميد، وكل علاج ممكن من المرض المزعج، قدموه له، وأصررت على علاجه بأى ثمن وبلا تردد وواصلت جهودى فى علاجه يدفعنى الندم لأننى أعتقدت أن الحيوان فى سبيله لأن ينتهى كضحية لقسوتى عليه، والسبب الثانى أننى كدت أموت رعبا من السر الذى قد يحمله معه إلى القبر.

لقد تحسنت حالته بعد فترة طويلة، لكنه كان بالغ الضعف حتى أنه لم يكن قادرا بأى شكل على الحركة ومغادرة سريره، ولقد جعله الاقتراب من الموت إنسانيا، بل ونبيلا، كانت عيناه ممتلئتين دوما بالعرفان بالجميل، لم تتحولا عنى أبدا، وظلتا تتبعانى فى كل أنحاء

الغرفة ككرتين زجاجتين تتناوبان النظر إلى، وحتى لو فكرت فى الاختباء منها خلفه كانت يداه تبحثان عنى لتلمسانى وتربتا علىّ لمصاحبتى له طوال فترة النقاهة، وخلال هذه الوحشة المخيفة، كان هو يكتسب مرتبة الشخصية الإنسانية.

وبالرغم من ذلك كله، فإن شيطان البحث والتقصى، والذى لم يكن سوى روح تتسم بالحماقة والعناد، قادنى إلى أن أستمر فى تكرار تجاربى على إثور، فالقرد، قد تكلم بالفعل، ولذلك فلم يكن باستطاعتى التخلى عن هذا الاكتشاف.

بدأت بتأنٍ شديد، أطلب منه أن يرينى كيف ينطق الحروف التى يعرف كيف ينطقها، فلم ينبس ببنت شفة، غادرته لعدة ساعات وراقبته من خلال فرجة ضيقة تكشف الجانب الذى يرقد فيه، لم ينبس بصوت، عدت وأخذت أتحدث إليه فى جمل قصيرة بينما أحاول أن ألعب على وتر مميزاته فى حرصه على أداء واجبه.وإخلاصه، والطعام الذى يحبه، لم ينبس بصوت، وعندما صارت العبارات التى أتحدث بها إليه مفعمة بالتأثر والحزن، كانت عيناه تمتلئان بالدموع، وعندما بدأت استخدم ألفاظا تخلق جوا من الألفة والحميمية كأن أقول له: أنا صاحبك، أنت قردى، والتى كنت أبدأ بها كل جلساتى معه، اعتدت أن أواصل شرحى له لكى أنقل إلى ذهنه الحقيقة المطلقة بشكل نهائى، وكان يوافقنى بإشارة منه بأن يطرف برموش عينيه، إلا أنه لم ينبس مطلقا بأى صوت، ولم يذهب لأبعد من ذلك حتى بأن يحرك شفتيه مثلا.

لقد نكص وارتد للإشارات كما لو كانت وسيلته الوحيدة للاتصال بينه وبينى، وهذه الحقيقة ارتبطت بنفس المغزى فيما يختص بالصم والبكم، وكانت سببا فى جعلى أعيد وأزيد فى التحوط منذ عرف إنسان أن الانكفاء الشديد للصم والبكم هو مرض عقلى.

ولقد حدث أن تمنيت فى بعض الأحيان أن يفقد وعيه لأرى أن كان الهذيان يمكن أن يؤدى إلى تحطيم صمته.

لم يكن تماثله للشفاء يتقدم، فلقد واصل هزاله وظل الحزن كما هو، كان واضحا أنه يعانى من مرض عقلى، وكان سريع التأثر والانفعال، وبناء جسمه كله كان قد تداعى بسبب بعض القصور فى وظائف المخ، وعاجلا أم آجلا فسوف تصبح حالته ميئوسا منها. لكن بالرغم من امتثاله إلى حد بعيد بسبب المرض فإن صمته ـ ذلك الصمت الذى يبعث على الجنون ـ الصمت الذى تجلى بوضوح أمام جهودى اليائسة، استمر لا يمكن تحطيمه، وبسبب من موروثات سحيقة غامضة إلى حد ما للأعراف والتقاليد أو مما يروى، وهى التى صارت غريزة أوميلا فطريا، كانت الأجناس الأخرى تتهيب الصمت الجليل الذى ران لآلاف السنين على ملامح الحيوان، وأسلافه الأصليين داموا معه حتى نفذ تأثيرهم إلى عمل كينونته الداخلية، أناس الغابة البدائيين الذين أرغموا على الصمت، وكان ذلك بشكل ما إرغاما لهم على الانتحار الفكرى لعديد من الأسباب غير الواضحة والظلم البربرى، كانت تلك المخلوقات تحتفظ بأسرارها، أسرار الغابة منذ فجر التاريخ وحتى ظهور السلطة

والقبض عليها، عبر الفاصل الزمنى الهائل عن الحاضر فى قراءة لا شعوره الآن.

أما الفصائل العليا ذوات الأربع من القرود الشبيهة بالإنسان فمن سوء حظها أنها قد تأخرت فى سلسلة التطور، وقد تم تخطيها أو تجاوزها بالإنسان الذى مارس قمعه واضطهاده لها ببربرية انحدرت لدرجة التوحش، ولاشك فى أنه اقتلعهم من مواطنهم ففقدوا سيادتهم فى مملكتهم النباتية، جنة عدن البدائية ولقد هلك القسم الأعظم من سلالتهم، وإناثهم تم الاستيلاء عليهن بأسرهن حتى أن ذلك النظام من العبودية كان يبدأ من لحظة خروجهم من رحم الأم، وفى حياتهم اليائسة والتى تم انتهاكها تم الاستحواذ عليها ثم استفزازهم لكى يعبروا عن كرامتهم الإنسانية وأن يخففوا من تعاستهم بالحديث بشرط ألا يتحدثوا بأصوات عالية لأن الكلام هو الذى كان يجعل منهم حلقة الوصل فى السلسلة التى ينتمى إليها أعداؤهم، وكملاذ أخير اتخذوا لهم ملجأ فى الهامش المظلم للمملكة الحيوانية.

أي أعمال شنيعة، وإمعانا فى القسوة كان على الغزاة المحتلين أن يرتكبوها ويوقوعها بهؤلاء الأنصاف حيوانات خلال تطورهم بعد أن انفرد المحتلون بامتلاك المعرفة، والفاكهة المحرمة فى نصوص الكتب المقدسة لتخذلهم وتجعلهم مثارا للسخرية من جنسهم بوضعهم فى مرتبة مساوية لمخلوقات أقل مرتبة منهم.

وإزاء هذا التقهقر الذى أعاق قدرتهم على الفهم والإدراك للأبد

عند مستوى الإيماءات التى تمارس بشكل آلى أو أكروباتى

وإزاء ذلك الرعب الهائل من الحياة، والذى أحنى ظهورهم بشكل نهائى فى عبودية أصبحت علامة على وضعهم الحيوانى ودمغتهم به، مخلفة على وجوههم حالة الانذهال الحزين لتوقهم لشىء بعيد المنال، ذلك الذى يشكل سمة أساسية لطبيعتهم التراجيكوميدية.هذا ما أيقظ حس المريض بالسخرية، الحس المدفون بعمق فى الغريزة المنسية إلى حد ما، عند أقصى حدود النجاح، عبر ملايين السنين، الطاقة السحرية للكلام والتى ظلت مفعمة بالحيوية والنشاط فى روح القرود، لكن ستظل كامنة ضد هذا الإغراء الذى كان على وشك أن يجتاز الحواجز المظلمة لغريزة الحيوان، ذكريات الأسلاف التى تغلغلت فى سلالاته بقدر هائل من الرعب الغريزى، وكانت قد استنهضت أيضا تخوم عصر قديم.

بدأ إثور فى التقاط أنفاسه الأخيرة دون أن يفقد وعيه، لقد كان موتا نبيلا وجليلا، بعيون مغمضة، وتنفس هادىء ونبض ضعيف، وهدوء كامل، كان يقطعه فقط من وقت لآخر إذ يدير نحوى وجهه الحزين الأشبه بوجه خلاسى، وبقلب مكسور للأبد. وفى اللحظة الأخيرة فيما بعد الظهيرة، ظهيرة موته، حيث وقعت الحادثة الخارقة التى دفعتنى لكتابة هذه القصة.

كنت منهكا، تغلب على عواطفى حماسة الانفعال، وسكون الشفق، وظلمة أول الليل التى تتزايد بينما يغالبنى النعاس إلى جانبه عندما أحسست فجأة بيد تقبض على رسغى، صحوت فزعا، كان إثور

بعينيه الواسعتين المفتوحتين على اتساعهما وبشكل لا رجعة فيه يموت الآن، وكان تعبير الموت على وجهه إنسانيا جدا إلى الحد الذى ملأنى بالرعب، إلا أن يده وعينيه جذبونى إليه بطريقة بليغة حتى أننى انحنيت قريبا جدا من وجهه، وعندئذ، وبأنفاسه الأخيرة، أنفاسه التى توجت وسحقت أمالى فى نفس الوقت، نطق، أنا متأكد من ذلك، نطق وهو يتمتم (كيف أستطيع أن أعيد ترتيب درجات الصوت الذى لم ينطق منذ عشرة آلاف قرن؟) تلك الكلمات التى نجح عمقها الإنسانى فى أن يعبر الفجوة بين جنسينا:

ـ «ماء يا سيد..يا سيد... يا سيدى!».

الضيف

أمبارو دابيلا - المكسيك

لن أنسى أبدا ذلك اليوم الذى جاء فيه ليقيم معنا، وزوجى هو الذى أتى لنا به وهو عائد من إحدى سفرياته، وفى ذلك الوقت، كان قد مرعلى زواجنا ثلاث سنوات، وكان لنا طفلان، لكننى لم أكن سعيدة، ولقد حمل إلى زوجى شيئا كما لو أنه قطعة أثاث، لكى تتعود الواحدة منا أن تراه كل يوم أمامها فى المكان نفسه الذى قرر هو المعيشة فيه، لكنه لا يثير أى إحساس بوجوده.

لقد كنا نقيم فى بلدة معزولة بعيدة عن المدينة، بلدة: تقريبا شبه ميتة، وعلى وشك التلاشى والاختفاء من الوجود.

لم أستطع أن أكتم صرختى أول مرة رأيته فيها رعبا منه، كان كئيبا ولئيما، بعينين كبيرتين صفراوين وتقريبا مدورتين دون أن تطرفا، لأنهما تبدوان كما لو كانتا تخترقان الأشياء والأشخاص .

وتحولت حياتى التعسة إلى جحيم، وفى ليلة وصوله نفسها توسلت إلى زوجى ألا يعذبنى بصاحبه، ولم أستطع مقاومة ما أثاره فى داخلى من عدم الثقة والرعب « إنه غير مؤذ تماما» هذا ما قاله لى زوجى وهو ينظر إلى بنظرة جانبية وبعدم اكتراث.

«سوف تتعودين على مصاحبته لنا»، ولو لم يحدث ذلك؟... لم تكن هناك وسيلة لإقناعه بما أتخيله، وبقى مقيما فى بيتنا.

ولم تكن المعاناة من وجوده تقتصر علىَّ أنا وحدى بل كل من فى البيت، أولادنا، والمرأة التى تساعدنى فى شغل البيت وطفلها الصغير، يشعر بالرهبة منه، وزوجى فقط هو الفرحان بوجوده معه هنا، ومنذ اليوم الأول خصص له زوجى الحجرة التى فى ركن حديقة البيت . كانت حجرة واسعة، لكنها رطبة ومظلمة. ولعيوبها هذه لم نشغلها أبدا، وبالرغم من عيوبها، فقد أبدى هو رضاءه بالحجرة، كما لو أنها بما لا مزيد عليه من العتمة المخيمة عليها توافق حاجته، إذ كان ينام طوال النهار وحتى يحل الليل، ولا يتجاوز أبدا ذلك الحيز الذى يرقد فيه.

والقدر الضئيل من الطمأنينة، والذى كنت قد حصلت عليه فى ذلك البيت العتيق من بيوت الأعيان، حيث كانت الأمور تسير خلال النهار بشكل طبيعى، فأنا استيقظ دائما فى وقت مبكر جدا، ألبس الأطفال ملابسهم عندما يصحون .. وأقدم لهم إفطارهم وما يفتح شهيتهم، وأثناء ذلك يكون جواد ألوبى.. التى تساعدنى فى شغل البيت، قد رتبت الغرف، وخرجت لشراء ما كلفناها به من احتياجات

بيتنا، وكان البيت كبيرا جدا بالحديقة التى تتوسطه، والحجرات الموزعة حولها، وبين الحجرات والحديقة ممرات معرشة لكى تقى الحجرات من شدة انهمار المطر، ومن العواصف التى كثيرا ما كانت تعاود هبوبها، وكان على أن أهتم بترتيب هذا البيت الكبير والذى يمثل هذا الاتساع، وأعتنى بالحديقة، ولذلك كان يومى مشغولا من أوله لآخره، وكان ذلك عبئا ثقيلا علىَّ... لكننى كنت مغرمة بحديقتى، فالممرات مغطاة بعرائش اللبلاب الذى كان مزهرا تقريبا طوال السنة، أذكر كم كنت أحب فى أوقات العصر أن أجلس فى ممر من الممرات لأخيط ملابس الأطفال وأنا أشم عطر نباتات سلطان الجبل. ووسط زهور الجهنمية فى الحديقة التى وزعت فيها أيضا زهور الكريزنتيم، وبنفسج زهرة الثالوث، وبنفسجات جبال الألب، وأزهار البيجونيا، وزهرات عباد الشمس، وفى الوقت الذى كنت أروى فيه النباتات، كان الأطفال يتلهون بالبحث عن الديدان تحت الأوراق الساقطة، وأحيانا كانت تمر الساعات وهم فى منتهى اللطف والهدوء، وهم يحاولون دون جدوى الإمساك بقطرات الماء المتدفقة من خرطوم الرش القديم.

لم يكن باستطاعتى تفادى إلقاء نظرة بين الحين والآخر نحو الحجرة التى فى ركن الحديقة، وبالرغم من أنه يقضى النهار كله نائما، لم أستطع أن أحس بالأمان من ناحيته، إذ حدث أكثر من مرة، أنه وعندما كنت أعد الطعام، انتبهت فجأة على ظله الذى كان ساقطا فوق الموقد الذى أطبخ على ناره وأغذيها بالحطب، أحسست

به خلفى فرميت ما أحمله بين يدى على الأرض وخرجت من المطبخ، وأنا أجرى وأصرخ كالمجنونة، بينما عاد هو إلى حجرته وكأن شيئا لم يحدث.

أعتقد أنه لم يتعرف على جواد الوبى أبدا، فهو لم يقترب منها مطلقا ولم يطاردها، والأطفال هو يكرههم، أما أنا، فإنه يتجسس على دائما عندما يخرج من حجرته، وأكبر كابوس مزعج لى ويمكن للواحدة أن تعيشه عندما يتخذ له، بشكل دائم، مكانا أمام باب حجرتى لذلك فأنا لا أخرج كثيرا، ولكن فى إحدى المرات، وعندما فكرت بأنه مازال نائما، فذهبت إلى المطبخ لأعد وجبة خفيفة للأطفال، وفجأة ووجهت به فى ركن مظلم من الممر تحت تعريشة اللبلاب، ولحظتها صرخت يائسة: «إنه مازال هنا يا جواد الوبى»!

جواد الوبى، وأنا: لم ننطق اسمه أبدا، وبدا لنا أنا لو فعلنا ذلك، نكسبه وجودا حقيقيا، هذا الكائن الشجى الغامض، ودائما نقول:

«إنه موجود هناك، الآن خرج، إنه نائم.. هو... هو... هو..»

كان يتناول وجبتين فقط، واحدة أول ما يستيقظ عندما يحل ظلام الليل، والأخرى، وربما، فى الفجر قبل أن ينام، وكانت جواد الوبى هى المكلفة بحمل الصينية بالطعام إليه، ويمكننى أن أؤكد إنها كانت ترميها له من باب الحجرة إذ أن المرأة المسكينة كانت تعانى مثلى من الرعب نفسه، وأكله كله كان يقتصر على اللحم، ولم يذق شيئا سواه.

وعندما كان ينام الأطفال، كانت جواد الوبى تأتى لى بعشائى

حتى حجرتى، فأنا لا أستطيع أن أتركهم وحدهم، إذ أفكر بأنه ربما يكون مستيقظا، أو بسبيله إلى الاستيقاظ.

ففى مرة انتهت جواد الوبى من شغلها فى البيت، وذهبت مع صغيرها للنوم، وأنا بقيت وحدى أتأمل أولادى وهم يحلمون، ولما كان باب حجرتى يترك مفتوحا، بشكل دائم لم تواتنى الشجاعة لأنام إذ أننى أخاف من أنه فى أية لحظة يمكن أن يدخل ويهجم علينا، ولم يكن ممكنا غلق الباب لأن زوجى يصل دائما فى وقت متأخر، وعندما لا يجده مفتوحا، فقد يسىء الظن... وهو يأتى متأخرا دائما، فليأت متأخرا، أحسن، فهو عنده شغل كثير، وهذا ما قاله لى مرة، وأنا فكرت بعدها أنه ربما هى أمور أخرى التى تشغله أيضا.

وذات ليلة، وكنت قد تنبهت من نومى حوالى الساعة الثانية صباحا، وبقيت أتنصت عليه فى الخارج، ولما أفقت تماما رأيته واقفا بجوار سريرى ينظر إلى، ويحدق فى بنظرته الثابتة التى تخترقنى، قفزت من الفراش وقذفته بلمبة الجاز التى أتركها مضاءة طوال الليل، فلم تكن هناك كهرباء فى تلك البلدة، كما أننى لا أتحمل الظلام، مدركة أنه فى أية لحظة سوف يتفادى الضربة ويخرج من الغرفة، تكسرت اللمبة على بلاط الأرضية والجاز طالته النار بسرعة، ولولا أن جواد الوبى أتت على صرخاتى لاحترق البيت كله.

زوجى لم يكن عنده وقت لكى يسمعنى، ولم يكن يهمه ما حدث فى البيت وما تكلمنا فيه مما كان فقط ما لابد منه فيما بيننا، لأنه ومنذ زمن طويل، العواطف والكلمات كانت قد استهلكت.

والآن، عندما أتذكر ما حدث، يعاودنى الإحساس بأننى مريضة.. كانت جواد الوبى قد خرجت للتسوق، وتركت صغيرها مارتين نائما فى صندوق حيث تضعه وتنميه أثناء النهار وكنت أمشط لأولادى شعرهم عندما سمعت أنات الصغير مختلطة بصرخات غريبة، وعندما وصلت إلى الحجرة وجدته يضرب الطفل بقسوة، ولازلت لا أعرف كيف انتزعت الطفل منه وكيف خبطته بقضيب حديدى وهو الذى وجدته تحت يدى، وهاجمته بكل الغيظ منه والذى أكبته منذ زمن طويل، ولا أعرف أكنت أصبته بأذى شديد أم لا، لأننى سقطت بعدها فاقدة الوعى، وعندما عادت جواد الوبى من المأمورية التى خرجت لقضائها وجدتنى مغشيا على، ووجدت صغيرها مصابا بعديد من الكدمات والخدوش التى تنزف دما... الألم والشجاعة فى مواجهته كانا فظيعين ولحسن الحظ فالطفل لم يمت وسرعان ما شفى.

وخشيت أن ترحل جواد الوبى وتتركنى وحدى، وإذا كانت لم ترحل، فذلك لأنها كانت امرأة نبيلة، وشجاعة تكن لى ولأطفالى مشاعر غامرة بتعاطف حميم، إلا أنها فى ذلك اليوم تولدت بداخلها كراهية هائلة جعلتها تتلهف على الانتقام منه.

ولما حكيت لزوجى ما حدث، طلبت منه أن يأخذه من هنا، وأنا أتحجج بأنه يمكن أن يقتل أطفالنا، مثلما حاول ذلك مع الصغير مارتين، وكان رده: «أنت كل يوم تزدادين هستيريا، وفى الحقيقة أنت مرهقة، وتبعثين على الاكتئاب، تأملى نفسك وأنت هكذا بهذا الشكل!

لقد شرحت لك ألف مرة أنه كائن غير مؤذ».

فكرت حينئذ فى الهرب من هذا البيت، ومن زوجى، ومنه، لكننى لا أملك مالا، ووسائل المواصلات أيامها كانت صعبة، وأنا لا أصدقاء لى، ولا أهل، فلمن ألجأ؟... وأحسست بأننى وحيدة تماما، مثل يتيمة.

طفلاى كانا مرعوبين حتى أنهما لم يحبا أن يلعبا فى الحديقة ولا أن يتحركا بعيدا عنى، وعندما تخرج جواد الوبى إلى السوق: أقفل عليهما وعلىّ غرفتى، وفى يوم قالت لى جواد الوبى:

ـ هذا الوضع لا يمكن أن يستمر.

وأجبتها:

ـ يجب علينا أن نفعل شيئا، وبسرعة.

ـ لكن ماذا يمكن لامرأتين أن تفعلا بمفردهما؟

ـ بمفردهما، نعم، هذه حقيقة، لكن بكراهية لا حد لها.

لمعت عيناها لمعانا غريبا، فأحسست بالخوف والفرح.

وجاءت الفرصة فى الوقت الذى أوشكنا فيه أن نفقد الأمل فقد سافر زوجى راجعا إلى المدينة، ليتابع بعض أعماله، وسوف يتأخر فى العودة، حسبما قال لى، حوالى عشرين يوما.

لا أعرف إذا كان هو قد علم بأن زوجى قد سافر، لكنه فى ذلك اليوم استيقظ قبل الوقت الذى اعتاده، فأخذ مكانه وجلس فى مواجهة حجرتى، وجواد الوبى وطفلها انتقلا لينا ما معنا أنا والطفلين فى حجرتين، وللمرة الأولى كان بإمكانى أن أغلق علينا الباب.

وقضينا، أنا وجواد الوبى، الليلة كلها تقريبا ونحن نضع خططا، بينما نام الأطفال فى سكينة ومن وقت لآخر نسمعه يصل حتى باب الحجرة، ويخبط عليه بغيظ.

وفى اليوم الثانى، أطعمنا الأطفال إفطارهم، وكى يظلوا هادئين، وحتى لا يكونوا معوقين لنا فيما نخطط له، أجلسناهم فى حجرتى، وأغلقنا عليهم الباب.

كان وراءنا، جواد الوبى وأنا ـ أمور كثيرة لنقوم بها، ولتنفيذها بأسرع ما يمكن، لدرجة أنه لم يكن بوسعنا أن نضيع الوقت حتى فى الأكل.

نشرت جواد الوبى بعض ألواح الخشب الكبيرة والصلبة التى تتحمل، وفى الوقت نفسه كنت قد بحثت عن قادوم ومسامير ووجدتها، وعندما استكملنا كل منا نحتاجه وصلنا دون أن نحدث جلبة إلى حجرته فى ركن الحديقة، ألواح الباب كانت من أخشاب متباعدة، فمددنا أيدينا وأنزلنا الترابيس وبعد ذلك أغلقنا الباب من الخارج بالمفتاح وبدأنا فى دق ألواح الخشب بالمسامير حتى سددنا باب الحجرة بشكل محكم، وبينما كنا فى حمى الشغل كانت قطرات العرق الثقيلة تجرى فوق جبيننا، لم تحدث ساعتها ضجة، إذ بدا كما لو أنه غارق فى نوم عميق ولما انتهى كل شىء، جواد الوبى وأنا، تعانقنا وانفجرنا فى البكاء.

الأيام التى تلت ذلك، كانت مرعبة، فقد بقى على قيد الحياة أياما كثيرة دون هواء، ودون نور، ودون طعام، ودون ماء، فى الأول ظل

يدق على الباب، ويخبطه بجسده، وكان يطلق صراخه يائسا وهو يخربش فيه... لا جواد الوبى، ولا أنا، كان باستطاعتنا أن نأكل أو ننام، كانت الصرخات فظيعة، وفى بعض الأوقات فكرنا فى أن زوجى يمكن أن يعود قبل أن يكون هو قد مات... آه لو وجده هكذا!... كانت مقاومته كبيرة، وأعتقدت أنه يمكن أن يظل حيا حوالى أسبوعين.

وفى يوم لم أسمع بالفعل أى صرخات، ولا عويل، ولا تأويل وبالرغم من ذلك انتظرت يومين كاملين زيادة عن الوقت المفترض، قبل أن نفتح عليه الحجرة.

عندما عاد زوجى، استقبلناه بخبر موته الذى كان مفاجأة ومحيرا لنا!

الآنسة خوليا

أمبارو دابيلا - المكسيك

الآنسة خوليا، كما يناديها زملاؤها فى العمل بالمكتب، تحملت أكثر من شهر دون نوم، بالشكل الذى بدأ يترك أثاره عليها، فالوجنتان فقدتا تلك الدرجة من لونهما الوردى، والذى حافظت عليه خوليا بالرغم من سنوات عمرها، مثلما كانت نتيجة لحياة صحية، مرتبة، قضتها فى هدوء... وهالتان كبيرتان أحاطتا بعينيها، ويمكن ملاحظة أن فستانها تهدل عليها، ولاحظ زملاؤها بكثير من القلق أن ذاكرة الآنسة خوليا لم تعد كما كانت من قبل فهى تنسى الأشياء، وتعانى من حالات شرود متكررة، وأكثر ما كان يشغلهم، كان أن يروها جالسة أمام مكتبها دائخة ورأسها يسقط على صدرها ويرتفع فجأة إلى الحد الذى هو أقرب لبقائها نائمة. وهى التى كانت دائمة النشاط والانتعاش،كانت تتميز فى عملها حتى ذلك الحين بالكفاءة

والثناء والتقدير، وبدأت تتناثر فى المكتب التخمينات حولها نتيجة هذا التغير الذى لا يمكن تفسيره فالآنسة خوليا كانت واحدة من الآنسات التى تقوم بإدارة العمل بشكل لا غبار عليه، وكلهم يعرفون ذلك، وسلوكها فى حياتها يمكن أن يؤخذ كمثال للاعتدال والاستقامة.

ومنذ أن تزوجت أختاها الأصغر منها: عاشت خوليا وحدها فى البيت الذى تركه الأبوان لهما عند موتهما، وكان عليها أن ترتبه بذوق عال وتهتم بنظافته باستمرار، ونتيجة لذلك، فقد كان بيتا محببا لمن يدخله بالرغم من أنه كان بيتا قديما، وكل شىء هناك كان يعامل باهتمام ولطف، وكل تفصيلة مهما صغرت كانت تنم عن روح خوليا التى تعشق الموسيقى، وقراءة الكتب ذات القيمة الأدبية العالية: شعر شيلى، بركيتس، سوناتات برتغالية، روايات الشقيقتين برونتى، وهى تعد بنفسها وجبات الطعام وتقوم بنظافة البيت وهى سعيدة بذلك تماما، ودائما ترى وهى ترتدى ملابس محتشمة، ووقورة فى بساطتها وذوقها الخاص بها الذى يجعلها بالضرورة جميلة، وما تزال محتفظة بلون بشرتها الغض النضير، وتلك النظرة الهادئة العذبة التى تمنحها مسحة من الطيبة والوداعة إلا أنها، ومنذ فترة، قد خاطرت بتعريض نفسها للقيل والقال مع السيد دى لونا، مراجع حسابات المؤسسة، والذى يصحبها كل يوم بعد الظهر، من المكتب وحتى بيتها، وفى بعض الأحيان يبقى ليأخذ معها القهوة بينما يستمعان إلى الموسيقى، وفى الوقت نفسه تكون الآنسة خوليا تشتغل

فى سويتر لواحد من أبناء أختيها، وعندما تكون هناك حفلة لفرقة موسيقية متميزة يحضرانها معا، وكل أيام الأحد يذهبان معا لحضور القداس، وبعد الخروج من الكنيسة يمضيان لتناول الآيس كريم أو للنزهة فى الغابة.

وبعد أن تتناول خوليا الغداء مع أختيها وأبنائهما، يقضيان وقت العصر فى لعب الكوتشينة الأورجوانية ثم يشربون الشاى، وعندما يحل الظلام، تعود خوليا إلى بيتها فى غاية الرضا بينما تلقى نظرة على ثوبها مفتونة بقطيفته.

لكن ها هو شهر مضى وأكثر، لم تنم فيه خوليا، وذات ليلة أيقظها من النوم فجأة تصاعد جلبة غريبة كما لو أنها صادرة عن احتكاك أقدام صغيرة وهى تجرى فى حركة جريئة نشيطة. أضاءت النور وبحثت عنها فى البيت كله، لكنها لم تعثر على شيء وحاولت أن تعود للنوم، فلم تستطع مواصلته، وفى الليلة التالية حدث الشىء نفسه، وهكذا، يوما بعد يوم، ما تكاد تدخل فى نومها حتى توقظها الجلبة، لم تتحمل المسكينة جوليا أكثر من ذلك وباتت كل يوم تفتش البيت من فوق لتحت دون أن تعثر على أى أثر. وكان ما يقلقها أن الشقق بالبيت قديمة بما فيه الكفاية، وفكرت أنها ربما تكون ممتلئة بالفئران وتكون هى التى توقظها ليلة بعد ليلة، ولذلك اتفقت مع رجل على سد مداخل الجحور كلها التى فى البيت. ،وليس قبل أن تضع فيهاسم الفئران، وكان عليها أن تدفع مقابل هذا العمل ستين بيسو، والذى بدا لها مبلغا أزيد من اللازم.

فى هذه الليلة، استلقت فى فراشها راضية مطمئنة وهى تظن أنها قد وضعت بالفعل نهاية لهذا العذاب، ولقد سبب لها الضيق بلاشك أن يكون لزاما عليها أن تدفع هذه التكلفة، لكنها كررت لنفسها أكثر من مرة، أنها لم يكن باستطاعتها أن تواصل السهر ولو ليوم واحد أكثر من ذلك، ونامت وهى مطمئنة، وعندما أيقظها صخب الجلبة المعروفة لها، يبدو من السهل تصور خيبة أمل الآنسة خوليا، وكالعادة، فتشت البيت مرة أخرى، ولم تصل لأية نتيجة، وكان التعب قد نال منها، فألقت بنفسها يائسة على مقعد قديم، وانفجرت باكية، وعندما طلع عليها النهار كانت فى مكانها على المقعد.

وفى الحادية عشرة صباحا لم تستطع خوليا مقاومة النعاس وأحست بعينيها مقفلتين، والجسم متراخ وثقيل، ذهبت إلى الحمام ورشت وجهها بالماء، وعندئذ سمعت فتاتين وهما تتحدثان فى الممر بجوار السلم:

ـ هل دققت النظر فى وجهها اليوم؟

ـ نعم، أنها فى حالة سيئة جدا.

ـ لا أعرف كيف أمكنها الحضور إلى العمل وهى بهذه الحالة، فحتى الطفل: يمكنه أن يلاحظ ويشك.

ـ إذا أنت أيضا تظنين؟

ـ لم أكن أتصور أبدا أن الآنسة خوليا..

ـ هذا ما يشجعنى على القول بأن عليها أن تزور قديسة من القديسات.

ـ بالنسبة لى، فإن ما يؤلمنى جدا، هو أن أراها، المسكينة بالفعل، وهى غير قادرة ولا حتى مع روحها.

ـ واضح طبعا، وبالذات فى سنها.

أحست خوليا بأن دمها كله يندفع صاعدا إلى رأسها، وبدأت يداها ترتعشان، وساقاها تتراخيان، وكان من الصعب عليها أن تستوعب هذه الفضيحة، نظراتها غامت واحتجبت الرؤية وبعدها انحدرت الدموع فوق وجنتيها الملتهبتين.

اشترت الآنسة خوليا مصائد للفئران، وجبنا، وسما، ولم تسمح لكارلوس دى لونا أن يصحبها للبيت لأنه سيكون من المحزن جدا لها أن يعرف أن بيتها امتلأ فجأة بالفئران، ومن المحتمل أن يتسلل إلى تفكير السيد دى لونا أنها ليست نظيفة بمايكفى، وأنها مهملة فى ملابسها وتحيا وسط حيوانات قارضة، وضعت مصيدة فى كل غرفة من الغرف، ووجبة للفئران من الجبن المسموم، لأنها فكرت بأن الفئران لو نجحت فى الإفلات من المصيدة، فستموت حتما من الجبن المسموم، ولكى تحقق أضمن النتائج وتتفادى أى خطأ فيما تحاوله، وضعت إناء صغيرا، به ماء مسموم أيضا، إذ لو أن الفئران أفلتت من المصيدة ولم تحب أن تأكل من الجبن المسموم، فإنها لابد ستحس بالعطش، بعد ذلك اللعب المنفلت الزمام طوال الليل.

وسمعت جلبتها، وجريها السريع المرح، وارتطاماتها ووثباتها وسقطاتها... تلك الفئران مغرمة كثيرا بأن تتسلى، لكنها على أية حال ستكون الحفلة الأخيرة لها!

لقد رفع هذا التفكير معنوياتها، وجعلها ترى فيه خلاصها، ولما توقفت الجلبة، وكان ذلك وقت الفجر نهشت خوليا مشتاقة لأن ترى كم فأرا منها وقع فى المصائد، لكنها لم تعثر على ولا فأر واحد، فالمصائد كانت خالية، والجبن لم يمس، الأمل الوحيد الذى بقى لها، أن تكون الفئران، على الأقل، قد شربت من الماء المسموم، واستمرت خوليا المسكينة فى وضع سم جديد كل يوم، وكان عليها أن تشتريه من أماكن مختلفة ومن حيث لايعرفونها، إذ أنهم فى الأماكن التى ذهبت إليها مرات عديدة، بدأوا ينظرون إليها نظرات تشى بأنهم يستريبون فيها، كما لو أنهم بدوا يشكون فى شىء رهيب لابد .. وبات موقفها باعثا على اليأس، وبدأت جهودها تتناقص يوما عن يوم بشكل واضح، وقد فقدت روحها المرحة المعتادة والسكينة التى تتمتع بها دائما، وبدا مظهرها وقد بات مما يؤسف له، وحالتها بالعصبية لا يمكن الصبر عليها وقد فقدت تماما رغبتها واستمتاعها بالقراءة أو الاستماع للموسيقى، وبالرغم من أنها حاولت إلاأنها لم تستطع أن تجد شيئا قادرا على إثارة اهتمامها والشىء الوحيد الذى استطاعت أن تقرأه، وتدرسه بلا أمل، كان بعض الكتب القديمة فى علم الصيدلة، والتى كانت تخص والدها، وفكرت أن خلاصها الوحيد يكمن فى أن تكتشف هى بنفسها نوعا من السم الأكثر فعالية، والذى يجدى مع هذه الكائنات الشيطانية، طالما أنه لم يجد معهم أى سم آخر.

وصارت الآنسة خوليا، أثناء عملها فى المكتب، تسقط رغما عنها

فى النوم، وشخص ماربت على كتفها برقة فصحت مفزوعة على الفور.

الرئيس يطلبك يا آنسة خوليا.

دعكت خوليا عينيها وهى شديدة الضيق، فوضعت بودرة خفيفةعلى وجهها فى محاولة منها لإخفاء آثار النوم، وتوجهت، بعد ذلك إلى مكتب السيد ليموس، وبصعوبة طرقت الباب، جلست على حافة قاعدة الكرسى وهى متوترة بينما تتظاهر بالتماسك والكبرياء، بدأ السيد ليموس يتكلم عن أنه كان دائما راضيا عنها وعن عملها الذى يتميز بالكفاءة، ويبعث على الثقة، لكن، ومنذ فترة تغيرت الأمور، وبات شديد القلق عليها.. وما فكر فيه جعله يقرر أن يتكلم معها... وأكد لها أنه، من ناحيته لم يعر الشائعات المختلفة أى اهتمام (فى هذا الجزء الأخير من كلامه خفض بصره) احمر وجه خوليا تماما، وتشبثت بقوة بمسند الكرسى حتى لا تقع من فوقه، وأخذ قلبها يدق وتشتد ضرباته بصوت مكتوم.

لم تعرف كيف أفاقت من حالة فقدان الوعى، ولا إن كانت قد نجحت فى أن تقول شيئا دفاعا عن نفسها، وعندما وصلت إلى مكتبها أحست بالنظرات تحاصرها من كل من بالمكتب، ولحسن الحظ فالسيد دى لونا لم يكن موجودا فى هذه اللحظة، ولم تكن خوليا قادرة على تحمل مثل هذا الإذلال.

قدرت أختاها بسرعة أن شيئا بالغ الخطورة قد حدث لخوليا وفى أول الأمر أكدت لهما أن ليس لديها ماتقوله لهما، لكن الوضع الذى

صارت فيه الأمور أسوأ، فقدت خوليا الرغبة التى لابد من توفرها حتى تعترف لهما بمأساتها وحاولتا بلا جدوى أن تساعداها وتعملا على تهدئتها فى كل الأحوال، وإلى جانب زوجيهما، عادوا لإلقاء نظرة على البيت: فتشوه عدة مرات دون أن يعثروا على شيء مما تركهم فى حيرة شديدة، ومن يومها زادتا من انتباههما واهتمامهما بالأخت المسكينة، وبعدها بقليل فكرتا وقررتا أن خوليا تحتاج إلى قدر كبير من الراحة، ولذلك فعليها أن تطلب وقبل ذلك بوقت كاف، الإذن لها بالأجازة من العمل وذلك كان أيضا تقدير خوليا لأنها مرهقة جدا وما ينقصها هو أن تسترد صحتها، لكنها رأت ،وكم آلمها ذلك، أن أختيها تشكان أيضا فى السبب الوحيد والحقيقى الذى تحتفظ به لنفسها فى هذا الموقف فهى تحس بأنها مراقبة منهما حتى فى بعض التفاصيل التى تعنى شيئا يذكر، ولا الكلام فى المكتب حيث انتقلت إدارتها إلى زملاء لها، إلى التفكير فى أسباب مهينة ومخجلة، عدم الفهم والانحطاط، الذى هو قدر الغالبية من الناس، حطمها وجعلها نهبا للاكتئاب بشكل كامل، وكانت تتذكر باستمرار ذلك الحديث الذى كان من حظها أن سمعته، وما ادعاه عليها السيد ليموس، وعندئذ تنحدر الدموع على وجنتيها ونهنهات بكائها تعلو حتى حلقها.

كانت الآنسة خوليا تحب عملها، بالرغم من سلسلة الإهانات والافتراءات التى مرت عليها فى الأوقات الأخيرة وقد جعلها تقاسى، ففى هذا المكتب الذى قضت فيه خمسة عشر عاما، كانت تفكر دائما

بأنها ستستغل فيه حتى اليوم الأخيرالذى تستطيع القيام بعملها فيه، وكانت تعتبر أن العمل بالنسبة لها، يوفر لها على الأقل مكانة اجتماعية مثل أختيها، وفكرت بأنها كانت متجهمة فى عملها وهى تتحرك فى مشقة وبذل الجهد فوق الجهد، وإن ذلك لم يمكنها من أن تحقق وضعا متقدما من قبل... وبعد أن أمعنت التفكير طويلا انتهت إلى أنها لابد أن تسعى للعلاج، فتطلب السماح لها بأجازة كما تريد الأختان، وأن تحاول إستعادة قواها وحيويتها.

علاقة خوليا بالسيد دى لونا انتابها البرود شيئا فشيئا، وليس ذلك لأنها لا تهمها، بل لأنها بعد أن تعانى من ذلك الوضع الذى أربكها، فبدأت تتهرب من رؤيته كل يوم، كما كانت تفعل حتى ذلك الحين، وخوفا من أن يشك فى شيء، مرت بتجربة قاسية لخجلها من أن يكتشف السبب فى مأساتها، من تخيله فقط، وهو يحس بيديها تعرقان، وحرجها من جعله يتقيأ، وبعد ذلك لم يعد هناك بالفعل هذا الخوف فقط، بل لأن خوليا لم يعد وقتها يتسع لشيء آخر، إلا لإعداد السموم وبشكل غير متوقع، عثرت على أدوات معمل صغير يستخدم فى تحضير وتركيب بعض الأدوية، وقد عثرت عليه فى أحد الصناديق التى لاشك فى أن والدها قد احتفظ بها كتذكار من سنوات عمله بالصيدلة، إذ أنه، وقبل سنوات من موته، باع الصيدلية، وكرس بقية عمره فقط لتقديم بعض الأدوية لعدد من المرضى.

وفى هذا المعمل قضت خوليا كل الأوقات القصيرة التى كانت غير

مشغولة فيها، وعدة ساعات من الليل، تخلط فيها مستحضرات من مواد غريبة، والتى كانت تنبعث منها فى مرات عديدة روائح لا يمكن تحملها، أو غازات تلهب العينين، أو تسبب هياجا للزور، ونوبات من السعال تجعلها تدمع بغزارة، وهكذا سارت الأمور، فخوليا، بالفعل، ليس لديها لا الوقت ولا السكينة التى تتيح لها الجلوس للاستماع إلى الموسيقى مع السيد دى لونا، فكانا لا يريان بعضهما البعض فى أفضل الأحوال، إلا مرة واحدة فى الأسبوع، وأيام الأحد التى يذهبان فيها معا لحضور القداس . ومع ذلك، فإن خوليا كانت تحس بأن هذه المحبة حتى فى هذه الحدود، قوية وراسخة، ولا شىء يمكن أن يزعزعها، أو يؤخذ عليها، إنه إحساس رقيق وهادىء مثل سوناتا «لباخ» وتوافق روحى متصل وعميق، مفعم بالطهارة والفرح... هكذا أوضحت خوليا حدود ما بينهما.

والسيد دى لونا، فكر مثل خوليا، محترما نبل ما بينهما... وأن ما يربطهما هى علاقة بالغة الندرة، ويصعب أن تجدها فى عالم مجنون ضارب فيه الفساد، فى هذا الانفلات حيث لا أحد الآن لديه وقت ليفكر فى روحه، ولا فى خلاصه، وحيث أن أماكن العبادة للمسيحى تقل أكثر فأكثر... وعلى أية حال، فهو يحمد الله على هذه الهبة الطيبة التى منحت له، والتى ربما لا يستحقها.

ولكن كارلوس دى لونا كان رجلا شديد التقوى والطيبة، فهو ابن أو أخ مثالى، محاسب شريف وكفء من الدرجة الأولى، وينتمى باعتزاز كبير لتقاليد الفروسية لفرسان مائدة كولومبوس مباشرة،

والآن، وقد مرت سنوات عديدة، كان من المفترض والواجب عليه أن يكون قد تتم زواجه فيها، لكن كرجل ملتزم، وعليه مسئولية فى سلك الأتقياء، كان يحب أن ينتظر وقتا كافيا حتى يمتلك التماسك الخلقى بواجب، كما أن عليه أن يوفر ما يحقق له استقرارا ماديا ليتيح له القيام بالإنفاق على بيت بكل لوازمه مع استمراره فى مساعدة أبويه المسنين، ولقد تعرف على خوليا فى وقت سابق، إلا أن الحظ صادفه بعد ذلك بالعمل معا فى المكتب نفسه، كما أنها سهلت له بدء تلك الصداقة التى راحت تتحول شيئا فشيئا إلى محبة عميقة.

لكن فى الأوقات الأخيرة، انتاب السيد دى لونا ارتباك شديد شوش على تفكيره، فخوليا قد طرأ عليها تغير ملحوظ مما أثار شكوكه فى أن شيئا خطيرا لابد قد حدث لها، فهى تبدو متحفظة وتتحاشى الكلام معه عندما يكونان بمفردهما، وهو يعانى فى صمت من هذا التغير غير المتوقع من خوليا وكان أمله أن تفتح له قلبها فى يوم ما وتوضح له كل شىء، لكن خوليا تبتعد كل يوم أكثر مما سبقه، والسيد دى لونا بدأ يلاحظ أن الموظفين فى المكتب أيضا، بدأوا يعلقون على تغير خوليا، وبعد ذلك تسربت إليه الأقوال الجارحة بماتحمله من نوايا سيئة، والتى تنال من فضائلها، وفى أول الأمر كانت النتيجة حنقا شديدا ثم اشتعال نار الشك، وثقته فيها اهتزت بداخله.

إزاء هذه الحالة التى وصل إليها، ذهب ليستشير نيافة الأب المبجل كويباس فى مشكلته، وهو الأب الذى ظل ،ولسنوات طويلة.

يعترف أمامه، وهو مرشده الروحى، والذى يقدم له حلولا للمشكلات الصغيرة التى تعترض طريق الرجل الصالح، وحضرة الأب المبجل نصحه بأن ينتظر فترة كافية يحرص فيها على أن يرى خوليا، فإن عادت إلى ما كانت عليه من قبل، فبها ونعم المآل، أما إذا تصرفت عكس الذى نرجوه، فعليه أن يبتعد عنها بشكل نهائى. وفى الحقيقة، فلعل ذلك إشارة واضحة من الرب إلى أن هذا الارتباط لن يكتب له التوفيق، وربما هو محكوم عليه بالفشل وخيبة الأمل وربما هو خطر بالغ وعقبة كأداء فى طريق الخلاص لروحه.

وفى الليلة الأخيرة من عمل الآنسة خوليا فى المكتب، جاءت إلى كارلوس دى لونا وطلبت منه أن يصحبها حتى بيتها لأنها تريد أن تطلعه على أمر مهم، وهو استقبلها بشكل فيه جفاء، وبطريقة أقرب لأن تكون عدائية ،كما لو أنه استطاع فى هذه اللحظة أن يكشف ويرى أمرا سيئا ومخيفا، وارتبكت خوليا بشدة بما لم تعهده فى مثل هذا الموقف من كارلوس، وفى الطريق حكت له أنها سوف تترك العمل لمدة من الزمن، لأنها فى حاجة لأن تستريح، وسمعها كارلوس دى لونا دون أن يعلق بشىء، وكان له بقبعته السوداء ومظلته السوداء وبدلته الغامقة، مزاج مكفهر وصامت دائما، وفى هذا اليوم بدا أكثر وضوحا، وبينما تعد القهوة دعته خوليا لنزهة وبينما كانا متجهان إلى المقهى خامرها إحساس بحياة الرفاهية، إذ أن مظهر السيد دى لونا وحده يبعث على الثقة والطمأنينة، عاتبها، فألقت عليه نظرة أطول قليلا خلال هذه الفترة الأخيرة وعاد لعتابها ثانية، ومع

أنه لم يكن ملزما بذلك، فقد اعترف لها بمأساته، فهو قد أرتاح لها، وهما معا، كانا قد عثرا على حل ما، وعندئذ قررت أن تتكلم مع كارلوس.

شربا القهوة فى صمت، وفجأة قالت له خوليا:

ـ كارلوس ..أحب أن أقول لك..

ـ قولى ياخوليا.

ـ ألا تحب أن تسمع موسيقى؟

ـ كما تحبين حضرتك.

قامت خوليا، ووضعت بعض الأسطوانات والتى هى ضد رغبته تماما.

وأبدا لم تجسر . الكلمات تستعصى على الخروج، ربما ذلك الموقف البالغ الجفاء الذى تعامل به معها كارلوس قد أخرسها. هذه النظرة البعيدة جدا عندما كانت على وشك أن تبوح له بمأساتها، أمسكت بشغل الأبرة، وجلست، وعندئذ بدأ كارلوس دى لونا فى الكلام وهو يتلعثم:

ـ خوليا، أريد أن أعرض عليك... أناحقا... فكرت... يا عزيزتى خوليا.. أعتقد أنه ربما ..كما يقال .. أخذا فى الاعتبار ..خوليا أنه من أجل صلاحنا وسلامة أرواحنا... والأكثر نفعا هو أن نعتبر وننهى ..أريد أن أقول لك... ألا نمضى فى مشروع زواجنا.

وخلال ما كان السيد دى لونا يحاول أن يقول هذا، مسح جبينه بالمنديل عدة مرات، وكان شديد الشحوب مثل رجب ميت، وكان

صوته ينقطع بشكل مستمر، وبعد ذلك ازداد هدوءا واستمر يتحدث عن المسئولية الرهيبة التى تترتب على الزواج، والواجبات العديدة، ثم الواجبات التى على كل من الزوجين..

كانت خوليا مازالت أكثر شحوبا منه، سقط شغل الإبرة من يديها وجف ريقها تماما، والألم المصاحب لخيبة الأمل كانا قد تسربا إليها تماما بالشكل الذى خافت معه ألا تستطيع نطق ولا كلمة واحدة، كانت تبذل جهدا حقيقيا ومضنيا أكدت له به أنها تتفق معه، وأن هذا القرار بلا شك، هو الأفضل لكليهما، وأحست الآنسة خوليا بنفسها مثل بيت غير مسكون، ومتهدم : ولم تجد لها مكانا، ولا سندا، وقد لبثت فى الفراغ، تدور حول نفسها بلا قدرة على أن ترى فى هذه الظلمة، تريد أن تغادر، وتمضى وتتوه فى النوم، وتنسى كل شىء، وتكلمت وقتها عن تحضير السموم. واختراع مصائد للفئران، كان لديها اعتقاد بأن هذه الحيوانات ستظل تطاردها حتى آخر يوم فى حياتها، وكل مقاومة لهاغير مجدية.

لم تذهب بعد ذلك أيام الأحد لتناول الغداء مع أختيها لأنها لم تعد قادرة على تحمل الضجة التى يحدثها الأطفال، دون أن نستثنى من ذلك لعب الكوتشينة، كانت تشغل نفسها بشغل الإبرة المتواصل بيدين مرتعشتين، وبين وقت وآخر تمسح دموعها، وتتوقف عن شغل الإبرة، فقط، لكى تقوم بعمل أقل ما يمكن من ترويق البيت وإعداد أى أكل لتتناوله وأحيانا تقبع للحظات نائمة فى الكرسى، وهذه كانت الراحة الوحيدة التى تتحصل عليها، وأختها ميلا كانت تذهب إليها

كل ليلة لكى تكون بجوارها، خوفا عليها من أن يحدث لها شىء لو تركوها وحدها، وميلا المرهقة من شغل بيتها، سقطت من طولها وغرقت فى النوم، وأحيانا كانت توقظها خطوات خوليا التى تروح وتجيىء بطول البيت وعرضه وهى تفتش عن الفئران، تلك الفئران الشياطين التى لا تدعها تنام..»

كانت خوليا تحتفظ بعينيها مغمضتين، لكنها كانت تستيقظ وتتنصت على الجلبة فى الغرفة... على السلم.. تلك التى تجرى ..تقفز... تنزلق... وبعد ذلك تدخل وتكون فى غرفتها .. تصل حتى سريرها.. وتحت السرير، تفتح عينيها وتستوى قائمة فى كرسيها، تسلل ضوء شحيح من بين فرجات ضلف الشيش الخشبى القديم. وسمعت شيئا مثل الخيول، والهروب السريع، ميزت ظلالا تتطاول وتأكدت من أنها ترى عيونا مدورة شديدة الاحمرار، واللمعان أضاءت النور وقفزت من السرير، لقد عثرت عليها بالفعل، بعد زمن البحث غير المجدى عادت إلى السرير وهى ترتجف من البرد، وبكت فى سرها، وأخذت تشد شعرها فى يأس وهى تغرس أظافرها فى باطن كفيها مسببة لنفسها أذى تحس به الآن بالفعل.

فى هذا الصباح نهضت الآنسة خوليا من فراشها وقد بذلت جهدا هائلا، مشت بضع خطوات وهى تترنح ووقفت لدقائق أمام مرآة الدولاب لتعيد تمشيط شعرها... ملامح الوجه التى رأتها منعكسة فى المرآة لا يمكن أن تكون أكثر من ملامح وجه منحوس..

فتحت ضلفة الدولاب لتبحث عن شىء تلبسه... إنهم هنا ! ألقت

بنفسها عليهم وأحكمت قبضتها وحصارها لهم بعنف... أخيرا عثرت عليهم!... الشياطين، الشياطين، أنهم هم! هم بعيونهم الحمراء التى تلمع.. إنهم هم الذين لم يتركوها تنام وكانوا يقتلونها شيئا فشيئا، لكنها اكتشفت مكانهم وهم الآن تحت رحمتها.. لن يرجعوا للجرى طوال الليل، ولن يثيروا الجلبة مرة أخرى... لقد أنقذت .. وستعود لتنام... وستستعيد سعادتها.. لقد أمسكت بهم هنا... بقوة... وسوف تريهم للناس كلها... لهؤلاء الذين بالمكتب..ولكارلوس دى لونا.. ولأختيها ..وكلهم سوف يكفون عن تفكيرهم السيىء فيها... وسوف يشعرون بالندم... ستنسى كل شىء.. الشياطين.. الشياطين! أى أذى بمثل هذه الفداحة ذلك الذى سببوه لها!... لكنهم أصبحوا هنا... بين يديها... انفجرت ضاحكة فى قهقهات .. وشددت أكثر ضغطها عليهم... تمشى من ناحية لأخرى فى الغرفة... كانت شديدة السعادة بأن اكتشفت مكانهم بعد أن كانت قد فقدت كل أمل... ضحكت بصوت عال... الآن هم تحت رحمتى.. وهى وحدها صاحبة التصرف فيهم... والآن هم لن يسببوا لها أذى بعد ذلك أبدا... كانت تتكلم وتضحك... وبكت من الانفعال والفرحة.. صرخت .. صرخت.. يا لى من محظوظة أن أعثر عليهم... أى حظ هذا!... ابتسمت واستحبت.واندفعت تصرخ، وتقهقه مع هذه العيون الحمراء اللامعة واندفعت تصرخ... تصرخ.. تصرخ..

عندما جاءت إليها ميلا، وهى تدعك عينيها وتتثاءب، وجدت خوليا تحتضن بعنف وشراسة، تلفيحتها الجميلة من فرو السمور.

تالبـــا (*)

خوان رولفو - المكسيك

تداعت ذرف الدموع لأيام طويلة، محتفظة بها حتى رجوعنا إلى ثنثونتلا، وما أن رأت أمها حتى بدأت تحس بأنها تحتاج لمن يواسيها.

بالرغم من أنها قبل ذلك، وفى قلب الأعباء المرهقة خلال الأيام القاسية، عندما كان لزاما علينا أن ندفن تانيلو فى حفرة بأرض تالبا، دون مساعدة من أحد، عندما كنا هى وأنا، نحن الاثنين، وحدنا، استجمعنا قوتنا وبدأنا نحفر القبر ونجرف التراب خارجه بأيدينا، آملين أن نوارى تانيلو الحفرة بأسرع ما يمكن حتى لا نثير خوف أحد من أنفاسه المثقلة برائحة الموت، حينذاك لم تكن تبكى وحتى بعد العودة، فى سكة الرجوع، أثناء رحيلنا بالليل، ودون أن ننال أى قدر من الراحة، مضينا نتحسس بأقدامنا، كما لو كنا نسير

ونحن نيام فوق قبر تانيلو، بدت ناتاليا فى ذلك الحين متماسكة وتحمل قلبا جامدا، محتملة كل ما يعصف بداخلها دون أن تنحدر من عينيها دمعة واحدة.

لقد أتت لحد هنا عند أمها لكى تنهار باكية، أتت لحد هنا لا لشىء سوى أن تحزنها وتدعها تعرف أنها تقاسى ، وفى الوقت نفسه تحزننا كلنا، لأننى أحس ببكائها فى داخلى، كما لو أن عليها أن تعتصر الدموع للتخلص مما بقى من ذنوبنا.

ذلك لأن الحقيقة هى أننا قتلنا تانيلو سانتوس فيما بيننا، ناتاليا وأنا، لقد مضينا به إلى تالبا لكى يموت، ولقد مات، كنا نعرف أنه لن يتحمل عناء طول الطريق، ومع ذلك فقد أخذناه ودفعناه للذهاب فيما بيننا، نحن الاثنين، إذ فكرنا بأن علينا أن نتخلص منه للأبد، وذلك ما فعلناه.

فكرة الذهاب إلى تالبا جاءت من أخى تانيلو نفسه، وقبل أن تطرأ على ذهن شخص آخر، طرأت على ذهنه هو، وكان ذلك من سنين، فى صباح ذلك اليوم الذى صحا فيه على طفح بثور بنفسجية منتشرة بذراعيه وساقيه ثم انقلبت إلى قروح حيث صارت تفرز بدلا من الدم سوائل صفراء لزجة، منذ ذلك الوقت وأنا أتذكر جيدا أنه قال لنا، كم أنه يشعر بالخوف من ألا يشفى من هذا المرض، ولذلك فعنده أمل فى أن يزور عذراء تالبا، فمشاهدتها كافية لأن تشفى تلك القروح، وبالرغم من أنه يعرف كم أن تالبا بعيدة، وأن علينا أن نقطع الطريق بطوله سيرا على الأقدام تحت وقدة الشمس طوال النهار، وفى البرد طوال الليل فى شهر مارس، فلقد أصر على أن نذهب

،فالعذراء الصغيرة سوف تقدم له العلاج الشافى من قروحه هذه التى لم تجف أبدا، هى تعرف كيف تفعل ذلك، تغسل القروح وتطهرها وتجعل كل شىء يعود كما كان من قبل، كما كان من أول وجديد، كحقل تحييه الأمطار التى تسقط عليه من الموات، ولذلك فهناك، أمامها ستنتهى أوجاعه ولا يمكن أن يطوله أذى مرة أخرى، ذلك ما كان يفكر فيه.

ولذلك انتهزنا الفرصة، ناتاليا وأنا لنشجعه على الذهاب، وكان لابد من ذهابى معه، لأن أخى، وناتاليا لم يكن أمامها إلا أن ترافق تانيلو فى هذه السفرة أيضا، لأنها على أية حال زوجته، فلابد أن تلازمه وتأخذ بيده لتكون سندا له فى طريق الذهاب، وربما أيضا فى طريق العودة فيستند على كتفيها راجيا تحقيق أمله.

كنت أدرك بالفعل، ومن قبل ذلك، ما كان يدور فى عقل ناتاليا، فأنا أعرف سرها، وأعرف مثلا فخذيها المستديرين المصبوبين حين تنبعث منهما سخونة الأحجار تحت وقدة شمس الظهيرة، وكيف ظلا متروكين وحدهما لزمن طال، نعم أنا أعرف ذلك منها. لقد قضينا معا، لوحدنا، أوقاتا طويلة، وحدث ذلك لمرات عديدة لكن دائما كان يحول بيننا شبح تانيلو، كنا نحس بيده المليئة بالقروح تحط بيننا وتحمل ناتاليا على مواصلة الاهتمام بأموره وأن ذلك سوف يستمر طالما ظل على قيد الحياة.

أنا أدرك الآن إن ناتاليا يسيطر عليها الإحساس بالذنب والندم على ما جرى، وأنا أيضا فى الوضع نفسه، ولكن لا الإحساس

بالذنب ولا الندم سيخلصنا من تأنيب الضمير أو يمنحنا السكينة أبدا، ولن يسهل علينا الأمر أننا كنا نعرف أن تانيلو فى كل الأحوال كان مقضيا عليه بالموت، لأن أجله قد حان، وأنه لن يفيده بشىء ذهابه إلى تالبا، مثلما لن يفيده لو ذهب لأبعد منها، لأنه من المؤكد كان سيموت هناك مثلما كان سيموت هنا، وربما طال عمره قليلا هنا عن هناك بسبب كل ما لاقاه من عذاب السير والدم الغزير الذى نزفه وغيظه وكل ما صادفه، بما فى ذلك كل تلك الأمور التى جرت وانهالت عليه مرة واحدة لتقتله على الفور، والأمر السيىء الذى اقترفاه هو أن ناتاليا وأنا حملناه حملا على مواصلة السير فى الوقت الذى بات لم يعد راغبا فيه، عندما أحس بأنه ما من فائدة يمكن أن تعود عليه من الاستمرار، وأخذ يتوسل إلينا أن نعيده، وفى المرات التى كان يقع منا فيها ويتمدد على الأرض،كنا نرفعه ونحمله من فوق الأرض ليواصل السير غصبا عنه ونحن ننهره صارخين فيه بأنه يستحيل علينا الآن أن نعود، أننا الآن أقرب إلى تالبا من ثنثونتلا هذا ما قلناه له، ولكن تالبا فى ذلك الوقت كانت لم تزل بعيدة، أبعد من أن نصلها قبل عدة أيام.

ماكنا نريده هو أن يموت، وإذا قلنا أن ذلك كان ما تمنيناه حتى قبل أن نغادر ثنثونتلا فأنا لا أبالغ، وفى كل ليلة من تلك الليالى التى قطعناها فى الطريق إلى تالبا، كان هناك شىء ليس بمقدورنا أن نفهمه الآن، لكن فى ذلك الوقت، كان هو ما نشتهيه، أننى أتذكر ذلك جيدا.

أننى أتذكر بوضوح تلك الليالى، فى البداية كنا نستضىء بإشعال النار فى أفرع من أشجار الصنوبر، بعد ذلك كنا نترك الرماد يتراكم فتختنق ألسنة اللهب وتسود الظلمة، بعدها نفتش ناتاليا وأنا، عن ظل أى شيء حتى نتوارى فيه من الأضواء الواهنة التى تعكسها السماء على الأرض، وهكذا نلوذ ببقعة موحشة من الأرض المحيطة بنا، بعيدا عن عينى تانيلو ولا يمكن رؤيتها فى ظلمة الليل، وفى تلك البقعة النائية تدفعنا الوحشة، ناتاليا وأنا، كل واحد نحو الآخر، عن نفسى فإننى كنت أضم جسم ناتاليا بين ذراعى، أما عنها فإن ذلك كان يعزيها فتحس كما لو أنها تتخفف من متاعبها، وكان عليها أن تطرح وراءها همومها التى لا حصر لها، بعدها يغلبها النعاس وتترك جسمها يغوص فى راحة تغمرها.

كثيرا ما كانت الأرض التى كنا ننام عليها سخنة، ومع سخونة الأرض يسخن على الفور لحم جسم ناتاليا امرأة أخى تانيلو، عندها تستحيل تلك السخونة منهما معا إلى حريق يجعل الواحد يفيق فى أحلامه، ولحظتها أشعر براحتى تزحفان وتروحان تتحسسان ظهرها، تروحان وتجيئان فوق بشرة تلك الأقرب لجمرة تحترق ببطء دون لهب مثلما كانت تفعل وهى تتنفس، فى الأول بكل رقة، لكن فيما بعد تسرع يداى لتعتصرانها بقوة، كما لو كانت تتشهيان أن تطفر من لحمها الدماء، وهكذا مرة فمرة، وليلة إثر ليلة، حتى يبزغ الفجر، وتطفىء النسائم الباردة نيران جسدينا. ذلك ما كنا نفعله ناتاليا وأنا على جانب الطريق المتجه إلى تالبا حينما ذهبنا بتانيلو حتى ترفع

العذراء عنه البلاء الذى ابتلى به.

الآن كل الأمور قد انتهت، بل أن تانيلو قد استراح من حياته نفسها، وبالفعل، فلم يعد باستطاعته تذكر أى شىء عن الأحوال التى تحملها ليدفع ثمن أن يبقى حيا، بجسمه الأقرب للتفسخ، وجلده المتورم بالصديد الضارب فى جوانبه كلها ليسيل من كل جرح مفتوح بساقيه أو ذراعيه، محدثا قروحا هائلة تصل لدرجة التهتك فتنتفخ ببطء، وبطء شديد، وتنبعث منها فقاعات نتنة الرائحة ،كما لو كانت تنبعث من لحم أدركه الفساد، وذلك كله هو ما كان يصيبنا بالرعب.

ولكن بما أنه قد مات، فالنظرة الأولى إلى ذلكم قد اختلفت، فالآن ترى ناتاليا تبكى عليه، وربما لأنه يرى من المكان الذى يرقد فيه كل تأنيب الضمير الهائل الذى تنوء به روحها، فهى تتكلم عن أنها تشعر بوجه تانيلو مبتلا دائما بالعرق فى الوقت الذى تخذله فيه قواه على تحمل آلامه، إنها تشعر به وهو يلوذ بها مقتربا من فمها، مخبئا نفسه فى شعرها، متوسلا إليها بصوت لا يكاد يسمع أن تأخذ بيده، وتقول أنه يقول لها بأنه أخيرا قد شفى تماما فى نهاية الأمر، وأنه لن تفزعه الآلام بعد ذلك، الآن أستطيع أن أحيا معك ياناتاليا، ساعدينى لأحيا معك، هى تقول أنه قال لها ذلك.

كنا قد غادرنا تالبا على الفور، أول ما أودعناه هناك، وأتممنا دفنه فى تلك الحفرة الطولية التى حفرناها عميقة جدا لندفنه فيها.

ومن ساعتها نسيتنى ناتاليا.

أنا أعرف عينيها وكيف كانتا تلمعان من قبل كما لو كانتا

بحيرتين يتلألأ فيهما ضوء القمر، لكنهما انطفأتا فجأة، ولم تعودا ترسلان نظراتهما كما لو كانت قد سحلتا على الأرض، وبدا أنها لم تعد تنظر إلى شيء، وصار كل ما هو موجود بالنسبة لها هو تانيلو، وأنها كانت توليه عنايتها عندما كان حيا، وأنها قامت بدفنه عندما مات.

***

لقد تأخر عثورنا على الطريق الرئيسي المؤدى إلى تالبا عشرين يوما، وحتى ذلك الوقت، كنا وحدنا نحن الثلاثة فقط، إلى أن عثرنا على الطريق، ومن هنا بدأنا ننضم للناس التى كانت تهل وتتدفق مثلنا فى مجرى ذلك الطريق الواسع فتبدو كتيار زاخر فى مجرى النهر، تيار يدفعنا بقوة من كل ناحية للإسراع فى السير للأمام، كانوا يحملوننا على المضى بينما تلفنا دوامات من التراب تتصاعد من الأرض مع حركة تدافعها، تراب أبيض كدقيق الذرة يرتفع عاليا جدا ثم يعود ليتساقط.. إلا أن تدافع الأرجل وهى تسرع فى مشيتها يثير التراب وراءها فيندفع عاليا من جديد، وهكذا طوال الساعات ظل التراب يثور فى دوامات فوقنا وتحتنا، وفوق هذه الأرض ،فى الأعالى، كانت السماء خاوية، وما من غيمة بها، وليس سوى التراب، وسوى أنه لا يمنحنا أى ظل.

كان علينا أن ننتظر حتى يحل الليل كى نستريح من الشمس وهذا البياض القاسى على طول الطريق، ولذلك كانت الأيام تمضى أكثر طولا، لقد غادرنا ثنثلانتلا حوالى منتصف شهر فبراير، والآن

يبدأ شهر مارس بنهاره الذى يصبح مبكرا جدا، وبالكاد ما أن تغمض عيوننا مع حلول ظلمة الليل، حتى تعود توقظها الشمس، نفس الشمس التى تبدو وكأنها غربت منذ برهة.

لم يحدث أبدا أن أحسست ببطء الحياة والقهر فيها مثلما أحسست بذلك ونحن نتخبط فى سيرنا وسط حشد من الخلق، وكما لو كنا كومة هائجة من الديدان تتقلب وتتكوم تحت الشمس . نتلوى فى حبسة التراب الذى حاصرنا وساقنا جميعا فى الطريق نفسه، ومضى بنا كالأسرى، تتابع عيوننا سحائب التراب ثم تحدث فيه كما لو أنها تواجه بشىء لا يمكن اختراقه، والشمس دائما كانت رمادية، أقرب إلى لطخة رمادية ثقيلة تهبط علينا من فوق رؤوسنا كلنا، لعدة مرات فقط حدث عندما كنا نعبر أحد الأنهار، أن كان التراب عاليا جدا وشفافا، فأخذنا نغطس رؤوسنا الحرانة التى اسودت من لفح الشمس فى المياه المخضرة، وفى وقت قصير بدأ يتصاعد دخان أزرق منا كلنا، مثل البخار الذى يندفع من فمك أيام البرد، لكن بعد فترة وجيزة تغطينا مرة أخرى بالتراب إذ دخلنا فى دواماته غائصين فيه ونحن نتوارى ببعضنا اتقاء لحرارة الشمس التى تنتصب فوق رأس كل واحد منا.

فى وقت ما سيحل الليل، وعلينا أن نعمل حساب ذلك، الليل سيحل، علينا أن نرتب أمورنا لنستريح، الآن نحاول أن نقضى النهار، أن نجتازه كيفما كان وبأى شكل لنهرب من القيظ والشمس المتسلطة، بعد ذلك علينا أن نتوقف، ما علينا أن نقوم به حالا هو أن

نبذل الجهد مضاعفا للمضى بسرعة خلف الكثيرين مثلنا وأمام كثيرين آخرين، هذا ما علينا أن نحاوله، ولسوف نحصل على راحتنا بشكل طيب، وبشكل طيب آخر حينما نصبح أمواتا.

لقد فكرنا فى ذلك، ناتاليا وأنا، وربما أيضا تانيلو حينما بدأنا السير فى الطريق الرئيسي إلى تالبا، خلال المسيرة، تمنينا أن نكون أول الناس الواصلين إلى العذراء، قبل أن تكون معجزتها قد تحققت وفاتتنا.

لكن وضع تانيلو بدأ يسوء، ووصل إلى النقطة التى لم يعد يرغب فيها مواصلة السير، فلقد تشقق لحم قدميه ومن خلال ذلك الشق الكبير بدأ دمه ينزف بغزارة، أخذنا نعالجه حتى تحسنت حالته، ومع ذلك، ظل غير راغب فى مواصلة السير.

«سأقعد هنا يوما أو يومين، بعد ذلك سأرجع إلى ثنثونتلا» هذا ما قاله لنا.

لكن ناتاليا وأنا لم نرغب فى الرجوع، شىء ما فى داخلنا لم يترك أى فرصة للإحساس بالشفقة على واحد مثل تانيلو، لقد أردنا الذهاب به إلى تالبا لأنه فى الحالة التى كان عليها، بدا وكأن حياته تطول أكثر من اللازم، ولذلك فعندما كانت ناتاليا تغسل قدميه وتطهرهما بسكب قليل من زجاجة شراب العرق عليهما لكى يقل تورمهما بعثت فى روحه الطمأنينة وهى تمنيه بأن عذراء تالبا فقط هى التى ستشفيه، وأنها الوحيدة التى بمقدورها أن تشفيه تماما، هى ولا نحتاج لأكثر منها على الرغم من وجود الكثيرات، لكن فقط

عذراء تالبا هى أحسن واحدة فيهن، ذلك ما قالته له ناتاليا، عندئذ أخذ تانيلو فى البكاء بدموع جرت خلال الطين الذى لوث وجهه من دوامات التراب والعرق الذى ينثال بلا توقف، بعدها لعن تانيلو نفسه لأنه ضل عن الصواب، مسحت ناتاليا دموعه بطرحتها، وفيما بيننا أنهضناه من فوق الأرض حتى يمشي مرة أخرى أطول وقت ممكن قبل حلول الليل..

وهكذا، ونحن نجره طوال الطريق وصلنا معا إلى تالبا.

ونحن أيضا كنا قد تعبنا فى الأيام الأخيرة، ناتاليا وأنا، كنا نحس بأجسادنا وهى تنحنى منا شيئا فشيئا، كما لو كنا نحتفظ بسر ما، يلقى بحمله الثقيل فوق كاهلنا، وكثيرا ما كان تانيلو ينكفىء، ويقع منا على الأرض، وكان علينا أن نرفعه ليواصل السير، وأحيانا لم يكن أمامنا إلا أن نحمله على أكتافنا، وربما بسبب ذلك صار حالنا ما صار إليه، بأجساد منهكة بلغ بها التعب أنها توقفت عن السير، لكن الناس التى كانت تسير من حولنا جعلتنا نواصل السير، بل ونسير بسرعة أكبر.

فى الليالى التى كانت تحل علينا بالطريق، كان ضجيج الزحام العالى الممتلىء ببذاءات هذا القطيع من الخلق يخفت، متحلقا فى بقع متفرقة وكثيرة حول النار التى قام بإشعالها هؤلاء الخلق الساعون إلى المزار المقدس لعذراء تالبا، وقد أقاموا صلوات التسبيح وأذرعتهم تتقاطع على صدورهم راسمة الصليب، متطلعين بأبصارهم فى اتجاه سماء تالبا، وأمكننا أن نسمع كيف تهب الريح

فتحمل تلك الأصوات الخافية ثم ترتد بها مجتمعة حتى تحولها إلى صوت هادر، وبعد ذلك بوقت قصير يبقى كل شىء ساكنا . وعند حوالى منتصف الليل، يمكن سماع واحد وهو يغنى بعيدا جدا عنا، وعندئذ فقط نغمض عيوننا وننتظر دون نوم حتى يبزغ ضوء النهار.

***

لقد دخلنا تالبا ونحن نترنم بأناشيد صلوات تسبيح الفجر.

كنا قدر غادرنا ثنثونتلا فى منتصف شهر فبراير ووصلنا إلى تالبا فى الأيام الأخيرة من مارس، ويومها كان كثير من الخلق فى طريق العودة، ويرجع كل ذلك إلى أن تانيلو اندفع فى أداء شعائر التوبة أو إماتة النفس.

فما أن وجد نفسه محاطا بخلق يضع كل واحد منهم واحدة من أوراق نباتات الصبار متدلية على كتفه كوشاح الرهبان حتى فكر فى أن ينضم إليهم هو أيضا ويأخذ دوره بينهم ويعمل ما عملوه. فعمل رباطا يقيد كلا من قدميه بالأخرى، من أكمام قميصه، حتى يجعل مشيته منكسرة أكثر، بعدها رغب فى وضع أكليل الشوك على رأسه، ثم بعد وقت قصير ربط عصابة على عينيه، وفى نهاية كل ذلك، فى المسافة الأخيرة من الطريق ركع على الأرض، وعلى هذا النحو راح يتحرك زاحفا على صابونتى ركبتيه ملقيا بذراعيه المتقاطعتين خلف ظهره، هذا الشىء كان أخى تانيلو سانتوس، هذا الشىء المختفى تماما تحت الأربطة والضمادات وخيوط الدم المتجلطة القاتمة المكشوفة فى الهواء والرائحة النفاذة رائحة الصنان والتى تنبعث منه

عند مروره كما لو كانت تنبعث من حيوان نافق.

وحيث لا نتوقع أن نراه أبدا، وجدنا ناتيلو وسط جماعة الذاكرين وبصعوبة تبينا ما حدث، إذ وقف هناكم بـ «شخشيخة» فى يده بينما كان يخبط الأرض فى عنف بقدميه اللتين تغطيهما كدمات زرقاء، مظهرا حماسته كما لو كان يبذل أقصى جهوده حتى يبقى على قيد الحياة لأطول وقت ممكن.

ربما أنه، أول ما رأى الذاكرين، استعاد أيام ذهابه كل سنة إلى توليمان(*)، واشتراكه فى صلاة التاسوع(**)، للسيد المسيح، ويظل يصلى طوال الليل حتى تؤلمه عظامه، لكن دون أن يتعب، ربما لذلك تذكر وأحب أن يستعيد عافيته القديمة فى سنينه البعيدة.

هذه هى الحالة التى رأيناه عليها ناتاليا وأنا لبرهة، لكن بعدئذ رأيناه يرفع ذراعيه وأخذ يخبط جسده بالأرض، ومازالت «الشخشيخة» ترسل أصواتا متقطعة بين يديه الملطختين بالدم.

انتزعناه جرا، آملين أن نحميه من أن تدوسه أقدام الذاكرين المتوفزة وهى لا تنى تدور فوق الرمل والحصى وتقفز وتسقط لتدك الأرض دون أن تعى أن شخصا ما قد سقط فى وسطها.

وصلنا به للكنيسة وهو منفرج الساقين كما لو كان مشلولا دخلنا وجعلته ناتاليا يركع بجوارها أمام تلك الأيقونة (الصورة)الملونة، والتى كانت هى عذراء تالبا، وبدأ تانيلو يصلى وترك دموعا غزيرة تتساقط، صادرة عن أعمق أعماقه، مطفئة الشمعة التى كانت ناتاليا قد أعطتها له وجعلتها بين يديه، لكنه لم ينتبه لانطفائها بين يديه،

فالنور الذى كان ينبعث ويشيع من هناك، من تحت صورة العذراء، لم يجعله ينتبه للنور الذى خبا بين يديه، واصل صلاته بشمعته المطفأة، وأخذ يصيح صارخا بصلواته كما لو كان يحدوه الأمل فى أن يسمع صوت صلاته.

إلا أن كل هذه الصلوات الصارخة لم تنفعه بشىء، إذ إنه مع كل ذلك قد مات.

إنها أمنا العذراء، أمنا، ومن قلوبنا تصعد ابتهالاتنا قاصدة إليها، مصحوبة بآلامنا، مراثينا تعود بالأمل إلينا، وقلبها الحنون، لا يمكن أن يوصد أبوابه أمام دموعنا، لأنها تشاركنا كل ما نعانيه، ويداها الرحيمتان تعرفان كيف تمسحان عنا خطايانا، لتترك القلب بعد ذلك صافيا يستعيد نقاوته، حتى يكون باستطاعته أن يتقبل رحمتها ومحبتها، أمنا العذراء الرحيمة التى لا تحب أن تفضح أعمالنا التى من عمل الشيطان، وحتى تفتدينا من العقاب. تتحمل خطايانا عنا، ولا تجعلها تفسد علينا حياتنا، إنها دائما إلى جانبنا، لتواسينا وتشفى أرواحنا من الأوجاع، والجسد من أوشابه، الجسد الذى يضعف أمام الشرير فيرتكب الخطيئة، لكنه لا يكف عن طلب الدواء والمغفرة، إنها تعلم أن إيماننا يقوى يوما بعد يوم لأن إيماننا تحميه آلام الفادى والمخلص...»

إلا أن تانيلو لم يسمع فى الحقيقة ما قاله راعى الكنيسة، إذ بقى ساكنا ورأسه الثقيلة منكفئة فوق ركبتيه، وعندما هزته ناتاليا لينهض ،كان بالفعل ميتا.

كان يمكن سماع جلبة الذاكرين خارج الكنيسة، الدفوف والمزمار، وأصوات الأجراس، حينئذ حان وقت الحزن الذى غمرنى والذى رأيت أكثر ما فى الحياة، ممتلئا بالحياة، ورأيت العذراء هناك أمامنا تماما، تمنحنا بسمتها، ورأيت من ناحية أخرى، تانيلو، كما لو كان حاجزا بينى وبينها، وهذا هو ما أحزننى.

لكننا ذهبنا به إلى هناك لكى يموت، وهذا ما لا يمكننى نسيانه.

***

الآن كلانا فى ثنثونتلا، لقد عدنا بدونه، ولم تسألنى أم ناتاليا عن أى شىء، لا ما قد فعلته مع أخى تانيلو، ولا أى شىء آخر، وانهارت ناتاليا باكية فوق كتفيها وحكت لها، بهذه الطريقة، كل ما جرى.

وأنا أبدا فى الإحساس بأننا كما لوكنا لم نذهب إلى أى مكان، مثلما كنانأتى إلى هنا فيما مضى، لنستريح، ثم نواصل السير بعد ذلك، لا أعرف إلى أين، لكن علينا أن نواصل، لأننا هنا قريبون إلى أقصى حد من تأنيب ضميرنا وتذكر تانيلو.

ربما حتى أننا قد بدأنا نخاف كل منا من الآخر، كل تلك الأفعال التى لا تقول أى شىء، منذ خروجنا من تالبا، ربما تريد أن تفضح كل شىء، ربما لم يتركنا نحن الاثنين جسد تانيلو الملازم لنا ممددا، وملفوفا بالحصيرة، تغطيها من الخارج والداخل أسراب الذباب الأزرق فى اضطرابه الهائج بطنينه المنبعث من هناك، وغطيط هادر يتصاعد خارجا من فمه، من ذلك الفم الذى لم يكن بالإمكان قفله بالرغم من محاولاتنا ناتاليا وأنا، والذى بدا كما لو أنه بحاجة ورغبة

فى التنفس ،لكنه لا يجد ما يتنفسه، أما عن تانيلو ذاك الذى لم يعد باستطاعة شىء أن يؤلمه، سوى أنه ما برح يتألم بذراعيه وساقيه التالفتين وعينيه المفتوحتين على اتساعهما كما لو كان يشاهد موته بنفسه، وقروحه المنتشرة هنا وهناك تنز ماء أصفر، وتنبعث منها تلك الرائحة التى تشيع فى كل النواحى، ويمكن الإحساس بها فى الفم، كما لو كان الواحد يتذوق عسلا غليظ القوام، والرائحة النفاذة تمتزج بالدم مع كل شهقة هواء.

ربما سيكون ذلك كما سنظل نذكره دائما، تانيلو ذلك الذى دفناه فى مقابر تالبا ولأجله ظللنا ناتاليا وأنا نهيل الحصى والردم فوقه حتى لا تنبش قبره وتخرجه حيوانات التلال المتوحشة.

الهوامش:

(*) مدينة شرق خاليسكو تقع بين وسط المكسيك وساحل المحيط الباسفيكى.

(*) توليمان: مدينة فى شرق خاليسكو بالمكسيك

(**) صلاة التاسوع: جنازة أو صلاة فى اليوم التاسع بعد الوفاة.

قرية بلا زمن

خيرا ردو ماريا - المكسيك

«تقول أين كنت؟».

«هناك فى الجانب الآخر، وراء الجبال، وكانت تغطى معظم أرض الوادى».

«وحدث ذلك لتلك القرية؟ لابد أنه كان شيئا خارقا للعادة، هذا الذى حدث».

«هناك روايات كثيرة، وأكثر منها الحكايات الشعبية التى جرت من سنوات بعيدة، لكنى أميل أكثر لتصديق ما أخبرنى به جدى منذ عشرات السنين، لأنه كان مسئولا عن جرس البرج».

«استمر ياملتون، ما الذى قاله جدك؟».

«أنا لا أذكر ذلك جيدا، أيضا ما أتذكره قد لا يكون وافيا، لكنى على أية حال سوف أحاول:

كانت قرية ماتوسالين، إذا مانظرت إليها من أية ناحية من النواحى، فإنك ستراها قرية مزدهرة وغنية، قرية فالحة، ولقد أنشئت القرية على أيدى القساوسة الفرنسيسكان، غير أن أول رئيس لبلديتها أدعى لنفسه الحق بأنه أول من وضع حجر أساس القرية.

كان رجلا ممتلئا لدرجة السمنة مع أنه كان قليل الحجم وكان شاربه الضخم أكبر من رأسه وقدميه معا، ووفقا لما دار به وتناقلته الشائعات فلقد كان هذا الرجل دائم الشجار مع قسيس الكنيسة الشاب، غير أن أحدا، فى الحقيقة، لم يعرف أسباب هذا الشجار، إلا أن شيئا واحدا لم يكن موضع شك أحد، بل ومن المؤكد أنه كان قائما بالنسبة للجميع، وأن كل واحد منهم ـ ولكل حسبته التى يرتب عليها أموره ـ كان تواقا ومصرا على الإقامة فى هذه القرية.

أكثر من عزبة كانت تقع حول القرية، تحيط بها وتشكل بمبانيها حدودها، ومع ازدهار ماتوسالين، فلقد تداخلت أراضى العزب مع أراضى ماتوسالين واندمجت فى أملاكها.

لقد بلغ ازدهار هذه القرية حدا يفوق التصور : فالشوارع كانت مرصوفة، ومجارى الصرف تم تركيبها فى كل مكان، وعند حلول الليل بددت لمبات الغاز العتمة، وتشكلت مجموعات من رجال الشرطة لتقوم بعمل دوريات ليلية فى الشوارع الكبيرة التى تكتنفها الأشجار من الجانبين، وتظل تحيط الأهالى الذين يخرجون للنزهة بعين الرعاية وتوفر لهم حاجتهم من الأمان، وأول مكان فى العالم أنتجت فيه سيارات الركوب وسيارات الشحن الهائلة، كما هنا ... والأغنياء

الذين كانوا يملكون المناجم والذين استخدموا رجالا من رعاية الكنيسة للعمل بها، تدافعوا إلى القرية بثرواتهم، وبهذه الثروات أغروا حكماء وعلماء تلك الفترة بأن عليهم أن يأتوا حاملين معهم حكمتهم وعلمهم إلى الوادى، وبالفعل جاء وعاش هنا اينشتين، وماركس، وجوتنبرج، ولافوازيه، ودارون، وكثيرون غيرهم.

وفى أعلى مبنى بالقرية، وكان مبنى شاهقا وجميلا عاش هؤلاء كلهم يعملون ويتعاونون فيما بينهم من خلال جهودهم الدءوبة لاكتشاف سبل تنمية أوجه الحياة بالقرية.

كان القسيس يرتدى دائما سترة قصيرة بيضاء، ويلقى مواعظه على الناس، الذين يذكرون له ذلك دائما، بشكل أخاذ، كان يعلم الناس وينشر وينمى فى نفوسهم وفيما بينهم تعاليمه بشكل يكاد يصل إلى حد المعجزة مستفيدا من وجود أعداد قليلة لم يكن لديهاعمل، فكانوا يقضون أوقاتا لا تنتهى فى التجول فى طرقات القرية وهم ينشرون تعاليمه، وهم أيضا، ولا أحد سواهم، الذين أشاعوا أنه يستطيع أن يحول ماء النهر إلى نبيذ، وبهذه الطريقة أسس أول جمعية لزراعة الكروم بالمنطقة، وكان فى العادة يبيت فى بيوت أصدقائه، وكانت هوايته الأعظم هى إعمال الفكر وإطالة التأمل فى بستان وراء الكنيسة، وهو البستان الذى أطلق عليه الأهالى بستان الزيتون.

غير أن هذا القسيس الشاب لم يكن له اسما شائعا، وكان الوحيد الذى شاركه معظم أعماله، رجل اسمه بيتر، وكان بيتر هذا هو جدى.

وكان بيتر يعيش بأعلى مكان شمال التل، وهناك بنى برجا شاهقا ظل يعلو به حتى استبدت به الرغبة أن يصل حتى السماء، وعندما عجز عن ذلك، فكر وحول قمته إلى برج جرس حتى يعلن به ساعات الوقت.

ومع نهاية كل ساعة كان بيتر يصعد حتى قمة البرج لكى يدق الجرس.

ولأنه ما من أحد يحب أن يستعمل الساعات، فلقد أعطى كل واحد سمعه لدقات جرس البرج، وأكثر من ذلك، فلقد فضلت الصخور، وسنابل القمح، والخطوط التى يشقها المحراث فى الحقول، أن تكف عن حساب الزمن بنفسها وأن تسترشد بصوت دقات الجرس التى تأتى حتى عندها، ولقد حسب بيتر مواقيت اليوم وحسب ساعاته بأن انتبه إلى أنه يستغرق فى صعوده للتل والنزول إلى أسفل، وما كان يفعله ليعلن الوقت هو أن يمضى إلى أسفل ثم يغير اتجاهه ويصعد إلى أعلى ثم يدق الجرس.

إلا أنه أراد أن يكون أكثر نفعا حيث كان خلال رحلات الصعود والهبوط قد أمعن التفكير وتوصل لحلول تخص مشكلات العمل وقدم الحلول للقسيس الشاب ذى السترة البيضاء القصيرة لأن أولئك الذين يعرفونه لم يتخيلوه أبدا فى أية حالة أخرى، منشغلا بأكثر من صعود وهبوط التل.

«إذا فكيف وقع ذلك الذى جعلهم ينقدون كل شىء؟»

«اصبر قليلا فسوف أصل إليه».

للوهلة الأولى مضت الأمور بشكل طيب تماما، وبالأفكار التى توصل إليها الحكماء والعلماء، وبالأعمال المغامرة للقسيس الشاب، وبالحلول التى قدمها بيتر قفزت مستويات الرفاهية فى القرية إلى آفاق أعلى فأعلى، حتى أن رجال الاقتصاد قدموا من أقاصى العالم لزيارتها، ولم يستطيعوا أن يجدوا تفسيرا لأسباب التقدم ولا للثراء، بل أن المستوى الثقافى لأهالى القرية بلغ من الرقى أن الجزمجية تخلصوا من العدد وأدوات الشغل التى تخص مهنتهم وفتحوا معهدا للدراسات العليا بعد التعليم الجامعى لكل فرع من فروع الدراسة، وحتى رجال الفكر والأدب جاءوا ليتعلموا منهم غيرأنه مامن أحد قد عرف بالضبط لماذا وكيف تحققت هذه الطفرة فى التنمية هناك بمثل هذه السرعة، ومع أنه لم تكن قد انقضت سوى عشرين سنة فقط على وصول القساوسة ليعلموا الإنجيل لهنود أمريكا، فإن ما حدث جعل كورتيس نفسه يخلع قبعته احتراما، وأمر جنوده أن يتفادوا الاصطدام بها ويواصلوا زحفهم على الجانب الآخر، حتى لا يطأوا هذه البقعة المقدسة قياسا على ما رأى.

غير أن هذا المشروع، ككل المشاريع الخارقة والتى تتأسس على الجسارة والإقدام، قد بلغ أقصى مدى له، وكان عليه أن يواجه نهايته، وهذا ما تم، إذ اختفت قرية ماتوسالين، وكان وراء هذا الاختفاء السر الذى امتلكته وحدها.

ما حدث، حسبما واصل جدى روايته، أنه فى يوم معين، وقبل أن تحقق القرية هذا المستوى من الثراء، أن القسيس كان يصعد التل

قاصدا أن ينام فى برج الجرس، وفى الطريق إلى البرج قابل بيتر، فدعاه الأخير للعشاء وليقضى ليلته معه، كانت الشمس توشك على الغروب فأسرعا قليلا فى المضى إلى أعلى حتى لا يدركهم الليل فى الطريق، وعندما وصلا إلى برج الجرس ظلا يتبادلان الحديث لساعات وساعات، ونسى بيتر أن يدق الجرس فى مواعيده، ولما انتبه وخرج للخلاء ليتبين فى أى وقت من الليل كانا لحظتها، اكتشف أن ما من وقت قد مر، وأن الشمس والسحب، والنجوم الأولى من الليل وكل شىء ظل على ما هو عليه وأن الناس تحت عند السفح، ظلوا يواصلون أعمالهم كما لو أن شيئا لم يحدث، نقل بيتر ما رآه بالضبط للقسيس الذى أمن على كلامه وأكد له هذا الذى يجرى، وظهر أن لا شىء يخالف ذلك. فالزمن بالفعل ظل متوقفا، واتفقوا معاعلى أن يتريثا قليلا وألا يدقا الجرس، ورأيا فعلا أن الزمن مازال متوقفا ولم يواصل مضيه إلا بعد ما فك بيتر الحبال وسمعت بوضوح مجموعة دقات الأجراس وهى تقرع معا، لحظتها فقط، حدث أن حل الليل، صعق كل منهما ووقف فى ذهول مجتاحا بالدهشة والإعجاب، غير أن أيا منهما لم ينبس بكلمة.

وفى اليوم التالى صعد القسيس إلى أعلى مرة أخرى وقاما بالتجربة معا من جديد، وكانت النتيجة نفسها، عندئذ اقتنعا بفكرة أن يستعجلا الزمن بالاستعجال فى مواقيت دق الجرس. ولقد دقا الجرس فطلع الفجر، بعدها دقا الجرس اثنتى عشرة دقة دفعة واحدة متصلة، وبها جاء الليل، لم يبد على الناس أنهم قد انتبهوا

إلى ما يجرى، دقا بعدها الأجراس حتى جعلوا الدنيا نهارا، ثم جعلوها أول الليل ثم بعد الظهر ثم بعد الصباح حتى صدقا تماما بالقدرة الكلية التى يمتلكها جرس البرج فى مملكة الزمن، ولقد أخبرنى جدى فى وقت متأخر بأن التحكم فى الزمن وتوقيتاته كان ممكنا فقط فى الوادى لأن التلال كانت تصد صوت الجرس، وبالتالى فلم يكن باستطاعة الصوت أن يصل لأبعد من ذلك، وظلا طوال أربعة أشهر وهما يجريان الوظائف التى يمكن أن يقوم بها جرس البرج.

وفى أحد الأيام اكتشفا أن محاصيل العام بكامله يمكن الحصول عليها فى عدة دقائق وذلك عندما فكرا أن يشرعا فى أعمال ذات حجم كبير، وكانت المشكلة الوحيدة أن هؤلاء الناس سيهرمون بنفس السرعة العالية التى يعملون بها، لذلك السبب فلقد اتخذا الخطوات لتجهيز الحبال بالشكل الذى يتفق وسير العمل والذى جعل الجرس يدق لأطول وقت ممكن ولكى يغادرا القرية فيما لو أرادا ألا يصل صوت الجرس إلى أسماعهما، وهكذا تجنبا ألا يهرما، وفى الوقت نفسه واصلا العمل محققين مكاسب هائلة فى أيام أقل.

لم ينتبه السياح إلى أنه مع كل شهر يمر يختلف سكان القرية عن الشهر السابق، وذلك لأنهم تغيروا وشاخوا وماتوا بأسرع جدا مما كان يحدث من قبل، لحساب الزمن الذى بدأ يجرى بطريقة وحشية، تأثروا بعمق بالتقدم الذى طرأ على القرية، ولم يتوقفوا ليتأملوا وجوه الناس، وفيما يبدو فإن رئيس البلدية كان منشغلا بالانتفاع بذلك فقرر أن يشارك فى جنى ثماره، وبينما عارضه

الجميع فيما قرره، آثر هو أن يصفى مشاريعه ببيعها وأن يغادر القرية فى الوقت الذى كان الجرس قد انتهى من دقاته، وبذلك استطاع هو أيضا أن يصل بثرائه إلى ذلك الحد.

«ولكن كيف حدث أنك وعائلتك لم يلحق بكم الفناء الذى لحق بالقرية؟».

«لأن جدى بيتر أمر أبى أن يغادر القرية وأنه سيرسل إلينا النقود من وقت لآخر».

توالت الأخبار التى كنا نتلقاها تباعا حول الاصطلاحات وأوجه التقدم فى ماتوسالين، وأغمضنا عيوننا تماما، ولم ننبس بكلمة حتى لانفشى سر جدى.

السنوات الحقيقية الباقية فى العالم كانت قد نفذت، وجدى بيتر طعن فى السن، ثم مات، وقد ترك لنا ثروته الهائلة، لكننا لم نستطع أن نحصل عليها أبدا، لأنه عندما مات، ماتت القرية أيضا، كثيرون قالوا أن ذلك كان وقت موته نفسه، كل شىء طار فى الهواء مصحوبا بانفجار هائل من قلبه المثقل بمشاعر الندم، وقال أناس آخرون أنه قد حدثت هناك مجزرة بشرية بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب القسيس، وأولئك الذين وقفوا إلى جانب رئيس المجلس البلدى، وغير هؤلاء وأولئك قال آخرون بأن أعباء التقدم الشديدة الوطأة جعلتهم يغوصون فى الأرض، وآخرون قالوا... وقالوا .. وقالوا... لكن لا شىء يبلغ حد اليقين.

ما حدث كان: أن الزمن يتباطأ تدريجيا بالرغم من كل الجهود

التى قام بها القسيس ليجعل الجرس يشتغل ليواصل دقاته ثانية كالمعتاد، لكن ما حدث أن كل واحد قد أدرك شيئا فشيئا أن الحياة صارت بطيئة جدا، وأن المحاصيل تنضج ببطء، وببطء شديد، وأن السيارات التى كانت بالغة الحجم والطاقة فى تلك القرية، والتى قفزت سرعتها فى الزمن السعيد إلى سرعات عالية جدا، حدث بعد المأساة أن: حتى السيارة التى سجل عداد سرعتها ٢٠٠٠ كيلومتر/ الساعة انخفضت سرعتها بدرجة هائلة وصارت بطيئة جدا، وعندماكانت تقع بالصدفة ودون اهتمام بعض الأشياء على الأرض كانت تقع ببطء، وكانوا هم أيضا، مثل كل شىء آخر يقعون ببطء، وبدت قلوب الناس كما لو أنها لم تعد تنبض، ولكن لا، كانت تنبض بالفعل، ولكن ببطء، ببطء شديد، وأولئك الذين كانوا يعيشون فى القرية، بدأوا ينهارون ويقعون صرعى، حتى حدث فى يوم كان جوه صحوا أن انتهى الأمر بالتوقف الكلى للزمن، كل صور الوجود اختفت: الوادى، والكنيسة، وجرس البرج، والحكماء والعلماء، والسيارات والقسيس الشاب بسترته البيضاء القصيرة كل شىء لم يعد موجودا.

«كم هى قصة مثيرة للاهتمام فى الحقيقة!»

«نعم هى كذلك بالفعل، ولكن لعل أغرب ما فيها هو ما حدث لهؤلاء الرجال فيما بعد: هل أحسست أبدا، فجأة، بقشعريرة بلا سبب؟» أو هل قادك حدسك إلى أن شخصا ما، لا تراه، كان يحدق فيك فى ملعب الكرة بالاستاد الخالى تماما؟ أو هل سيطرت عليك

أبدا فكرة أن شخصا ما يسير إلى جوارك فى الشارع، فى حين أنه لا يوجد بالشارع أحد على الإطلاق؟ تلك هى أرواح سكان ماتوسالين، القرية التى بلا زمن، تلك الأرواح التى تهيم هنا وهناك وفى أى مكان من العالم بحثا عن الزمن الذى لم يمتلكوه أبدا فى واديهم!.

قانون هيرودس
أو... كيفية الحصول على منحة أمريكية

خورخى إيبار جنجوتيا - المكسيك

انتشلتنى ساريتا من الوحل لأننى قبل أن التقى بها كنت واحدا من الذين لا يعنيهم مستقبل الإنسانية، ولقد دلتنى على طريق الروح وجعلتنى أدرك أن كل الناس متساوون، وأن الفكر الأجدر بالاهتمام به هو الفكر الذى يتبنى مفاهيم الصراع الطبقى و يؤمن بانتصار الطبقة العاملة، وجعلتنى أقرأ ماركس وانجلر وكارلوس فوينتس(***) ولماذا؟ فقط لتدمرنى فى النهاية بملاحظة حمقاء.

حتى الآن وأنا لا أحب أن أناقش مرة أخرى لماذا وافقت على المنحة الدراسية التى قدمتها لنا مؤسسة كاتز بالولايات المتحدة الأمريكية، وليس من الحقيقة فى شىء، كما أتصور، أن الولايات المتحدة هى البلد الذى يستغل الإنسان فيه الإنسان، أو أن مؤسسة الكاتز تحتال للتهرب من دفع الضرائب عن فائض الربح

لاستثماراتها.

لقد تقدمت لطلب المنحة، وعندما قدمت لى وافقت، والأدهى من ذلك أن ساريتا تقدمت أيضا للحصول على المنحة وقبلت، طيب، ما الذى حدث؟

كل شىء سار على ما يرام حتى الكشف الطبى.

لم أكن لأجرؤ على الذهاب لو أن ذلك لا يتفق مع تحقيق حقوق الإنسان لأننى أحب أن أرى حقوق الإنسان وهى تتحقق أمام أعيننا، وذلك ما جعلنى أواصل مسألة طلب المنحة.

وفيما يخص مؤسسة الكاتز فإنها تقدم المنح للأشخاص الأقوياء كالأحصنة فقط، ولذا، فالكشف الطبى يتم بشكل بالغ الدقة والصرامة.

لكن من الأفضل ألا نتجادل حول هذه النقطة، لأننى اكتشفت الآن أن هذا الكشف الطبى مجرد حيلة ضمن حيل كثيرة معتادة من الـ. اف. بى .آى، لتخترق بأبحاثها أخص خصوصيات حياة الأهالى فى المكسيك، لكن ما علينا، ودعونا نواصل حتى نعرف ما هى القصة.

ولنعد إلى الكشف، وهو موضوعنا، فالذى يقوم به هو الدكتور فيلبرك، يانكى (منتسب إلى الولايات المتحدة الأمريكية) يعيش فى الحى الراقى (طبعا!) فى منزل عبارة عن مبنى مسور بالأسمنت المسلح والحجارة وبذلك تصل تكلفته ... ليست هذه هى قضيتنا حول كم يتكلف، لأن المؤسسة هى التى دفعت التكلفة، والممرضة التى هى

بكل تأكيد خائنة ومعادية للقضية التى نناضل من أجلها بدءا من لهجتها التى يمكن تمييزها بسهولة وحتى مظهرها، كل ذلك فضحها كإمرأة تركت أوروبا الحرة وأتت لتندس بيننا هنا، أخبرتنا بالوقت الذى ينبغى أن نحضر فيه بأنفسنا فى التاسعة من صباح اليوم التالى ومع كلٍ زجاجتان تحتويان على عينتين من البول والبراز.

أوه..أية إهانة، أننى أذكر جيدا تلك الليلة فى بيتنا والتى قضيتها باحثا عن زجاجتين فارغتين تفيان بالغرض، ثم السهر بعد ذلك طوال الليل فى انتظار اللحظة التى تسنح فيها الفرصة! وعندما سنحت أى إمساك مؤلم يا إلهى!(عندما قلت يا «إلهى» فى الكلام الفائت كنت استخدم بالتحديد تعبير ا مجردا لا يتضمن أية صلة بمعتقداتى الشخصية).

ما إن تجمعت لدى أول عينة حتى عدت إلى الفراش ونمت حتى السابعة، الساعة التى ينبغى على فيها أن أحصل على العينة الثانية، وأحب أن أسجل ملاحظة وهى أنه قد حدث أن «بولى» فى الزجاجة بدا فى حالة غير قابلة للتصديق وفقا لما توقعته، سائلا غائما مصفرا، ذلك ما كانه فى الزجاجة المقفولة، لقد أودعته فيها على هيئة قطرات صغيرة تنزلق على جانب الزجاجة المائل.

وضعت الزجاجتين كلتيهما فى كيس ورقى حتى أتأكد أن ما من نظرة فضولية يمكنها أن تخمن ما الذى بداخلهما.

خرجت إلى الشارع فى الصباح الرطب دون أن أجرؤ على التفكير فى ركوب أتوبيس، بينما أضم العينتين إلى صدرى بإحكام.

لم يكن القربان المقدس ما أحمله: بل برازى (الاستعارة التى استخدمتها فى التو واللحظة فلتت منى بسبب ميلى الطبيعى للتفاصح، وبطريقة تتنافى مع معتقداتى التى تعكس إيمانى بإنسان العصر الحديث).

مجددا واصلت سيرى إلى فسقية ديانا، حيث وقفت انتظر ساريتا بعض الوقت الذى لابد أنها كانت تجمع خلاله بصعوبة عينة من العينات الخاصة بها، وصلت حيث كنت فى انتظارها بوجه مقلوب بينما كانت تحمل الربطة التى تضم العينات على صدرها، وتبادلنا النظرات دون أن نتفوه بكلمة، أبدا لم يسبق لنا أن غمرنا الشعور بأن كرامتنا الإنسانية قد ديست بالحذاء للحاجة الماسة للنظام الرأسمالى، ولكن هذا كله لا يساوى شيئا إذا ما قورن بما حدث بعد ذلك، فما أن وصلنا إلى المكان الذى نقصده حتى قادتنا المرأة الخائنة المعادية لنا إلى معمل التحاليل، وهناك بدأت تفك الأربطة من حول زجاجات العينات الخاصة بكل منا ثم وضعتها بجوار بعضها وبعدئذ أدخلت أنا إلى حجرة الطبيب للكشف، أما ساريتا فلقد اتجهت إلى قاعة الانتظار، تأكدت من غرض الدكتور فيلبرك الوحيد لم يكن سوى إهانتى بأى شكل فقبل كل شىء أعتقد هو ـ وأنا لم أعرف لم أعتقد ذلك ـ أننى مهندس زراعى، وكلما أكدت له أننى دارس متخصص فى علم الاجتماع، ازداد إصرارا على التمسك باعتقاده الخاطىء.

ثانيا فلقد انقض على بمجموعة من الأسئلة بدت لى زائدة عن

اللزوم تماما فيما يخص شخصا مثلى قوى البنية، صحيح الجسد والعقل كما يبدو، وإذن فمن الذى يعطيه الحق فى السؤال والاستفسار عما إذا كان عندى مرض السل أو الباراتيفود أو السيلان؟ ثم يأخذ فى تسجيل إجاباتى بكل دقة على النماذج التى أعدتها المؤسسة لهذا الغرض، وأسوأ شىء هو الذى وقع بعد ذلك إذ قام هو والأوراق بيده وأمرنى أن أتبعه، تبعته، سرنا خلال طرقات مظلمة وعلى جانبيها حجرات نوم صغيرة وبكل منها سرير للكشف ومعدات طبية، دخلنا إحدى تلك الحجرات وشد الدكتور الستار علينا، ثم استدار إلى ليأمر بطريقة خشنة: «اخلع هدومك» خلعت هدومى على الرغم من أننى شممت بالغريزة رائحة شىء كريه جدا على وشك الوقوع، أجرى الكشف على رأسى ثم اختبر عظامى، سلط ضوء كشاف على أذنى ودقق النظر بداخلهما، ثم وضع منظارا به عاكس للضوء أمام عينى ولاحظ انكماش واتساع إنسان العين وكان خلال ذلك كله لا يكف أبدا عن تسجيل ملاحظاته عن نتائج الكشوف، بعد ذلك وضع السماعة فى أذنيه وعلى صدرى وأخذ يتسمع نبضات قلبى، ثم جعلنى أقفز فى مكانى مائتى قفزة ثم استمع إلى النبض ثانية وجعلنى أتنفس ببطء مرة وأمسك أنفاسى مرة أخرى، ولم ينقطع عن التسجيل.

ثم أمرنى أن أرقد على السرير، وعندما أطعته ورقدت خبط على بطنى بلا رحمة، باحثا أسفل البطن عن «فتوق»إلا أنه لم يعثر على شىء، وعندئذ قبض على أبرز أعضاء جسدى حساسية وخطورة،

وبهزة عميقة فى يده بسطها كما لو أنها ورق شفاف. وظل يحدق فيها كما لو أنه تحت وطأة شوق شديد لفك طلاسم خريطة الكنز، ثم عاد مرة أخرى لتسجيل ملاحظاته، وفى النهاية اتجه إلى دولابه حيث يحفظ أدواته وحاجياته الطبية فأخرج لفة قطن تناول قطعة منها وبدأ يلفها حول أصبعين من أصابعه بتوجس هائل كنت أراقبه وهو يفعل ذلك قبل أن يقول لى: انكفىء فوق سرير الكشف.

لم أطعه هذه المرة، لم أفعل سوى أن ظللت أرقب هذين الإصبعين الملفوفين بالقطن، وعندئذ بدأ يشرح لى المسألة.

«لابد أن أعمل لك كشفا على المستقيم»

شل الرعب عضلات جسمى كلها، وأرانى الدكتور أوراق التعليمات المرسلة من المؤسسة والتى تؤكد على ضرورة الكشف على المستقيم، ثم التقط من دولاب الأوانى الزجاجية عازلا ذكوريا من المطاط ليساعده فى تحقيق الغرض، ودفع أصبعيه الملفوفين بالقطن داخله.

أدركت أن لحظة اتخاذ القرار بالنسبة لى حلت:

إما أن أتسبب فى ضياع المنحة: أو استسلم.

صعدت سرير الكشف وانكفأت، أمرنى: «ضع الكوعين فى حالة التصاق كامل بسطح السرير، وضعت الكوعين ملتصقين تماما: سددت أذنى، أغمضت عينى، أطبقت فكى بشدة وواصل د. فيلبرك عمله، وألقى بعد ذلك بما غطى ولف به أصبعين فى سلة المهملات وغادر الحجرة وهو يقول:

«إلبس هدومك».

لبست وخرجت وأنا أعانى من الدوار، وفى الممر قابلت ساريتا وهى ترتدى ما يشبه الروب، خمنت أن منظرى لابد يشى بحالتى البالغة السوء وهى تسألنى:

ـ «ماذا جرى لك؟»

ـ لقد أدخل إصبعه داخلى ..بل إصبعين».

ـ «أين؟»

ـ «إلى أين ذهب تفكيرك، هل أنت غبية؟»

كان ذلك غباء منى أن أعترف لها بشىء كهذا، وهو ما جعلنى أسقط فى نظرها عندما التقينا فى نفس اللحظة التى كان سيجرى لها الكشف على المستقيم.

هددت ساريتا الدكتور فيلبرك بأنها تستدعى البوليس إذا حاول الكشف عليها والدكتو فيلبرك الذى يفتقر كعامة البرجوازيين إلى قوة الإدراك والتمسك بالهدف أعفاها من الكشف ومنحها شهادة بأنها اجتازت الكشف الطبى بنجاح.

لقد خرقت ساريتا قاعدة أساسية فى التقاليد المعروفة بين الرفاق عندما انطلقت خارجة على الفور من المكان، وأخذت تشيع وتواصل إشاعتها لكل الناس بأننى خنت القضية التى تناضل من أجلها عندما استسلمت لرأسمالية اليانكى.

الهوامش:

(*) هيرودس: ملك اليهود عند ميلاد السيد المسيح.

(**) قانون هيرودس: منشورة ضمن كتاب مترجم للإنجليزية عام ١٩٧٧.

(***) كارلوس فوينتس: من أكبر الكتاب المعاصرين فى أمريكا اللاتينية، وهو مكسيكى يكتب الرواية والقصة القصيرة والنقد الأدبى من أهم أعماله الروائية «موت أرتيميو كروز» أكثر المناطق شفافية، « أرضنا»، «تغيير الجلد» و«أورا» فضلا عن القصص القصيرة ومسرحيتين وإسهاماته النقدية المهمة فيما يخص أدب القارة.

رقص الطبول

أرتورو أوسلار بييتري - فنزويلا

حالت الخطوات الثقيلة وهى تمضى مبتعدة بينه وبين الاسترخاء وترك نفسه لينزلق ويغوص فى النوم دون أن يهب مفزوعا، خطوات نيوجاسبار قائد الوحدة العسكرية المنحدر من أب زنجى وامرأة هندية حمراء، ذلك الرجل الأقرب لقرد، بتربيعة جسمه الأشبه بزكيبة الكاكاو، وبصندله الأبيض وسترته التى ينفلت زرها العلوى من عروة ياقتها عند أسفل الرقبة، وصدره الذى تقطعه حمالة السيف الحريرية الصفراء، نازلة عليه من الكتف حتى تنتهى إلى الناحية الأخرى من جذعه عند الحزام حيث تتدلى من الحمالة شراشيب ذيل الديك.

سمع ايلاريو صوت الطبول داخل الزنزانة، طاغيا ولا حد لقوة ضرباته، بإيقاع لا يتغير، فترتفع حدته بوضوح عندما يعلو، وينحدر عميقا عندما ينخفض ويمكنك أن تتخيلها فى الظلمة، أقدام الزنوج

التى تتردد أصداء خبطاتها لأرض الساحة المتربة مع إيقاعات الطبول.

وفى ظلمة الليلة عُلقت بعض المصابيح التى ينبعث منها النور والدخان بين فروع أشجار السمانى فبددت عتمة الفروع وانعكست أنوارها مضيئة وجوه الزنوج التى يغطيها العرق.

ذلك هو المكان الذى عثر عليه فيه نيوجاسبار، لقد تسلل نحوهم مقتربا منهم شيئا فشيئا ببطء وحرص ملتصقا بالجدار ثم مختبئا وراء شجرة، متفاديا ألا تسقط على وجهه الأنوار، إلا أن أقدامه المتثاقلة حملته ومضت به رغما عنه ليتقدم منجذبا لإيقاعات الطبول، بينما كانت ضروسه تطحن بينها اللحن الراقص رغما عنه، حتى سحبه اللحن وسطهم، ولحظتها، ودون أن يعرف كيف حدث له ذلك اندفع مندمجا فى الرقص مع الفتاة التى توهجت نظراتها له وعلت ضحكتها وجذبته رائحتها النفاذة للنار التى أخذت تتصاعد بجسديهما فى الظلمة.

«آه يا سوليداد!.. تصورى أننا نرقص معا؟!»

«آه يا ايلاريو... انتبه لمن يقف وراءك!»

إلا أنه فى اللحظة نفسها، أو ربما بعدها بلحظات قليلة كان نيوجاسبار قد وصل إليه، لم يسبق له أن رآه، ليعرف إن كان هو أو لا، إلا أنه عرف خطواته واستطاع أن يحس به وهو يقترب منه لقد أدرك تماما أنه موجود خلفه.

«هذا ماتوقعته بالضبط يا ايلاريو... تماما كما توقعت، كنت واثقا

من أنك ستعود فى النهاية بنفسك، لأنك متأكد أن ليس هناك ما هو أسهل من القبض عليك، وعندما هربت، اندفعت الشرطة العسكرية فى أثرك باحثة عنك، لقد فتحت عليهم باب جهنم بهروبك، إلا أننى أعرف تماما رجالى، هذا ما أنا واثق منه وها أنت تعود بنفسك بكامل إرادتك!

وبحبل قصير أسرعوا بربط يديه من الرسغين خلف ظهره ومضوا به، لم يتوقف قرع طبول الرقص، إذ أن الرياح تهب حاملة معها موجات من أصوات دق الطبول ويتوالى وصولها إليهم.

«إنه ايلاريو»

«ياه، إنه العامل الذى يعمل فى معمل الزبد، والمجند فى الجيش».

«لقد هرب من المعسكر فى كاوكاجوا»

«سيجلدونه بالتأكيد»

تركهم يدفعونه بعيدا عن الناس، دون أن يبدى أية مقاومة لهم.

وفى عتمة الليل ظل الزنوج يتبعونه بنظراتهم، وعند مروره من تحت مصباح من مصابيح الطريق كان بإمكانك أن ترى كيف ضمر واستحال جلده بعد أن فقد لمعانه إلى لون التراب، وظهرت على شفتيه التشققات، أما عيناه فقد صارتا غائرتين ومنطفئتين، وهذا ما لاحظه بنفسه قائد وحدة الشرطة العسكرية المكلف بالقبض عليه.

لقد أصبحت جلدا على عظم يا ايلاريو، ولم يعد فيك من اللحم ما يكفى لعمل إصبع كفتة! كم كان جسمك قويا وبنيانك متينا أيها الفتى الزنجى!»

إلا أنه لم يقل شيئا... وبالكاد بدا كما لو أنه ينظر حوله ويسمع بشكل متقطع ومرتبك أصوات بعض النسوة التى تصل إليه.

«مسكين، كيف ترك نفسه ليقع فى أيديهم بهذا الشكل؟!»

«ما أشد هزاله المسكين، إنه لا يستطيع أن يتحمل الضرب بالكرباج».

كل هذا الذى سمعه لا يدرى إن كان حقا قد سمعه أم أنه تخيله يجرى أثناء جره ومغادرته للساحة التى تتعالى فيها دقات الطبول، دخل إلى الدهليز المظلم لمركز القيادة، وحال الإعياء بينه وبين مقاومة دفعه بشدة فسقط فوق طوب أرضية الزنزانة.

وبمثل قوة وقع دقات الطبول، وتقريبا بنفس الايقاع، كانت تنتفض نبضاته فى الرسغين المخنوقين بالحبل، أحس بالعطش فألصق شفتيه الجافتين بطوب الأرضية الرطب.

كان يعرف أن هذا الذى يحدث له الآن، سوف يحدث، ولقد فكر فيه مرات عديدة لا حد لها، ثم أنه قد تخيله باستمرار أثناء هروبه وهو يكاد يموت جوعا خلال تجواله فى الغابة، وعند نزوله بعد حلول الليل ليشرب من النهر أو ليسرق ما يقتات به من حقول الفلاحين أو بيوتهم هذا كله كان يعرفه، ويعرف أنه سيحدث منذ اليوم الأول لهروبه من المعسكر.

وكان لابد أن يأتى إلى القرية وأن يأتى نيوجاسبار للقبض عليه، وأن يربط يديه خلف ظهره، كما قيدهم الآن، وكما كان قد قيدهم عندما ربطهم نيوجاسبار يوم تجنيده.

«لكى تعرف الطريق الصحيح وتصبح رجلا»

لكن ما يحسه لم يكن سوى رغبات لا تقاوم للنوم، نوم يعوض كل الأرق الذى عاناه طوال تلك الليالى والأيام فى الجبل، أما هنا والآن وفوق طوب الأرضية الرطب، فكل ما سبق قد انتهى وعليه الآن أن يريح جسده المنهك.

ألصق وجهه برطوبة أرضية الزنزانة ولم يحس بثقله.

«أحس جسمى خفيفا».

إلا أنه لم يعد يسمع الطبول الآن، لابد أنها ساعة متأخرة جدا من الليل، غير أنه أحس كما لو أن البيوت ترزح بثقلها فوق الأرض. لم تكن بيوتا عديدة، بل ستة بيوت فقط تطل على الساحة وتحيطها بقطع الأرض المبنية وسطها، ثم هناك أيضا الكنيسة والشارع الرئيسى الطويل، لقد كانت أقرب إلى الحظائر منها إلى البيوت، لكنه أحس بها ترزح بثقلها على الأرض، وكان بمقدوره أن يستعيد إحساسه بالشكل الذى تنزلق به المياه المظلمة فى السكون المخيم على نهر توى هناك، فى القرب من النهر أو بعيدا عنه والريح التى تهب فوق أسطح البيوت، وفوق قمم الأشجار، وفوق سطح الماء، وتسف التراب فوق الأرض، الريح التى تهب أسرع من جريان مياه نهر التوى المتجه إلى البحر.

يبدو أنه ينزلق هو أيضا ويطفو.

لكنه أحس فجأة بأنه يسقط فى هوة سحيقة ففتح عينيه محدقا فى الظلام المطبق.

والآن فإن ما ينقصه وعليه أن يتحمله هو الجلد بكرباج الأمباشى ثيرجيلو، غمغم بذلك من بين أسنانه، وأحس ببرودة شديدة.

أيام تواجده بالمعسكر كان قد حضر ورأى بعينيه تنفيذ عقوبة الجلد فى جندى هارب.

ـ انتباه .. استعد

صاح الضابط فى السَّرية التى كانت قد أحضرت لتقف طابورا فى الوضع انتباه.

كانت هذه ساعة توقيع العقوبة، وقبل الفجر بوقت طويل ،كان الأمباشى ثيرجيلو ومعه مساعده قد أعدوا الكرابيج، أما الجندى الهارب فقد أوقفوه فى مواجهة زملاءه جنود السَّرية.

أنزلوا بنطلونه، كان الجو باردا جدا كما هو الآن، ربطوا يديه بالحبال، وأجلسوه فى وضع القرفصاء وأدخلوا بين ذراعيه المقدين وباطن الفخذين أكثر من بندقية ليكتفوه بذلك تكتيفة محكمة.

بعد ذلك رفسه الأمباشى بحذائه حتى وقع على جنبه، وقبل أن يرفع الكرباج، بدأ بتشغيل الشريط عالى الصوت المسجلة عليه رقصة الديوك الرومية حتى لا يتمكنوا من سماع صرخاته أثناء جلده.

جلدة، جلدتان، ثلاث جلدات، جنود السَّرية تحملوا المشهد مع كل نزول ضربة كرباج، بالرغم من أن صرخات الجندى النازل عليه ضرب الكرابيج لم تكن تسمع لأن خبطات موسيقى الشريط ظلت تعلو بلا توقف، ومع هذا العلو لصوت رقصة الديوك تلك كان يالاريو

الزنجى يدندن:

ـ توا..توا ..توا ...ديك رومى

خمسون جلدة، ستون جلدة.

ـ توا .. توا .. توا توا.. ديك رومى صغير.

وقبل أن يقلبوه على جنبه الآخر، ليواصلوا استكمال الجلدات المحكوم بها، صبوا فوق مؤخرته العارية، دلوا من الماء المذاب فيه الملح ثم رفع الأمباشى ثيرجيلو كرباجه فى الهواء ونزل به، الآن لا يكاد يسمع صوت لأنين الجندى النازل عليه الضرب.

ـ توا.. توا .. توا .. ديك رومى

الآن هو لا يستطيع أبعاد الطنين المدوى لرقصة الديك الرومى عن رأسه.

كان الأمباشى ثيرجيلو يطلق شعر سوالفه التى حافظ عليها طويلة وكانت له سنة ظاهرة مغطاة بطربوش من الذهب، لابد أنه مازال موجودا هناك فى معسكر كاوكاجوا.

صباح الغد لابد أن مجموعة البوليس الحربى ستأتى لتأخذه، وحتما سينقلونه فى قارب بالنهر دون أن يفكوا الكلابشات من يديه، ثم يعودوا للنزول به إلى الشاطىء، ولا مفر من مواجهة الناس التى ستخرج لتراه عند مرورهم به أمام بيوتهم.

ـ هذا هو الجندى الهارب الذى قبضوا عليه.

سيدخلون كاوكاجوا فى وقت متأخر بعد العصر من الشارع الخلفى، وهناك سيمرون من أمام بقالة الجزيرى وبعيدا سيلوح

المعسكر، وفى مدخل البوابة أو فى أول أرض الطابور لابد أن الأمباشى ثيرجيلو سيكون فى انتظاره.

كان عليهم أن يمشوا مسافة طويلة قبل أن يصلوا إلى هنا وعليهم أن يصحبوه حتى ينزلوا به على ضفة النهر، ويتحتم عليه أن يقضى الصباح كله فى القارب، لابد أن يكون هناك وقت ينامه، وفى القارب سيتمدد فى القاع، متابعا بناظريه مرور قمم الأشجار كما لو كانت تتشقلب نصف شقلبة فى السماء، وسيكون الوقت متأخرا بالتأكيد وقد قارب الليل على الحلول عند رسو القارب الذى ستأتى الناس متدافعة نحوه، ومن جديد ستعود التساؤلات :

ـ ولكن كيف قبضوا عليه؟

ـ أين كان هاربا؟

ـ هل البوليس الحربى هو الذى عثر عليه؟

ثم تلك الكلمات التى سيمضون فى ترديدها، وسوف يرددونها تماما مثلما ظل هو يرددها مرات عديدة: الجلد، أنهم سوف يجلدونه، لن ينجو من الجلد، مائة جلدة، آه، أنها عقوبة فظيعة! تنتقص منها جلدة واحدة، عقوبة كاملة لرجل كامل الرجولة .. السِّنة المغطاة بالطربوش الذهبى للأمباشى ثيرجيلو.

ـ توا ... توا .. توا .. ديك رومى.

ذلك ما لا يستطيع أن يزيحه من رأسه منذ هروبه من المعسكر بعد أن شاهد جلد ذلك الجندى الهارب، منذ أن رآه وهم يعودون به فاقدا صوابه ومهانا ومداسا بالأقدام كدمية يهوذا التى يلبسونها

أسمالا ويحرقونها فى القرى فى ذكرى آلام السيد المسيح.

هاهو الآن ممددا فوق أرضية الزنزانة، يشعر بالإعياء الشديد وفاقدا القدرة تماما على تحمل الجلد، بل حتى تحمل نصف الجلدات المحكوم بها، عد الأمباشى واحد، اثنان، ثلاثة، الضربات الأولى تلسعه كالجمر المتقد، وعندها سيبدأ دمه ينزف، وبعد ذلك سيحس كما لو أنهم ينتزعون لحمه الحى قطعة قطعة، ليشتعل الألم داخله، ثلاثون، واحد وثلاثون، ألم بطول أحشائه، بالطحال بالرئتين، ست وستون، سبعة وستون، سيحل الأمل ويتصاعد الأنين، حيث يبقون، وحيث يذهبون وحيث يستولى عليهم الخدر ويروحون فى النوم.

كان طوب الأرضية التى يسند خده عليها قد صار ساخنا الآن، سحب جسده من فوق الأرض قليلا متحسسا بقعة أخرى محتفظة برطوبتها فتمدد منكفئا عليها، ظل كل شىء كما هو غارقا فى الظلام والصمت، حاول أن يتنصت ،لكن حتى الريح لم تعد تعبر الآن، إلا أن كلبا نبح على البعد فى مكان ما، بعيدا جدا عما وراء الزنزانة، والمعسكر، والميدان، كان النباح يأتى من مكان ما خارج القرية، مكان ما ربما قرب النهر أو من الغابة فوق الجبل، من الليل من العزلة.

ـ آه .. عليكم اللعنة!

كان يأتى نباح الكلب من الغابة، من كان باستطاعته أن يمسك به لو عاد إلى هناك الآن، هكذا، وعلى البعد كان يسمع نباح الكلاب عندما كان يرمى ببصره عبر مدخل الغابة فوق الجبل. وعبر المنحدر

المقطوعة شجيراته على إحدى المزارع، الجوع هو ما كان يدفعه للخروج من الغابة بعد حلول الليل، تعلم أن يمشى دون أن تحدث خطواته أى صوت، وأن يتوقف ليرهف السمع كالغزلان فيعطى أذنيه للريح، وفى بعض الأحيان عندما كان يحس بشىء ما، كان يختفى وراء ربوة، ومن مخبئه يرصد ويتابع مرور رجال الشرطة العسكرية وهم يشرعون السناكى، أو يحملون البنادق على أكتافهم، أو يضعون فوق رؤوسهم قبعاتهم المميزة.

وعندما كان كلب ما يشم رائحته ويبدأ فى النباح، كان عليه أن يتوقف ويرتد عائدا دون أن يكمل مشواره للمزرعة، ويضطر لأن يجوس خلال الغابة بحثا عن ثمار الجوافة، أوبعض الجذور الدرنية ليسكت بها جوعه، أحيانا كان الجوع يطول حتى يصيبه بالدوار، وفى أحيان أخرى كان ينجح فى الوصول إلى إحدى المزارع دون أن ينبح عليه كلب، فيخطف من فوق المواقد أو من داخل الأفران ما يمكن أن يتغذى به ويسرع بالهرب.

لم يحدث له أبدا أن ابتعد حتى خارج القرية، فلو جاء من خارج المنطقة لتمكنوا من كشفه، ولذا فقط ظل يتسكع فى الغابة قريبا من مساقط المياه، كان بإمكانه أن يراقب النهر من بعيد، نهر التوى ينساب فى هدوء، أحيانا كان يمر قارب، ورغم البعد كان باستطاعته تمييز وجوه بعض العمال الذين يعرفهم.

ـ آه... عليكم اللعنة!

كان يعطش أحيانا، فيمضى إلى حافة النهر، يرمى بجسده

منكفئا، وفى انكفاءته يزحف على بطنه مادا عنقه ليشرب مباشرة من الماء الجارى تحت فمه وحول ذقنه، وبعد أن يرتوى يظل مستلقيا فيخطر على باله أن يرمى بورقة جافة من أوراق الشجر لكى يتابعها بنظره وهى تتحرك مع التيار، يظل يتتبعها مأخوذا حتى تنتزعه صيحة دجاجة الجاوشاراكا (نوع أمريكى من الدجاج البرى) أو جلبة سرب من الببغاوات العابرة فى الجو.

كان باستطاعته كشف القرية من أماكن عديدة مرتفعة، وأن يرى مثلا: أشجار السمانى المنتشرة فى ساحة القرية، وأن يرى الكنيسة، وقسم الشرطة والشارع الرئيسى وأن يرى الناس وهم يقفون بباب الحانة، لو أنه كان هناك، حيث كانت عيونهم وحيث كان ذلك الرجل الواقف مستندا بظهره على جانب الباب، أى جلبة كانت ستحدث؟

ـ أباه، إن ايلاريو هنا.

ـ إنه الجندى الذى هرب.

ـ امسكوه!

لكنه كان بعيدا، مختبئا بين تلك الأشجار،حيث تزوم الريح.

لم يكن يتراءى له فى الليل سوى اللمبات المضيئة التى كان تومض وتنطفىء على التوالى فى الظلام السائد، وتبدو القرية أشد إيغالا فى البعد، وأكثر ضآلة.

لم يعمل حسابا للأيام التى قضاها مختبئا فى الغابة، فازداد نحولا، وتغير لون بشرته من السواد اللامع إلى الخضرة الكالحة مثل لون ذيل التمساح الأمريكى، وتثاقلت خطواته فصار يزداد تعبه كلما

صعد التل، تنقطع أنفاسه مما يجبره على التوقف لالتقاطها وليستريح قليلا، يتضاعف إحساسه بوعورة الطريق ويلهث فيقعد فى مكانه محدقا فى قدميه وفى يديه، لقد صارت كلتاهما أنحف وجلدهما أكثر جفافا وخشونة، أما راحتيه فقد تحول لونهما بنفسجيا، وأصفر لون أظافره، فى تلك الأيام كان يضطر أن يقعد بلا حول ولا قوة لعدم استطاعته الذهاب بالقرب من المزارع، كان عليه أن يتكوم تحت شجرة تصطك أسنانه كما لو كانت تصطك من البرد الشديد، والآن لم يعد باقيا من بنطلونه عليه سوى مزق، إلا أن البرد يشتد،لو أنه سمع أصواتا صاخبة تقترب فلن يجد لديه أية مقدرة على النهوض، يمكن أن يكون صوت حيوان، أو يمكن أن يكون صوت الشرطة العسكرية: لو أنها الشرطة العسكرية فسيقبضون عليه، لم تعد لديه رغبة لا فى أن يقاومهم ولا أن يهرب منهم، بقى فترة مهموما، يتلفت حواليه بانتباه شديد، لكن الأصوات العالية لم تعد تسمع فتنهد واستعاد هدوءه.

بدلا من أن يذهب بعيدا، فإنه بقدر ما كان يحس بأنه مريض ومنهك، بقدر ما يتجه بالقرب من القرية، لم يكف عن التفكير ولو للحظات:

ـ لو قبضوا على الآن، لن أتحمل عقوبة الجلد، وسألقى حتفى معها.

إلا أن شيئا ما بداخله جعله يحس إحساسا قويا وبطريقة غامضة ورغم عدم وضوحه، إلا أنه لا فكاك منه، أن الخطر يقترب شيئا فشيئا ويوشك أن ينقض عليه.

لمرتين أو ثلاث، كان قد سار بعيدا، محاذيا ضفة النهر، صاعدا باتجاه أول بيوت القرية، حتى تجرأ ودخل أحد بيوت الأعيان وسرق قطعة من اللحم، كانت معلقة ضمن قطع أخرى، لتجف فى الشمس.

يوما ما سيقبضون عليه، هذه إرادة ربنا.

ـ آه... عليكم اللعنة!

إنه لا يعرف كيف ينام، ولا يعرف كيف يظل مستيقظا، يحس بأن أرضية الزنزانة تنفث من تحت جسده سخونة لا تطاق، النبض يعلو فى كل جسده بلا توقف دون أن يهدأ أو يحس بالراحة فوق طوب الأرضية، واجتاحت البرودة وزحف التنميل فى يديه وهما تختنقان بالحبل من خلف ظهره، كم تؤلمه عظامه، بألم يستعذبه فى سخونة الحمى، يغمض جفنيه بقوة لكي ينام فأخذت ومضات شاردة تدور تحت جفونه المطبقة، نقط حمراء خاطفة تتناثر ولا تكف، ونبضاته تعلو وترج جسده بلا توقف.

تن، تن، تنتنتن، تن، تتن، كالطبول، أحيانا يصاعد واضحا كدقة الطبلة العالية، وأحيانا ينخفض عميقا كدقة الطبلة الخفيفة.

تماما كالطبول.

هكذا ظل يسمعه حتى لو كان آتيا من عند النهر، منذ أن اقترب واختبأ فى ظل جدران أولى الدور، فمنذ وقت طويل وهو محروم من سماع الطبول، لم يكن يسمع سوى خشخشة فروع الأشجار، ونباح الكلاب، وزقزقة العصافير، لكن ليست تلك الحمى التى لدقات الطبول. وفى اختبائه كان يقرفص ويخبط الأرض باليدين والقدمين

مع دقات الطبول، تن، تن، تن، تن، تن، كانت كتيار ماء دافىء يندفع دائرا حول جسده.

صار الآن قريبا من الساحة، وسمع الوقع الثقيل للخطوات وهى ترقص، وظل الزنوج يتحرك ككتلة واحدة مصمتة، وتبدو المصابيح المتوهجة وهى تصعد وتهبط بنورها تحت أغصان أشجار السمانى .

أطل على الساحة من خلف الجدار الذى يختبىء وراءه، ثمة موجة من النشوة، كنوبة الحمى هى التى اجتاحته ودفعته إلى أصوات الطبول، كل شىء كان يدوى بالإيقاعات داخل رأسه وخارجها، وصارت رأسه مثل جلد الطبول المشدود يطن بإيقاعات زنجية، اهتز كيانه كله، وصار جسده كله يروح ويجىء مع دقات الطبول، النساء، والأنوار، وأسماء الأشياء ، واسمه الذى ينادونه، وينادونه بلا توقف.

ايلاريو، ينادى، ايلاريو، يكرر النداء، ايلاريو، ينادى صوت الطبول، ايلاريو ينادى الظل، ايلاريو، ايلاريو، لاتيتو، لاريون لاريتو، ايتو، ايتو، ويتردد صدى الإيقاع، وكل شىء صار يهزه بعنف، الصوت يهزه والصدى يهزه، الدوى يهزه فى الظلام، كل شىء يرتج، تن تن، تن تن، ايلاريو يترنح، الظلام يتكاثف، الليل يوغل، صوت الطبول يعلو، صوت الطبول يتواصل فى الظلام، ايلاريو يرتعش، ايلاريو يترنح، نساء كثيرات ترتعش أجسادهن فى الظلام، ايلاريو، ايلاريو، ايلاريون.

كانت الخيالات تمربه وهى تتقافز، الخيالات وأصول الطبول والساحة بأنوارها، وهو صار فى قلبها، والإيقاعات كانت تتردد

وتدق كالنبض فى عظامه وفى عينيه وأفواه لاهثة، وعيون شاردة وغائمة مرت بجانبه.

ثم كانت تلك الفتاة التى أتت منجذبة ومحمولة على موجات إيقاعات الطبول ترقص فى مواجهته، تهتز مع اهتزازاته، مشدودة الوثاق إليه، مضروبة بالإيقاع معه.

- آى!آى! آى!

- ياه يا سوليداد! أنت وأنا نرقص معا!

- ياه يا ايلاريو ! انتبه لأنهم وراءك الآن!

وقد كان هناك وراءه، حيث أحس به آتيا، ودون أن يراه، أحس بخطواته، وخلال ايقاعات الطبول ميز وقعها، وقع خطوة نيوجاسبار، الخطوة الثقيلة، الواثقة، المصمتة، دون أن يدير رأسه كان شاعرا بها.

لحظتها كان يستطيع عد الخطوات، واحدة وانقضت لحظة اثنتان وكان يقترب أكثر، لحظتها لم يكن بإمكانك أن تسمع سوى وقع تلك الخطوة لنيوجاسبار قائد المعسكر.

لحظتها لم يكن بإمكانك سماع صوت الطبول أو رؤية الرقص لم يكن ممكنا سماع شىء سواها، تلك الخطوة.

سمع صرير الباب، وبعينيه المفتوحتين على اتساعهما رأى من فوق طوب الأرضية، رأى الزنزانة ممتلئة برماد الفجر، وفى فتحة الباب التى سدها بجسده، ظهر طويلا وعريضا نيوجاسبار، ومن خلف نيوجاسبار بانت الوجوه، وأغطية رؤوسهم المميزة، والبنادق والسناكى المشرعة لرجال الشرطة العسكرية.

نعيما!

إرناندو تييث - كولومبيا

لم يقل شيئا عندما دخل، كنت أسن أفضل أمواسى بتمريره للوراء وللأمام على السير الجلدى، لما تأكدت إنه هو اجتاحتنى رعدة، ولكنه لم يلحظ ذلك، وآملا فى إخفاء الرعدة التى استولت على واصلت سن الموسى، واختبرت حموته فى لحم طرف إصبع الإبهام بيدى، ثم رفعته عاليا ناحية النور، فى اللحظة نفسها كان هو يخلع الجراب من حزام الطلقات حيث كان تتدلى طبنجته، علق الجراب عاليا على خطاف بالحائط وأوجد لكابه العسكرى مكانا فوقه، بعدئذ خطا نحوى بينما كان يرخى عن وسطه حزامه الخانق، قال: «شفت الحر... كما لو أننا فى جهنم! أحلق لى ذقنى،» وكان قد انحط فى الكرسى، خمنت أن أربعة أيام مرت على ذقنه دون أن تحلق، الأيام الأربعة التى استغرقتها حملته الأخيرة فى تعقب جماعاتنا، بدا وجهه

محمرا بل محترقا من الشمس، أخذت فى تجهيز رغوة الصابون، بعناية، قطعت بعض الشرائح من الصابون وأسقطتها فى الكوب ثم خلطتها بقليل من الماء الدافىء، وبدأت أقلب بالفرشاة فأخذت الرغوة تعلو على الفور، لابد أن للأولاد الآخرين فى الفرقة نفس هذ الذقن الهائلة أيضا، ظللت أواصل تقليبى لرغوة الصابون.

«لكن أتعرف.. ما عملناه كان تمام... أنت عارف... لقد قبضنا على أهم من فيهم، وخلفنا وراءنا عددا من القتلى، وسنقبض على القلة الباقية ممن لا يزالون أحياء، غير أنهم، وقريبا جدا، سيلقون مصرعهم جميعا.

سألته: «قبضتم على كم رجل منهم»؟

قال: «أربعة عشر ،كان علينا أن نتعقبهم فتوغلنا أبعد فأبعد داخل الغابات حتى وجدناهم وسنقبض عليهم تباعا، ولا واحدا سيفلت منا على قيد الحياة، ولا واحد» ورجع برأسه للوراء على مسند ظهر الكرسى عندما رآنى اتجه إليه، وأنا أحمل بيدى الفرشاة مغطاة برغوة الصابون.

وقفت مصعوقا لأنه قد فاتنى أن أضع له الفوطة أولا، لاشك أننى بتصرفى المضطرب هذا قد فضحت نفسى وتداركت نفسى وسحبت الفوطة من الدرج وعقدتها حول رقبة زبونى، لم يتوقف هو عن الكلام، ربما وقع فى ظنه أننى أؤيد حزبه الحاكم، قال:

« ما قمنا به خلال بضعة أيام لابد أن البلدة قد استوعبت الدرس منه» أجبته: «تمام»، بينما أحكم عقدة الفوطة عند أسفل عنقه

المحروق العرقان.

«كان ذلك مشهدا عظيما.. هه؟!»

«جدا » أجبته وأنا أستدير خلفى لآتى بالفرشاة، أغمض الرجل عينيه مما أوحى لى بأنه متعب، وانتظر فى جلسته رغوة الصابون التى ستلطف برودتها حرارة وجهه.

لم أتح له أن يقترب منى أكثر، ويوم أن أصدر الأمر للبلدة كلها أن تصطف لتتجه فى طابور طويل إلى حوش المدرسة كى تتفرج على مشهد شنق المعارضين الأربعة، تصادف يومها أن التقيت به للحظة وجها لوجه، إلا أن مشهد الجثث المشوهة حال بينى وبين أن أهتم بمتابعة وجه الرجل الذى أشرف بنفسه على تنفيذ ذلك كله، الوجه الذى أوشك الآن أن أطبق عليه بيدى، لم يكن وجها بغيضا، من المؤكد هذا، حتى اللحية التى نمت وجعلته يبدو أكبر قليلا لم تكن متنافرة مع شكله إلى حد كبير، كان اسمه توريز، كابتن توريز، رجل داهية، فمن ذا الذى يشنق المعارضين عراة، ثم بعد ذلك يمعن التفكير فى كيفية تثبيتهم بشكل ما، ليجعلهم هدفا لتدريب فرقته على التصويب إلى مواضع معينة من أجسادهم ؟لما بدأت فى وضع أول وجه من رغوة الصابون أغطى بها ذقنه، واصل كلامه بينما كانت عيناه مغمضتين

«بدون أى جهد، كنت أقدر أروح طوالى فى النوم، لكن ورائى الكثير لأعمله بعد الظهر».

أوقفت ترغية ذقنه بالصابون وسألت مبديا عدم الاهتمام «فرقة

الإعدام رميا بالرصاص» رد : «شىء أشبه بذلك يا بطىء الفهم».
مضيت فى تصبين ذقنه إلا أن يدى أخذتا فى الارتعاش ثانية، لم يكن باستطاعته أن ينتبه لذلك، وكان ذلك فى صالحى، غير أننى كنت أفضل لو لم يأت، فمن المحتمل أن يكون أكثر من واحد من جماعتنا قد رآه وهو يدخل هنا، لأن العدو حين يصبح تحت سقفك، يضعك فى الشروط التى حددها هو، وسأكون ملزما بحلاقة تلك الذقن كذقن أى شخص آخر، بعناية ولطف، كما أقوم بذلك مع أى زبون، باذلا كل جهدى حتى أتأكد من أنه ولا واحدة من مسام جلده قد انبعث منها نقطة دم، وحريصا أكثر ألا تربك خصلات الشعر الصغيرة حركة الموسى، وأن أجد بشرته فى النهاية وقد صارت نظيفة، ناعمة، مفعمة بالحيوية ولذلك فإننى حين أمرر ظهر راحتى فوق بشرة وجهه يجب ألا أحس بوجود أى شعر، نعم، إننى فى السر ثورى، لكنى أيضا حلاق، وما يميزنى هو ضميرى الحى، وأننى ممن يفتخرون بأداء الصنعة على الوجه الأكمل، وهذه الأيام الأربعة التى طالت فيها هذه الذقن هى تحد لى، وهو تحد أنا أهل له.

أمسكت بالموسى، وفتحت لأعلى حافظته التى يكونها ذراعاه. كشفت النصل وبدأت أحلق له، ومن أعلى سوالفه نزلت بالموسى وطاوعنى بشكل رائع، كانت ذقنه خشنة وجافة، لم تكن بالغة الطول، لكنها كثيفة، وشيئا فشيئا بانت بشرته، والموسى حلق وهو يمضى قدما محدثا صوته المعتاد بينما كانت رغوة الصابون المنتفشة مختلطة بالزغب والشعر المحلوق وقد تجمع على نصل الموسى ،

توقفت للحظة حتى أنظفها، ثم تناولت المسن الجلدى مرة ثانية لأعيد لحد الموسى حموته، لأننى حلاق، وحلاق يعطى لكل شىء حقه، ويؤدى صنعته كما ينبغى... والرجل الذى كان قد أبقى عينيه من قبل مغمضتين: هاهو الآن يفتحهما، حرك إحدى يديه من تحت الفوطة وتحسس بوجهه البقعة التى بانت بعد إزالة رغوة الحلاقة من عليها وهو يقول: «تعال للمدرسة اليوم فى الساعة السادسة».

سألته وأنا يكاد يشلنى الرعب: «أهو نفس ماحدث منذ بضعة أيام»؟ أجاب: «من المحتمل أن يكون أخطر»

« ما الذى تنوى أن تفعله؟»

«حتى الآن لا أعرف، لكننا سنسلى أنفسنا».

ومرة أخرى تمدد إلى الخلف وأغمض عينيه

اقتربت منه وأنا أحتفظ بالموسى متوازنا بين أصابعى وبخوف خاطرت بالسؤال:

ـ وهل تنوى أن توقع بهم كلهم العقاب؟»

«كلهم»

كان الصابون قد أخذ يجف على وجهه، وكان على أن أسرع. أثناءها لمحت فى المرآة الشارع ممتدا، وكان كل شىء فيه كما هو دائما، ومحل البقالة كان مشغولا باثنين أو ثلاثة من زبائنه وعندما ألقيت نظرة خاطفة على الساعة وجدتها الثانية والثلث بعد الظهر.

أخذ الموسى يواصل نزوله الحانى من فوق السوالف الأخرى، الآن يبدأ فى النزول ليزيل الذقن الكثيفة المائلة إلى الزرقة، ماذا لو

أنه أطلقها مثلما يفعل بعض الشعراء أو القسس، إنها ستناسبه تماما، وكثير من الناس لن يتمكنوا بسببها من التعرف عليه، وذلك لصالحه أكثر، هكذا كنت أفكر بينما كنت بحرص شديد أحلق البشرة الرقيقة عند العنق، عندها كان لابد أن أتأكد من أن الموسى ممسوك ببراعة خلال الشعر الذى برغم كونه أنعم إلا أنه ينمو فى شكل دوامات، إنها ذقن كثة، ومن الممكن أن ينجرح واحد من المسام البالغة الصغر وتنفجر وتتصاعد لآلىء من دمائه، ولكن حلاق إسطى مثلى من حقه أن يزهو بنفسه لأنه لا يسمح أبدا لشىء كهذا أن يقع لزبونه، وهو ليس أى زبون، هو زبون درجة أولى، ترى كم عدد الذين أمر بإطلاق الرصاص عليهم منا؟ وكم عدد الذين أمر بالتمثيل بجثثهم منا؟ إلا أنه من الأفضل عدم التفكير فى ذلك، فتوريز لا يعلم أننى عدوه، لا يعلم ذلك الأمر ولا البقية، أنه سر لا يتعدى حلقة ضيقة جدا من الدرجة أننى أستطيع أن أميز الثوريين عن غيرهم مما يقوم بعمله توريز فى البلدة، ومما كان يخطط له كل مرة، حينما يأخذ على عاتقه القيام بنزهات اصطياد المعارضين، وهكذا وصلت الأمور إلى الحد الذى يصعب عنده شرحها، ودليلى على ذلك أننى أطبق عليه الآن بين يدى الاثنتين ثم ها أنا أدعه فى سلام ليس فقط حيا، بل وحليق الذقن أيضا! وهاهى ذقنه قد صارت الآن حليقة تماما، وهاهو يبدو أكثر شبابا، متخففا بسنين من الهموم، عما كان عندما جاء، وأنا أعتقد أن هذا هو ما يحدث دائما للرجال عندما يقومون بزيارة لصالونات الحلاقة، فتحت الوقع بالغ اللطف لموسى

استعاد توريز شبابه، استعاد شبابه لأننى حلاق أسطى، بل وأحسن حلاق فى البلدة، إذا كان ولابد أن أقول ذلك، وهذه رغوة أكثر قليلا أضعها هنا تحت ذقنه على تفاحة آدم زبونى، على هذا الوريد الغليظ، لأى حد سيصل هذا الحر؟ أليس من المفروض أن يعرق توريز عرقا غزيرا كهذا الذى يغطينى ؟ لكن لا يبدو عليه أنه عرقان، واضح أنه لا يخاف، أى رباطة جأش يتمتع بها هذا الرجل، هذا الذى لا يكلف نفسه حتى عناء التفكير فيما سوف يفعله مع المعتقلين بعد ظهر اليوم، فى الوقت الذى أقف فيه أنا فى الجانب الآخر ممسكا بهذا الموسى وأمر به وأعيده بنعومة على جلد وجهه هذا محاولا الحرص على هذا الدم كى لا يطفر من هذه المسام، غير أننى لم تعد لى أية قدرة على التفكير بذهن صاف، عليه اللعنة، عليه اللعنة لأنه جاء إلى، لأننى ثائر ولست قاتلا، وأسهل شىء يمكننى فعله الآن هو أن أذبحه، وهو بالفعل يستحق هذا، ألا يستحق الذبح؟ لا، يا للشيطان! ما من إنسان له الحق فى قتل إنسان آخر، وإلا فإنه يقدم للضحية المبرر كى تنقلب جلادا، ثم ما الذى سيعود عليك من هذا كله؟ لا شىء ، آخرون ينجحون فى هزيمة آخرين، وكما يفعل الأولون يفعل الآخرون ثم يأتى عليهم الدور وتمضى الأمور على هذا النحو حتى ينتهى كل ذلك إلى بحار من الدماء.

باستطاعتى قطع هذا الزور هكذا، يندفع الدم بسرعة هكذا ثب! ثب! لن أترك له وقتا للمعاقرة، ومنذ أبقى عينيه مغمضتين، لن يتمكن أبدا من أن يرى كيف يلمع نصل الموسى أو كيف تلمع عيناى، لكننى

أرتجف كما لو كنت ذبحته بالفعل، الدم يندفع من عنقه منصبا بغزارة على الفوطة، وعلى الكرسى، وعلى يدى وعلى الأرضية، وعلى أن أغلق الباب، ولكن الدم سيظل محتفظا باندفاعه البطىء بطول الأرضية، حارا لا يمكن وقف زحفه أو السيطرة عليه حتى يصل الشارع فيواصل الزحف كقناة صغيرة ثانية من الدم، أنا واثق من أن سحبة موسى واحدة عفية، أو قطعا واحدا غائرا، سيحول دون أى ألم ولن يعانى، ولكن الجثة كيف سأتصرف فيها؟ يجب أن أخفيها. .ولكن أين؟ ولزاما على أن أختفى أنا نفسى تاركا ورائى كل ما أملك، وأن أجد لى ملجأ بعيدا، بل أبعد مما أتخيل، غير أنهم سيتعقبوننى حتى يعثروا على.

«قاتل كابتن توريز، لقد شق زوره بينما كان يحلق له ـ الجبان !» وفى الوقت نفسه هذا ما سيدور على الجانب الآخر، المنتقم الآخذ بثأرنا جميعا، اسم لن ينسى أبدا (وهنا سيذكرون اسمى) أنه حلاق البلدة، ومع ذلك فلم ينجح أحد فى كشف سر أنه كان يناضل فى سبيل قضيتنا»

من سأكون من هذا كله؟ القاتل أم البطل؟ أن مصيرى يرف على حد هذا الموسى، وباستطاعتى أن ألف يدى أكثر قليلا وأن أضغط قليلا وبشدة على الموسى وأجعله ينفذ غائرا فيه، سيخلى الجلد له السبيل كالحرير أو المطاط أو السير الجلدى، لاشىء أكثر رقة من بشرة جلد الانسان، فالدم دائما حاضر هناك، متوثب كيينبجس بقوة، ونصل موسى كهذا لن يعجز عن فعل ذلك، أنه أحسن موسى

لدى ولكنى لا أريد أن أكون قاتلا، لا يا سيدى، أنت جئت لتحلق، وأنا حلاق، وأحب أن أقوم بعملى على أكمل وجه، وبأمانة، أنا لا أحب أن ألطح يدى بالدماء، ليس بهما سوى الرغوة التى أحسن تحضيرها، هذا كل ما بيدى، أنت تنفذ الأحكام، أما أنا فمجرد حلاق، وفى هذه الحياة كل ميسر لما خلق له.. لما خلق له.

والآن أتممت له حلاقة ذقنه وأصبحت نظيفة وناعمة، جلس الرجل منتصبا، ثم نظر فى المرآة، ربت على وجهه براحتيه وأحس بالانتعاش والعافية كما لو أنه استعادهما من جديد.

قال: «شكرا جزيلا» ثم ذهب إلى الحمالة ليأخذ حزامه ومسدسه والكاب، لابد أننى أبدو بالغ الشحوب لأننى أحس ببلل قميصى على كما لو أنه منقوع فى عرقى، أنهى توريز إحكامه لأبزيم الحزام، سوّى وضع مسدسه فى الجراب، وبعد أن مسد شعره لأسفل بشكل آلى وضع الكاب على رأسه، أخرج من جيب بنطلونه قطعا عديدة من العملة المعدنية ليدفعها لى مقابل ما قمت به ثم اتجه رأسا إلى الباب، لكنه توقف عند المدخل لبرهة ثم استدار نحوى قائلا: «لقد أخبرونى أنك ستقتلنى، ولقد جئت لاكتشف ذلك بنفسى، لكن القتل ليس عملا سهلا، ويمكنك أن تعتبر هذه هى كلمتى فى هذا الموضوع» ثم انطلق ليواجه حظه العاثر على أرض الشارع.

مستر تايلور

أوجستو مونتيروسو - جواتيمالا

لا تستغرب، مع أنه، وبلاشك أكبر مثل يؤكد ما حدث. وأضاف الآخر: الكلام عن حكاية مستر بيرسى تايلور صائد الرءوس فى غابات الأمازون.

كان معروفا أنه غادر بوسطون، ماساشوسيتس عام ١٩٣٧ حيث عاش محافظا على طهارة يده وروحه حتى انتهى به الحال إلى ألا يجد فى جيبه «سنتافو».

فى عام ١٩٤٤ ظهر للمرة الأولى فى أمريكا الجنوبية، فى إقليم غابات الأمازون ليعيش بين أبأس البشر وأكثرهم مهانة فى إحدى القبائل الهندية التى لن تتعب كثيرا فى أن تعرف اسمها.

ظهر هناك بالهالات السوداء المحيطة بعينيه، ومظهره الذى يشى عامة بجوعه، وعرف بسرعة باعتباره «الجرنجو الفقير» حتى أن

الأطفال من تلامذة المدارس كانوا يشيرون عليه بينما يقذفونه بالحجارة عند مروره أمامهم بلحيته التى تلتمع شعيراتها تحت شمس خط الاستواء الذهبية، لكن فقر مستر تايلور لم يكن يضايقه، لأنه سبق له أن قرأ فى المجلد الأول من الأعمال الكاملة لوليم ج. نايت «ليس من العار أن تكون فقيرا، طالما أنك لا تحقد على الأغنياء» وخلال بضعة شهور تعود الأهالى عليه بملابسه الغريبة وعينيه الزرقاوين بالإضافة إلى لهجته الغامضة الغريبة، بل أن الرئيس ووزير الخارجية، على وجه الخصوص، عاملاه باحترام، خوفا من أن يتسبب فى خلق أية مشكلات بينهم وبين دولته،

كم كان بالغ الفقر، حتى أنه فى يوم من الأيام جاس خلال الغابة بحثا عن أية خضروات شيطانية ليأكلها فيسكت بها جوعه ولم يكن فى الحقيقة قد تجاوز فى تسلسله بضعة أمتار دون أن يدير وجهه يمنة أو يسرة عندما رأى بمحض المصادفة عبر كثافة الدغل عينى واحد من أهالى المنطقة، كانتا ترقبانه بالقطع، اجتاحت قشعريرة ثلجية ظهره بطوله فسكنت عموده الفقرى، لكن مستر تايلور المغامر واجه الخطر بشجاعة وواصل طريقه وهو يصفر بفمه كما لو أنه لم ير شيئا.

وبقفزة (تلك التى لا يمكن تسميتها إلا بقفزة فهد) انتصب ساكن الغابة فى مواجهته وصاح بالإنجليزية :Buy head? money, money (تشترى رأس؟ فلوس، فلوس) وعلى الرغم من أن إنجليزيته لم تكن سيئة إلى حد كبير، إلا أنه توصل إلى أن الرجل

يعرض عليه بشكل واضح أن يبيعه رأس إنسان، ولم يكن هناك مجال لعدم التصديق إذ كان يحملها بين يديه.

لم تكن ثمة حاجة للقول بأن مستر تايلور لم يكن فى حالة مادية تمكنه من شرائها، بل ظهر وكما لو أنه لم يفهم الكلام، ارتبك الهندى إلى حد ما وانزعج لأنه لم ينطق الإنجليزية بشكل سليم، فقدم له الرأس كهدية، ملتمسا عفوه.

كم كانت عظيمة تلك الفرحة التى عاد بها مستر تايلور إلى كوخه تلك الليلة، استلقى فوق حصيرة مفككة من خوص النخيل يتخذها فرشة لنومه، واضطجع فى استرخاء وسعادة لم يقطعها عليه سوى طنين الذباب الهائج الذى يطير دائرا حوله فى مطاردات لا تنتهى كى يقفز فوق بعضه ليتناكح فى بذاءة، ارتد للرأس بعدها ليتأمل خلال فترة طويلة مكسبه العجيب، لقد حقق مستر تايلور أكبر متعة جمالية وهو يشمل بناظريه شيئا فشيئا شعر اللحية والشارب وأن يرى ويتأكد أن فى مواجهته الآن عينين تكشفان عن موقف بالغ المفارقة وباعث على السخرية، إذ بدتا كما لو كانتا تبتسمان له، وتشكرانه على كرمه واحتفائه بهما!

وكإنسان له ثقافته الواسعة، اعتاد مسترتايلور أن تنتابه نوبات من التأمل يترك نفسه حتى يغرق فيها، إلا أنه هذه المرة، وعلى الفور انتفض ضجرا من تأملاته الفلسفية وقرر أن يهدى الرأس لواحد من أخواله وهو مستر رولستون الذى يقيم فى نيويورك والذى كشف منذ نعومة أظافره عن هوس بكل ما يتعلق بفنون وإبداعات شعوب

أمريكا اللاتينية.

بعد وصول الرأس بأيام قليلة رد خال مسترتايلور، ولم ينس أن يبدأ بالسؤال عن أحواله الصحية، طالبا أن يتكرم، وكم سيكون شاكرا له، ويبعث بخمسة رءوس أخرى، استجاب مسترتايلو بكل سرور للرغبة الفجائية غير المفهومة لمستر رولستون، ودون أن يكون واثقا من الطريقة التى سيحقق بها ذلك، كتب له مع الطرد المرسل بالبريد وبه الرءوس «يسرنى جدا تلبية طلباتكم» وممتنا جدا لصنيعه طلب مستر رولستون عشرة رؤوس أخرى، وبالغ مستر تايلور فى استجابته وكتب معها، «السعادة كلها فى أن أكون قادرا على خدمتكم » ولم يمض سوى شهر واحد وإذا بخاله يرسل طالبا عشرين رأسا! صحيح أن مستر تايلور كما يبدو من هيئته، رجل له مظهر خشن ولحية مطلقة بلا عناية، إلا أنه، وبحسه الفنى الخالص تملكه هاجس بأن أخ والدته عمل من اهتمامه بتلك الرءوس مهنة له، ولابد أنه بدأ يتاجر فيها.

حسنا، إذاكان هذا ما تودون معرفته فهذا ما كان بالضبط، وبكل صراحة فإن مستر رولستون قد عرض اتفاقا تجاريا فى خطاب حافل بالإلهام صيغت أغراضه بثقة وتصميم هزت أوتار النفس الرقيقة لمسترتايلور بشكل لم يسبق لها أن رأته.

وعلى الفور كونوا الشركة التى ألتزم فيها مستر تايلور مخاطرا بحياته، بجمع وإرسال الرءوس البشرية الناقصة فى مجال الأعمال على نطاق واسع، أما مستر رولستون فالتزم بدوره ببيعها بأعلى

سعر يمكنه الحصول عليه فى بلده.

شهدت الأيام الأولى أحداث بعض أشكال المعارضة المزعجة من بعض الأهالى فى تلك النواحى، إلا أن مستر تايلور الذى يحوز على التقديرات فى بوسطون عن رسالته حول «جوزيف هنرى سليمان» أظهر قدرته كسياسى وحصل من السلطات، ليس فقط على إذن التصدير اللازم للرءوس البشرية، بل أكثر من ذلك حصل على امتياز به، له وحده،و لمدة تسعة وتسعين عاما، ولقد بذل مجهودا مضنية كى يقنع قيادة الجيش وأعضاء المجلس الشتريعى سحرة القوانين بأن هذا العمل خطوة على طريق العمل الوطنى، ولسوف يجلب الرخاء فى وقت قصير للمواطنين كافة، وعلى الفور وبأسرع مما يتصور أى إنسان سيكون بمقدور كل الناس أن يرووا عطشهم بالمشروب الموعود (وسيكون ذلك فى كل مرة يتوقفون فيها للراحة ولجرد الرءوس التى حصدوها) ذلك المشروب المنعش المثلج إلى درجة عالية من البرودة، بتركيبته السحرية، ولسوف يتولى بنفسه مسئولية توفيره وتزويدهم به.

وعندما تفهم أعضاء المجلس بعد جهد فكرى مستنير، ولو أن ذلك لم يستغرق سوى فترة قصيرة، واضعين فى اعتبارهم الفوائد المالية الجمة التى ستتوفر لهم، أحسوا بحرارة حبهم لوطنهم، ولم تمر ثلاثة أيام إلا وكانوا قد أصدروا بيانا يلزم الشعب بالإسراع فى زيادة الانتاج من الرءوس البشرية الناقصة.

وفى الشهور القليلة الأخيرة حققت الرءوس البشرية المصدرة إلى

بلد مسترتايلور رواجا وشعبية واسعة، تلك التى نذكرها جميعا، فى البداية كان اقتناء رأس مقطوع امتيازا للأسر الأكثر ثراء، ولكن الديمقراطية هى الديمقراطية، وما من أحد يستطيع أن يكذب ذلك، ولهذا فالمسألة لم تتعد أسابيع إلا وكان الجميع قد شرع فى اقتنائها حتى مديرى المدارس أنفسهم.

إن كل بيت خلا من رأس تليق به، اعتبر بيتا خائبا ومفتقرا للوجاهة الاجتماعية، وما أسرع ماتكاثر هواة جمع الرؤوس، ومعهم ظهرت وتفاقمت الآثارالعكسية، مضار تملكك لسبعة عشر رأسا ينتهى بك إلى أن يكون ذلك علامة من علامات انحدار الذوق، وعلى العكس فإنه يرفع من شأنك ويحقق لك الوجاهة الاجتماعية امتلاك أحد عشر فقط بدلا منها، لقد حولوها بإغراق السوق بها إلى شىء سوقى، حتى إن الرءوس الأنيقة لم تعد تثير اهتمام أحد، وصار الاستثناء الذى يحب الناس أن يقتنوا شيئا منه، هو الرأس الذى يملك ما يميزه لينقذه من الابتذال السائدو كأن يكون كما حدث. رأسا نادرا جدا، بشارب ألمانى، يرجع، فى حياته، إلى كونه جنرالا كفئا حاصلا على وسام، أهدى هذا الرأس إلى مؤسسة تساهم فى توسيع دائرة انتشار هذه المنجزات الثقافية كاهتمام ضرورى بحضارة شعوب أمريكا اللاتينية.

وفى نفس الوقت حققت القبيلة الهندية تقدما مذهلا، حتى أنها أعدت متنزها حول القصر الذى يحله مجلس التشريع، وفى هذا المنتزه البهيج صار أعضاء المجلس يقضون أجازات أيام الأحد

والاحتفال بيوم الاستقلال، يتنادون بأصوات صاخبة، ويتزينون ويتباهون بأفخر الثياب، ويقهقهون على راحتهم وهم ينطلقون راكبين الدراجات التى سبق أن أهدتها لهم الشركة.

ولكن بدأ الجانب الأكثر مرحا وطرافة من المولد المنصوب.

إذ أن الموتى ميتة طبيعية باتوا أقل مما تتطلبه حاجات السوق، ولقد تأسف جدا وزير الصحة العامة لمايجرى، وفى ليلة مظلمة، ومع النور المطفأ، وبعد أن داعب لبرهة نهدى زوجته وكما لو أنه يواصل مداعباتهما، أفضى باعترافه لزوجته، وهو يعتبر نفسه مقصرا جدا لعجزة عن رفع نسبة الوفيات إلى الدرجة التى تشيع الفرح بالنجاح الذى يجب أن تحققه الشركة وتعليقا على كلامه، أجابته زوجته بأن عليه ألا يشغل باله، وأنها فكرت فعلا فى طريقة ستجعل كل شىء يتم فى أحسن حال، وأن الأحسن لهما أن يناما.

ولتعويض الخسارة التى ترتبت على عجز الحكومة من اللجوء إلى وسائل تحقق إنتاج رءوس بأرقام قياسية كان لابد من أن تضع أشكالا لعقوبة الإعدام تتسم بالقسوة والصرامة.

تشاور فقهاء القانون فيما بينهم، وبعد المداولات لفتوا الأنظار بقانون العقوبات الذى وضعوه لأنواع الجرائم، والذى تراوح بين الاعدام شنقا أو رميا بالرصاص، لكل أنواع الجرائم من أكبرها حتى أقل الأخطاء شأنا، إذ حتى الأخطاء البسيطة لابد من تجريمها، فمثلا، لوجرى فى حديث عادى أن شخصا ما ولمجرد السهو قال «الدنيا حر جدا!» وبعد ذلك مباشرة، أمكن بواسطة ترمومتر فى يد

شخص ما التأكد من أن درجة الحرارة لم تكن فى الواقع عالية إلى هذه الدرجة، فعلى هذا الشخص أن توقع عليه غرامة بسيطة، وأن يحملوه فى الوقت نفسه إلى ساحة الإعدام رميا بالرصاص، وفى هذه الحالة يكون من حق الشركة أن تأخذ الرأس، أما الجذع وبقية الأطراف فيأخذهما المشيعون الذين يبكونه.

أما مجموعة القوانين التى صدرت بخصوص عقوبات المرضى فلقد أحدثت دويا هائلا، وكانت مثارا لتعليقات وتفسيرات العديد من رجال السلك الدبلوماسى،وسفارات الدول الصديقة.

وطبقا لتلك القوانين التى لا تنسى ، فالمرضى المصابون بأمراض خطيرة يمنحون أربعا وعشرين ساعة حتى يمكنهم أن يرتبوا أوراقهم الخاصة بهم ثم بعد ذلك يموتون، لكن لو كانوا من المحظوظين فى هذه الفترة ليتمكنوا من نقل العدوى لأسرهم: فإنهم يعطون أكثر من مهلة وقد تصل إلى شهر وبهذه الكيفية يكون ذووهم قد حملوا العدوى، أما الضحايا ذووالأمراض الخفيفة والوعكات الصحية البسيطة فإنهم يستحقون احتقار الوطن لهم، وفى الشارع يستطيع أى واحد كائنا من كان أن يبصق فى وجههم، وللمرة الأولى فى التاريخ تأكدت أهمية الأطباء (العديد منهم رشحوا لجائزة نوبل) لأنه مامن مرض شفى بأيديهم، أما الموت فلقد تحول إلى أعظم مجد يجسد وطنية الميت، ليس فقط داخل الوطن، لكن متجاوزا ذلك للعالم الأوسع والأعظم مدعاة للزهو، فى القارة كلها.

مع تزايد النشاط اتسع المجال لأعمال ترتبت عليه وصارت مكملة

له (أتت فى المقدمة صناعة التوابيت التى ازدهرت بفضل المعونة الفنية التى قدمتها الشركة). وقد دخلت البلاد إلى فترة – كما أطلقوا عليها – تشهد أعظم نهوض اقتصادى فى تاريخها، هذا النهوض، على وجه الخصوص ،كان من الممكن مشاهدته خلال المتنزهات الجديدة المزهرة، والتى تخطر فيها زوجات نواب المجلس رائحة غادية فى مسحة حزن أصائل الخريف الذهبية، يتهادين ويومئن برءوسهم الأنيقة حلوة التلفت وهن يطلقن صرخاتهن، نعم، نعم، كل شىء جميل، وذلك كلما اتجه إليهم أحد الصحفيين باهتمام من الجانب الآخر للممشى وهو يحييهن رافعا قبعته.

لابد أن أذكر، ولو اضطرنى ذلك لقطع السياق، أن واحدا من هؤلاء الصحفيين، فى إحدى المناسبات، انطلقت منه عدسة قوية ذات رذاذ كثيف حتى أنه لم يستطع تفسير سببها، واعتبر سببا كافيا لاتهامه من قبل المتشددين واقتيد على الفور إلى ساحة الإعدام رميا بالرصاص، إلا أنه، وبعد إنكاره لذاته حتى نهايته المشئومة، اعترف أعضاء مجمع اللغة بأن هذا الصحفى كان واحدا من أعظم الرءوس المفكرة فى البلاد، لكن هاهو رأس مقطوع نجح ـ على الأقل ـ فى فضح المهزلة.

ولكن ماذا جرى بالنسبة لمستر تايلور ؟

فى تلك الفترة كان قد تم تعيينه مستشارا خاصا للرئيس الذى تم تنصيبه وفقا الدستور، أما الآن وكمثل لما يمكن للسعى الفردى أن يحققه، فقد صار من أصحاب الملايين التى تأتى له بملايين أخرى

دون أن يؤرقه ذلك، لأنه قرأ فى المجلد الأخير من الأعمال الكاملة لوليم ج . نايت: ليس من العار أن تكون مليونيرا طالما أنك لا تحتقر الفقراء».

أعتقد أن هذه هى المرة الثانية التى تكون سأضطر أن أردد فيها أن الأيام لا يمكن أن تكون كلها هناء وسرورا، فقد بلغ نجاح أعمال الشركة حدا وصل فى وقت من الأوقات إلى أن المتبقين فى المدينة ليسوا سوى المسئولين وزوجاتهم، والصحفيين وزوجاتهم.

تأمل مستر تايلور المأزق، ودون أن يبذل جهدا يذكر، خطر له أن العلاج الوحيد الممكن هو أن يشن حربا على القبائل المجاورة، لم لا؟ إنه الثراء.

وبمساعدة عدد من المدافع الصغيرة كانت أولى القبائل قد قطعت رءوسها بمهارة نادرة خلال ثلاثة شهور فقط، وذاق مستر تايلور طعم المجد وهو يوسع ممتلكاته، وعندئذ جاء دور الثانية، ثم بعد ذلك الثالثة، فالرابعة، فالخامسة، وتسارعت الثروات بنفس السرعة التى حلت فيها الساعة المحتومة، فبالرغم من كل الجهود التى بذلها الخبراء صارمستحيلا، أن تعثر على قبائل مجاورة لتشن الحرب عليها.

وكانت بداية النهاية.

المتنزهات بدأ يدب فى جوانبها الذبول والعطب، فقط، فى بعض الأحيان يمكنك أن ترى سيدة ما وهى تجتازها ،أو شاعرا يسير مزهوا بكتابه تحت ذراعه، والأعشاب الضارة عادت تعوق المشى

السليم خالقة صعوبة ومسببة وخزات للخطوات الرشيقة للسيدات، ومع قلة الرءوس قلت الدراجات، وهكذا لم تعد تلقاك التحيات المرحة المتفائلةحتى صانع التوابيت صار أكثر حزنا إذ لم تعد هناك جنازات على الإطلاق، وأحس الجميع كما لو كانوا قد انتهوا من تذكر حلم سار قد انقضى، هذا الحلم الطويل الذى تعثر فيه على صرة ممتلئة بقطع العملات الذهبية، وتضعها تحت المخدة، ثم تواصل نومك، وعندما تستيقظ مبكرا جدا فى صباح اليوم التالى، وتلتمسها من تحت المخدة، ثم تفتشها فإذا بها فارغة.

وبالرغم من ذلك ظل العمل مستمرا، رغم المشقة البالغة ومحققا عائدا يغطى تكلفته.

لكن مستر تايلور صار ينام الآن بصعوبة بالغة، خوفا من أن يصحو من نومه فيجد نفسه وقد تم تصديره.

فى وطن مستر تايلور كان الطلب يتزايد بالطبع كل مرة عن سابقتها ،وكل يوم تقدم أعذار جديدة، لكن فى الأعماق، لم يكن أحد ليصدقها، والجميع يلحون فى طلب الرءوس الأمريكية اللاتينية المقطوعة.

وفى الأزمة الأخيرة، بدا مستر رولستون يائسا، فهو يرسل ويرسل طالبا رءوسا أكثر، وبالرغم أن أعمال الشركة باتت معرضة لانهيار مفاجىء إلا أن مستر رولستون كان مقتنعا بأن ابن أخته لابد سيقوم بعمل مايخرجه من هذه الورطة.

السفن التى كانت تأتى قبل ذلك بمعدل مرة كل يوم، صارت تأتى

بمعدل مرة كل شهر، محملة بكل ما تستطيعه: رءوس أطفال، أو رءوس نساء، أورءوس نواب المجلس.

إلا أن كل شىء توقف فجأة.

فى يوم جمعة ذى طقس ردىء، وضوء كابى، وأثناء عودته من البورصة ومازال مذهولا من الصراخ المتصل بها ومن المنظر المؤسف لرعب أصدقائه، قرر مستر رولستون أن يرمى بنفسه من النافذة (فكر فى ذلك بدلا من استخدام مسدسه، فهو يخشى أن يشله الرعب من صوت الطلقة)وذلك عند فتحه الطرد الذى وصل بالبريد إذ ووجه برأس مستر تايلور يبتسم له من الأصقاع البعيدة، من غابات الأمازون المتوحشة، بابتسامة الطفل الخادعة، بدا كما لو أنه يقول له: «سامحنى، سامحنى، لن أعود لفعل ذلك مرة أخرى».

الهوامش:

(*) الجرنجو: هو الاسم الذى يطلقه سكان أمريكا الجنوبية على الأمريكى الشمالى بوصفه غريبا.

تيريسا

لينو نوباس كالبو - كوبا

على ما أذكر فإن كل ما جرى قد بدأ فى نهاية سبتمبر. ولماكان عيد ميلادى على وشك الحلول، فقد جلست أمى تفصل لى قميصا جديدا وتخيطه، وبينما هى جالسة تشتغل فيه رأيت وجهها ولونه ينخطف ويشحب والسعال يخنقها، اتسعت عيناها وهى تنتفض واقفة بينما تقبض بيد متشنجة على صدرها وهى تجرى مندفعة إلى الغرفة الأخرى.

وساءت حالتها جدا، ثم أخذت حرارتها ترتفع بشدة ثم تنخفض دون توقف، ولم يفكر أحد فى الخروج والإتيان بطبيب، غير أن خالتى سول (*)حضرت لترانا وتحمل لنا أخبارها الحلوة، وقفت فى مدخل باب غرفة نوم أمى التى كانت راقدة على سريرها وبدا على خالتى سول أنها تتكتم خبرا مفرحا، وعندما لمحت أمى ذلك أشرق

وجهها ثم طفرت من عينيها الدموع وأخذت تبكى فى صمت.

لم تضيع خالتى سول وقتا فخرجت على الفور، وما أن خرجت حتى نهضت أمى واقفة لتلبس أحسن فستان عندها، مشطت شعرها ولما انتهت من عمل تسريحتها وضعت على وجهها مكياجا خفيفا، وانقضى النار ومع العتمة التى سادت بحلول الليل عادت خالتى سول، وتكلمت كل منهما مع الأخرى بصوت خافت، كانت خالتى سول مرهقة وهى تقول لأمى:«ربما أخطأوا فى تاريخ يوم الوصول، ولابد أنه سيحضر على مركب أخرى».الحيوية التى كانت قد انبعثت فى وجه أمى اختفت على الفور، وعندما مضت خالتى سول فى بطء تجاه باب الخروج كانت أمى تقف فيوسط الغرفة ويداها تحتضنان صدرها وهما تتقاطعان بينما لحقت بها عند الباب وبصوت بالغ الضعف قالت لها:

ـ «على أية حال أنا شاكرة جدا لجميلك يا سول!»

ذلك ماحدث فى البداية، وطول شهور عديدة تالية كان على أن أراقب تغير حالتها هذه، لكنى لم أستطع أن أفهم شيئا، أو ربما فهمت حالتها دون أن توضح لى أمى أو خالتى شيئا، لقد فهمت أنه مع قدوم أول كل شهر، فإن شخصا ما يتوقع وصوله على ظهر مركب، لكن هذا الشخص لم يأت فى الوقت الذى كانت تقع أمى فيه فريسة للمرض، ثم بعد ذلك تسترد صحتها فجأة، أو على الأقل هذا ما كان يبدوعليها.

واقترب تاريخ موعد وصول آخر حاملا معه أملا جديدا، وحينئذ

كان لابد وأن تظهر خالتى سول ثم ينتهى الأمر بأن تنظر إلى أمى بخيبة أمل، وكان لابد أن يعاود المرض أمى مرة أخرى.

غير أنها لم تشك أبدا من إحساسها بآلام المرض، وبالكاد كان يبدو عليها الإرهاق أحيانا دون أن تتوقف عن الخياطة، وفى أحد الأيام، وبعدما انصرفت خالتى سول فى آخره قالت أمى: «هذا الذى جرى كله من عمل الشيطان، وهذا كله بلا فائدة».

وأستطيع الآن أن أتذكرها أيامها وهى بالغة الشحوب ونحيفة وأطول من الباب الصغير فى آخر الغرفة، أتخيلها وهى خارجة منه ورأسها منحنى أكثر مما يجب، وبعد ذلك، تأتى للغرفة الأخرى عبر الطرقة الضيقة كما لو كانت تأتى من سرداب الدفن داخل الكنيسة.

كنا نحيا وحدنا، فى ذلك الوقت، فى بيت فوق التل، قالت لى أمى و «سنؤجر إحدى غرف بيتنا لتساعدنا فى تدبر معيشتنا، وسوف تقيم الست التى ستستأجرها فى غرفة الجلوس، هى ست خياطة أيضا. المكان واسع وأنا أقدر أعمل شغلى كله فى غرفتنا».

كانت غرفتنا هذه تطل على الجنينة الصغيرة، حيث كنت ألعب فيها مع أولاد الجيران، والخياطة التى جاءت لتسكن فى غرفة الجلوس كانت ستا قوية الجسم وكانت بشرتها السوداء لامعة، وقد أغلقت أمى الباب الموصل بين غرفتنا وغرفتها، وأصبح دخولنا وخروجنا للشارع الخلفى من الجنينة.

قالت أمى: «لم نكن في حاجة لغرفة الجلوس... ثم أن هذا الشارع الذى نطل عليه ملىء بالحفر ولا تنشف فيه أبدا مياه البرك

الوسخة التى تخلفها الأمطار.. أما من الشارع الخلفى فأنت تستطيع أن تطل على الغيطان، وتقدر تشوف الشمس ساعة المغرب.

لم أحس بأنها توجه الكلام لى، بعدها جرجرت ماكينة الخياطة ونصبتها فى غرفتنا،أما كومة القماش التى كان عليها أن تشتغلها فقد احتفظت بها فى غرفة الحمام، وكفت النسوة اللواتى كن يقمن بالشراء من الورشة عن الحضور إلى بيتنا، إلا أن أمى كانت تخرج من حين إلى آخر لتسليم الشغل الذى أتمت تشطيبه ثم تعود حاملة شغلا جديدا، غير أنه لم يعد يوجدالكثير منه، كما أن الشغل ثقل عليها الآن وصارت تشتغل فيه ببطء، وفي أكثر من مرة أمكننى رؤيتها وهى توقف ماكينة الخياطة وتتصلب فى قعدتها وهمتها قد فترت وقد كفت عن عمل أى شىء سوى أنها تبدأ فى إطالة التحديق فى الحائط المواجه لها.. وعندما تتنبه لوضعها تعود لتشغيل الماكينة وتظل محتفظة بصدرها مرفوعا لأعلى كما يفعل الانسان المتصلب تحت وطأة الآلام التى تمنعه من الحركة.

وفى أحد الأيام تكلمت معى عن شىء ماكانت مشغولة بالتفكير فيه: «أود أن أبعثك إلى دار خالتك سول لتقعد عندها أسبوعين أو ثلاثة، أو دار خالك مارتين، أنا محتاجة أروح الأرياف لأن فيها شغلا لابد أن أشتغله ،ومحتمل أن يأخذ ذلك منى أسابيع عديدة».

لم أكن قد رحت الأرياف أبدا، ولم أشر إلى ذلك أمامها إلا مرة واحدة عندما عدنا إلى أسبانيا فى رحلة طويلة على المركب وانتهت بنا الأمور هنا فوق التل فى هذا البيت الصغير بسقفه المائل، قلت لها:

- «وأخوالى الآخرون؟» قالت لى: «كلهم مستعدون وهم قريبون منا، ولكن المشكلة أنهم كلهم يعتقدون أننى غلطانة ومشيت فى السكة الغلط مع أن الشيطان هو السبب فى كل ما جرى!».

ليلتها مر علينا خالى مارتين، قبل ذلك كان يزورنا عندما يمر بنواحينا ،كان بطىء الحركة وكان عدم ميله للكلام وآثار الجدرى بوجهه ينفراننى منه، وفى كل مرة رأيته فيها كان هناك دائما حول وسطه حزام عريض يعلق فيه المبارد والشواكيش والكماشة، وعندما هم بالانصراف قال لأمى:

- على أى حال، فكرى فى الموضوع، وأبعثى بالولد عندى إذا أحببت»، ردت عليه : «أنا عارفة أنك بذلك ستساعدنى»، إلا أنها واصلت حديثها إلى أخيها : «وأنت تعرف أننى سأسترد صحتى، والموضوع باختصار أنى أتفقت على شغل ولازم أكمله وأخلص منه هناك فى أرتميسا، لكن أحسن له يبقى مع خالته سول، هناك الغيطان وجنينة الورد».

نظر خالى مارتين نظرات سريعة إلى كل منا ثم دار ببصره فى الغرفة كما لو أنه مندهش لكل ما يراه حوله ثم قال لها: «كما تحبين، وعلى أية حال فأنا تحت أمرك» . وهب واقفا معطيا ظهره المحنى لنا ومضى للخارج فى بطء عبر الجنينة الصغيرة،أطفأت أمى المصباح وأقعدتنى على طرف السرير وتركت روحها تنهار مرتمية فى قلب الكرسى الهزاز.

- « أخوالك هؤلاء ناس طيبون، ويمكن أن أكون أنا الغلطانة،

لكنى لم أطلب من أى واحد منهم مساعدة، لا منهم ولامن أى واحد غيرهم، لقد أحضرتك معين إلى هنا لكى نعيش معا، وحتى لاتتربى وتكبر مع آدم، آدم رجل فسدان، ربنا يسامحه ويسامحنا كلنا! كل ماجرى من الشيطان ،لكن ربناغفور!».

لم أكن أفهم عما تتكلم، كنت قد سمعت ما قالته عن آدم من قبل، وعلى الرغم من أننى لم أره، فإننى أعرف أنه أبى، واسترسلت: «أنه أبوك، لكن لوحدث وأن تصادف أن رأيته فى أى يوم من الأيام، فعليك أن تتذكر شيئا واحدا فقط، أنه لن يعرفك أبدا لأنك لاتحمل أى وجه للشبه منه،أنت رومانى».

توقفت عن الكلام، وأحسست أنهاكانت، وهى غارقة فى صمتها، تبكى بلا صوت، ثم علا صوتها وهى تصرخ فى وجهى بغضب شديد: «رح نم فى سريرك! لا أعرف ماذا جرى لى لأحكى لك كل هذا؟!»

فى اليوم التالى، عادت كما كانت نفسها مرة أخرى، وقورة، وكتومة، ومتكبرة، وعندما أفكرفى ذلك الآن، فإنه يبدو لى شيئا غريبا أن يكون لامرأة قروية مثلها مثل هذه الشخصية، إذ أن ما من تصرف واحد من تصرفاتها يدفع المرء لأن يعتقد أنها أتت من الريف، بل والأكثر من ذلك، أنها احتملت أن تحيا فى هذه الحالة المروعة من القلق الدائم حتى أننى لأتساءل مم خلقت؟ وما الذى أوقع بها ماهى فيه؟

ماأكثر ما كانت تثير دهشة من حولها، وذات يوم قالت للبنت

السوداء: «أنت مندهشة لأننى أعرف كيف أتحدث، وكيف ألبس كما يليق بسيدة محترمة، وحسب تصوراتك عنى فلابد أن أكون خدامة!» فتحت السيدة السوداء عينيها على اتساعهما بفزع وحاولت أن تنفى بهز كتفيها لكنها أخذت تتأتىء! استدارت أمى إلى الزبونة الواقفة وقالت بصوت خافت: «أنا متأكدة أننى بدأت تفلت منى أعصابى فى بعض الأحيان،وهذا بالفعل مايحدث وذلك لأنه كان على أن أتحمل معاناة كل مايجرى من صغرى، ولم يكن هناك شخص واحد ليساعدنى، إذ كان كل أخوتى فى كوبا».

كان عليها أن تنهض مبكرة وتلبس ثيابها قبل الفجر، كانت تبدو أقرب إلى خيال ،لكنها كانت تبدو جميلة فى فستانها المنسدل عليها بلونه الفاتح، وخضرة عينيها وسكونهما العميق، وهالة شعرها الأسود التى تحيط برأسها كله، ولقد بدت فارعة الطول بالنسبة لى، بل وأطول من مارتين، ومن الست السوداء، ربما لأنها أصبحت نحيلة وهى بسبيلها للموت، واحدة خدامة!» كررت ذلك بينها وبين نفسها بصوت مسموع لأكثر من مرة، «لكن ما من أحد من عائلتى كان خداما فى أى يوم! ربنا يسامحهم!»

وفى الليلة التالية، عندماعاد خالى مارتين لزيارتنا، كانت أمى تنفجر حيوية، ففي صباح ذلك اليوم أرسلت خالتى سول جارتها روماليا، ومرة أخرى قالت إن هناك مركبا على وشك الوصول.

وهكذا فلقد أخبرت خالى بقرارها، «لقد أجلت الذهاب إلى أرتميسا، فاليوم السبت كما تعرف، ولقد أحببت أن أقضى يوم

الأحد هنا، ومن المحتمل أن يمتد بقائى لأسبوع آخر، لكن الولد سيذهب عند سول، ففى دارها مطرح زيادة، وأن لا أحب أن أفارق الدنيا وأتركه محبوسا فى الخزنة، التى تعيش أنت فيها وهى ضيقة كالقبر كما تعرف»، وغرقا معا فى الصمت.

أغمض مارتين عينيه للحظة ثم اندفع برأسه المنكفىء أمامه خارجا من الممر المواجه لنا، وللحظة توقف والتفت ناظرا إلىّ بحزن متحاشيا أن ينظر إليها، ولم يحدث أن رآها حية بعد ذلك أبدا.

فى الصباح نادت علينا سابينا، الست السوداء ، بصوت ممتلىء رعبا أمام الباب الفاصل بيننا وبينها:

«تيريسا !.. تيريسا!.. أأنت بخير؟»

فى تلك الليلة، كنت قد غرقت فى النوم، كما لو كنت مخدرا، وربماكنت كذلك بالفعل، إذ بينما كنت ذاهبا لأنام فى السرير أعطتنى أمى شرابا من أعشاب كانت قد نقعته حتى تخمرت شربته ونمت، وفى نومى سمعتها تسعل أكثر من مرة، لكنى لم أكن منتبها تماما، إذ أننى كنت غارقا فى نوم ثقيل كالرصاص، إحيانا كنت أراها كما لو كان ذلك فى حلم وأعتقد أننى كنت أسمعها خلاله وهى تئن، لكن لم تكن هناك وسيلة لأتأكد بها ما إذا كانت تلك الأنات حقيقية أم أننى أتخيلها، وفى الصباح كانت أمى قد نهضت من نومها وسوت شعرها، ولبست فستانا بيتيا نظيفا، منقوشا بالورد ومنشى، وبولع شديد واعتداد عال بالنفس فتحت الباب الصغير وتطلعت إلى الست السوداء: «نعم سابينا! شكرا لك فإننى بخير، لقد

كان كابوسا فى الحقيقة ،هذا هو كل ما فى الأمر ثم كررت: شكرا لك يا سابينا!».

طوال تلك الشهور من سبتمبر حتى ذلك اليوم لم أسمعها أبدا تتكلم عن مرضها، وحتى عندما كان الطبيب يحضر للبيت، وأحيانا كانت تقضى صباح اليوم كله، أو بعد الظهر كله فى الخارج، وأخيرا فسرت لى سبب خروجها، بأنها فى هذه الأيام ومثلما كانت تخيط ملابس الزبائن هنا فى البيت، فإنها تخيطها فى بيوتهم.

ـ «كان على أن أؤجل سفرى للأسبوع القادم، فمازالت الفساتين هنا عندى، ولابد أن انتهى من خياطتها قبل أى شىء». كانت تتكلم دون أن تنظر إلى، وكانت تتحرك بحرص كما لو أنها تتوقع وشوك انهيار شىء ما بداخلها، وعندما تجلس أمام ماكينة الخياطة فإنها تبدأ فى وضع الكلفة للفستان ثم تتوقف من وقت لآخر وتحدق بثبات من خلال مدخل الباب إلى الخارج وهى تنقل نظراتها القلقة من ناحية للناحية الأخرى على امتداد أراضى القرية. وفى إحدى المرات ضبطانى وأنا مستغرق فى التطلع إليها وتأملها فنادتنى وأمرتنى بصوت غاضب:

ـ «تعال هنا، اشرب اللبن ورح ألعب، أنت أحسن لك تروح الصبح تأخذ دروسك!»

إلا أننى لم أذهب لأخذ دروسى ،إذ كان الطريق طويلا من عند بيتنا حتى بيت المدرسة التى كانت تعطينى الدروس حيث كانت تسكن فى الناحية الأخرى من الشارع، وكانت تعطينى حصصا بعد

الفطور وأخرى بعد الغداء«خللى بالك!» وكررت أمى تنبيهها لى: «لانريدهم أن يرموك ثانية بالحجارة!»

تركتها وخرجت ولم يكن خروجى هذه المرة للعب، بل انبطحت على العشب وأخذت أتشمم الأرض بالطريقة نفسها التى تتشممها بها الكلاب ،كنت أتمتع بحاسة شم قوية شغلت كثيرا من الجيران واحتاروا بسببها وكانوا يتكلمون عن ذلك الذى حدث، إذ حدث مرة إن قلت بصوت عال إن غرفة ما تنبعث منها رائحة جثة ميتة. وبعدها بثلاثة أيام ماتت المرأة العجوز التى كانت تسكن تلك الغرفة، وهذا الكلام وصل أمى.

عندما عدت للبيت بعد الظهر، كانت سابينا تجلس مع أمى، وكانتا تفرزان قطع الملابس التى يلزم خياطتها، وكانت روماليا جارة خالتى سول تجلس معهما أيضا، وروماليا امرأة يعلو الحزن وجهها دائما، عظامها بارزة، بلا أسنان، لها بطن صغير يتكور أمامها سلمتها أمى البقجة وهى تقول لها: «خدى هذه إلى أختى سول، وقولى لها إنها لابد أن تمر على هنا غدا، ثم عادت توضح لسابينا: «أنها أختى غير الشقيقة، أن لى أخ شقيق واحد هو أنطون، وهو يشتغل معها فى الجنينة، أما أخوتى غير الأشقاء فهم منتشرون فى طول الناحية وعرضها، فمارتين يعمل فى مصنع الجيش فى الدحديرة هناك، وخابيير عربجى يلف فى المنطقة وهو راكب عربته التي يجرها بغل، وسول أختى غير الشقيقة، فى جبل يسوع، الرومانيون فى كل مكان!» وحاولت أن تبتسم، لكن ابتسامتها صارت

فى الأيام الأخيرة مجرد التواء فى الشفتين يبعث على الاشفاق ولقد بدت بالغة الشحوب لدرجة تبعث علي الفزع، والمكياج الذى كانت قد وضعته على وجهها لم يعد يضفى عليها شيئا سوى زيادة شحوبها، غير أنها كانت تقاوم بالتحامل على نفسها للوقوف وجذعها منتصب كأى إنسان يتمتع بصحة جيدة، وإذ رأتنى واقفة بعتبة الباب أشارت نحوى وهى تقول : «وهذا الطفل، هذا الطفل أيضا اسمه رومان، إنه لا يملك اسم عائلة آخر، وهو ليس هى حاجة إلى أى اسم اخر!».

وقالت لنفسها بصوت خافت لكنه مسموع: «شخص رخو عديم الشخصية! سمعتها الأخريات، سابينا ورومااليا فى هدوء ولم تردا بكلمة واحدة، بل تظاهرتا وكأن الأمر لا يخصهما، إلا أن نظراتهما تحولت عنها إلى.

وكررت أمى: «فى الحقيقة هو شخص عديم الشخصية! ولا أعرف كيف استطاع أن يحتمل أن يكون كذلك، ربنا يسامحنى!».ودارت بنظراتها فيما حولها وذراعاها معقودان على صدرها، وربنا يسامحه كذلك!».

وشيئا فشيئا صار صوتها أكثر خفوتا، وجسمها انحنى وصار بالغ النحول، لحظتها أغتمت لكنها انتبهت ونصبت طولها وقالت بصوت عال أقرب للصوت الآمر المستبد: « روحى طوالى يا روماليا. خذى البقجة معك وقولى لسول لابد أن تحضر غدا إذ من المحتمل أن يكون لزاما على خلال هذه الأيام أن أذهب للريف طوالى».

تساندت روماليا حتى نجحت فى الوقوف بينما كانت تحدق فى

وجوهنا، ثم مضت خارجة عبر باب غرفة سابينا، وظلت سابينا جالسة فوق المقعد المجاور لماكينة الخياطة، تميل على ناحية ثم لا تلبث أن تميل على الناحية الأخرى بحيث ترانا جيدا، وحينئذ قالت أمى لى: «لقد فكرت بأننى يجب أن أقيم فترة فى أرتميسا، ومن الممكن أن يكون الشغل هناك أحسن لى، وفى هذه الفترة، أين تحب أن تعيش أنت؟ تعيش مع خالتك سول أم مع خالك مارتين؟ سول عندها غيط، وعندها هناك جنينة فيها ورد».

كانت الدنيا قد أظلمت وهى تتكلم، وعندما سكتت ورأت الظلام مضت خارجة حتى الباب وحدقت خارجة بإتجاه الريف المظلم لوقت طويل، دون أن تنبس بكلمة، وعندما استدارت عائدة بدا لى أن عيونها كانت ممتلئة بالدموع إلا أنها كانت تتفادى أن أرى دموعها، مشت حتى آخر الغرفة ثم أخذت تجهز لنا العشاء، وأخرجت بلا حساب من الأكياس ،كميات وفيرة من المأكولات التى أشترتها من الكشك المقام فى شارعنا ثم شرعت تهرب من دموعها بالغناء.

وفى الصباح وصلت خالتى سول، لم يكن هناك أى وجه للشبه بينها وبين أمى، كانت أكبر سنا وإلى حد ما شقراء، وجسمها العريض وصوتها الأجش يشيان بكونها امرأة ريفية، ألقت على أمى نفس النظرة وارتسم على وجهها الذهول والاشفاق نفساهما واللذان لاحظتهما على وجوه الجيران.

قالت لها أمى: «سوف انتظر أسبوعا آخر، فاليوم نحن فى العشرين من الشهر، فى اليوم السابع والعشرين سيصل إلى هنا

المركب الفونسو الثانى عشر، أليس كذلك؟ ثم عندما رأتنى غيرت الموضوع، «فإذا بقيت هناك، فقد عرفتهم بأنهم لابد أن يرسلوه للمدرسة، لابد أن يتعلم، فليس له أبدا فى شغل الفلاحة».

فى تلك اللحظة بدت ممتلئة بالحياة والثقة، قالت: «أحس بأننى فى حالة طيبة اليوم، وفى الحقيقة فإنى أحس بأننى أحسن كثيرا من الأيام الماضية.. ألا تعتقدين أن المركب الفونسو الـ...

قال لها سول: « لا تقلقى على الولد، فسوف نعتنى به.

وقالت لها أمى: «ويمكن أيضا ألا تعتنوا به!»

أحمر وجهها بشدة، ويبدو أنها نسيت أننى موجود فقالت لسول: «هذه هى أيامى الأخيرة، وكان يجب على فى هذه الأيام الأخيرة ألا أكف عن الصلاة طوال اليوم، ثم خطرت لها فكرة وغام وجهها تماما:

ـ «صحيح، ربما لم أكن أستحقه، فهم يقولون أننى امرأة غير صالحة، ثم صمتت واستعادت تماسكها وانتصبت واقفة وعلى وجهها تكشيرة.

كانت تغير ملابسها يوميا، وفى ذلك اليوم كانت تلبس أجمل فستان عندها، لكنها كانت منهمكة فى خياطة فستان آخر وكانت قد اشترت زجاجة عطر، لكن الرائحة الفواحة لهذا العطر جعلتنى أشد انتباها للرائحة الأخرى التى ظلت تتسلل وتهب هبات خفيفة، وبرغم خفتها لم أخطئها لأنها أصبحت ملحوظة فى البيت، وعندها تأكدت من أن صحتها قد ساءت إلى أقصى حد، لقد بدأت تنهار منذ شهور،

لكن حتى هذه اللحظة الأخيرة من حياتها كانت تبدو أصغر من سنها، إلا أنها كانت كالضوء الذى يتوهج لينطفىء، لم يبق لها سوى جلدها الذى ضمرت عضلاتها تحته، ولم يبق تحته سوى عظامها وأعصابها.

غير أن أمى بدت وسول تتهيأ لتركنا ونقول لها: «اقعدى بالعافية». فى حالة طيبة، وأكدت عليها سول: «قولى لى الحقيقة، كيف تحسين بحالتك؟ أمازلت لا تريدين منى أن آخذه معى؟.

انفعلت أمى بشدة، وعندما تكلمت بدا أنها تهذى، إذ لم تكن تنظر للآخرين، وبين الحين والآخر بدت كما لو كانت تتوجه بكلامها لشخص ما، وهو الشخص الذى لم يكن موجودا.

«كنت أقول لسابينا، يوجد دائما فى الدنيا ناس مزعجون، ناس يخلقون لك المشاكل ويدهسونك تحت أقدامهم، ويتسببون لك فى النكد، ويذلونك، دون أن يجدوا أحدا يقف لهم ليلفت نظرهم لما يفعلونه أو يحاسبهم عليه لكى يفسروا لنا لماذا يفعلون ذلك؟ ولهذا السبب فإنه لا يوجد عدل فى هذه الدنيا، وهزت رأسها بعنف وانشبت أظافرها بصدرها وصرخت بصوت مكتوم:

ـ «يارب سامحنى!» ثم سكتت، وبعدها قالت لسول: «لا، لا تأخذيه الآن، سننتظر أسبوعا آخر، ثم هل تقدمين لى معروفا لآخر مرة؟ اذهبى لأجل خاطرى للميناء و ..

خرجت سول وهى تهز رأسها الصغير، ورأيتها وهى تشد قبضتها وسمعتها تتمتم بينها وبين نفسها: «مسكينة يا أختى! ليس

من العدل أبدا أن تتحمل وحدها كل هذه المصائب التى تنزل فوق دماغها».

لم تصحبها أمى حتى خارج البيت وعندما انغلق الباب فى وجهها وقفت قبالته وفى مواجهتها كان الممر الضيق وعلى الناحية الأخرى من الجدار الداخلى الفاصل بيننا وبين سابينا كانت ماكينة الخياطة التى لم يعل صوتها بعد ذلك أبدا، ودون أن تنظر إلى قالت أمى وهى تشير بيدها: «أترى هذه البقجة التى فوق الكرسى هناك؟ إنها ملابس الست الساكنة فى البيت نمرة ١١ خذها ووصلها لها».

خرجت بالبقجة، لكنى وقفت أتنصت فى الناحية الأخرى من الباب، سمعت سابينا وهى تواصل الكلام مع أمى، «لكنك تبدين اليوم أفضل كثيرا ياتيريسا،ولكنى لو كنت مكانك لما أجلت الذهاب للمستشفى أطول من ذلك، فهناك سوف يعتنون بك أكثر». وأعقب ذلك فترة صمت وبعدها قالت أمى:

ـ «بودى لو أطيل الوقت قدر ما أستطيع بى رغبة شديدة للبقاء مع الولد أطول وقت ممكن، وفى الوقت نفسه لا أحب له أن يرانى معدومة العافية، ووجهى وقد فقد كل جماله يبعث فى قلبه الرعب من خوفه على، أحبه أن يتذكرنى كما أنا، وكما كنت، وعندما أعود سأبدو له وقد استعدت شبابى، توقفت برهة عن الكلام ثم واصلت: «إلا أنه من غير المؤكد أننى سأذهب على الفور لأن شيئا ما لابد أن يحدث، وأن تعرفيه».

عند عودتى للبيت وجدتها منحنية بشدة وتوشك أن تنكفىء على

الأرض لولا أنها أمسكت بحافة المنضدة وتشبثت بهاحتى اندفعت خلف الستارة التى ظلت وراءها لفترة طويلة وأنا أسمعها تتنفس بصعوبة بالغة، إلا أنها فى اليوم الثانى نهضت وقد بدا عليها التحسن ولبست فستانها الجديد، وزينت وجهها بالمكياج ثم جلست مرة أخرى أمام ماكينة الخياطة ثم شرعت تغنى بصوت خفيض، وظلت هكذا طوال العصر دون أن يبدو عليها أنها انتبهت لعودتى، وفتحت سابينا الباب فتحة لا تزيد على شق تسترق من خلاله النظر إليها.

ـ «تعالى يا سابينا..تعالى ..أنا أحس الآن بأنى فى حالة طيبة.. أتعرفين يا سابينا أننا على ما اعتقد سنستقبل زائرا اليوم؟!»

ولم تقدم أى توضيح أكثر من ذلك، وظللت أخرج وأدخل لساعات طويلة دون أن يبدوعليها أنها منتبهة لوجودى.

ـ «لابد أن تعرفى يا سابينا أنه ليس من حق أحد أن يدين أحد. كل واحد منا مسئول عن نفسه، وأحيانا لا تكون هذه النفس كما يظنها الآخرون، آه يا سابينا! ولو حدث وجاءنا الضيف. فسوف ندعوك للمشاركة فى الاحتفاء به، لأننا سنعمل حفلة صغيرة، وأنت يا سابينا صديقة قريبة ومخلصة».

ولحظتها رأيت الدموع وهى تطفر من عينى أمى فرحا، وأدارت الست السوداء عينيها من ناحية إلى أخرى كما لو كانت تتوقع أن تفاجأ بدخول شبح علينا.

ـ «لقد سبق وأن قلت لك أن أختى سول سمعت بقدوم شخص

مهم على المركب الفونسو الثانى عشر... ولحظتها تطلعت أمى بنظراتها صوب الباب وظلت محتفظة بتماسكها وهدوئها لبرهة، ثم أضافت متشككة بصوت خفيض: «أنا لا أحب أن أبدو مدعية ». بل أحب أن أقول مثلما يقول الصينيون فى أمثالهم: «دعونا ننظر ونتأمل»، هل تعرفين ولدى هذا يا سابينا؟ رومان هو اسمه الثانى وهو اسم أبى، لكن لابد أن يكون له اسم آخر لأن كل واحد فى الدنيا له اسم عائلى ثنائى، فلماذا يكتب عليه أن يكون أقل من بقية الخلق؟ أن اسمه الآخر بيريث، ولقد قالت أختى أن شخصا بالغ الأهمية سيصل فوق المركب الفونسو، ولو كان قادما بالفعل فأنا أعرف لما هو قادم، ولسوف ترين بنفسك يا سابينا، سوف ترين والآن كيف أن كل شىء سيسوَّى تماما، وكما ينبغى.

كنت منبطحا وممددا على الأرض خلف الستارة، أتشمم الرائحة التى لم يكن يبدو عليها أن تدرك وجودها.

ـ «سوف ترين يا سابينا.. سوف ترين»

وببطء أغلقت الست السوداء الباب خلفها كما يفعل الناس مع المرضى إلا أنها كانت مرعوبة . قمت ودرت حول البيت من المدخل المطل على الشارع لأقف أمام باب سابينا المفتوح، كانت تكوم قطعا من الملابس وهى تكلم نفسها: «شخص مهم... شخص مهم جدا المسكينة عقلها شت!» ولمحتنى فتوقفت عن كلامها مع نفسها، جريت خارجا لأن شيئا ما كان يقلقنى، ربما كانت تلك الرائحة التى استجدت.

ما أن عدت لغرفتنا حتى أضاءت أمى كل الأنوار وساقتنى أمامها للحمام لآخذ دشا ثم ألبستنى أجمل ثيابى، قالت لى: «ألبس هذه البدلة.. ألبسها اليوم فقط... اليوم يوم الأحد وأنت كبرت فما فائدة الاحتفاظ بملابسك مركونة فى الدولاب، ثم أننا سنستقبل زائرا وسوف ترى!.. سوف ترى!».

كانت مبتهجة وهى تعد كل ما يلزم من أجل ذلك بدأب، إلا أنها سرعان ما انطفأت وأخذت تتعامل مع نفسها بصرامة تثير الإشفاق عليها ولحظتها سكنت فجأة ولبثت على هذا الحال، فما من شىء حدث وما من أحد أتى، كانت ساكتة لدرجة أنه كان يمكننى أن أسمع طيران ذبابة مارة بى فى الهواء، إلا أن رسالة ما كانت قد وصلت وانغرست فى أعمق ما فى كيانها: عندما تأخرت خالتى سول لساعات طويلة وعادت بالأخبار (أوعلى الأصح بانعدام الأخبار) كان كما لو كانت قد أعدت نفسها تماما لما ستسمعه منها، قالت خالتى: «الأخبار لاتسر ياتيريسا، والأمور كما هى، ما من فائدة فى أن نضحك على أنفسنا، ولابد أن خطأ ما قد وقع لأنه لم يكن آتيا إلى هنا، لقد كان ذاهبا إلى بوينس ايرس!»

وقفت أمى شاخصة إليها ولم تستطع أن تعلق بأى كلمة ولم يعبر وجهها عن أية مشاعر، وخلال الساعات القليلة التى مرت بعد ذلك راح وجهها يموت مثلما تأكل النار نفسها حتى الرماد، وما بقى منها لا يتعدى أن يكون شبحا وليس وجها، ولم يعد وجها بل قناع.

وحتى تلك اللحظة ظل صوتها متماسكا حتى انفرجت شفتاها:

ـ «طيب يا سول يمكنك أن تأخذى الولد معك، وأعتقد الآن أننى لابد أن أذهب للمكان الذى يتحتم على أن أذهب إليه.

فى ذلك الوقت (ولزمن طويل بعد ذلك) كانت هذه هى ذكرى أمى التى بقيت فى ذهنى، لكنها بعد ذلك وببطء بدأت تتلاشى وتركت مكانها الصورة الأخرى، الصورة التى عنيت بأن تتركها لى لتصاحبنى فى اليوم الذى قالت أمامى فيه: «أنا لا أحب له أن يتذكرنى معدومة العافية، ووجهى وقد فقد كل جماله يبعث فى قلبه الرعب من خوفه على، أنا أحب له أن يتذكرنى كما أنا.. كما كنت!».

الهوامش:

(*) اسم سول (Sol) يعنى «شمس».

الكتـــاب

جوان جيمارايش روزا

* من مواليد ١٩٠٨، البرازيل، إقليم السرتون.

* من أعظم الروائيين فى أمريكا اللاتينية قاطبة فى لغتيها البرتغالية والإسبانية.

* درس الطب وعمل فى مجاله دون أن يحصره ذلك فى تجربة المرضى وعلاجهم .

* ظل طوال حياته ممتلئا بتجربته ومعايشته لواقع السرتون القاسى والمأساوى، واللغة المهجنة (اللغة الهندية والزنجية والبرتغالية) وانعكست هذه الخصوصية مع خصوصية طموح الكاتب لخلق مشروعه القصصى والروائى الذى ليس له شبيه فى البرتغالية أو الأسبانية أو الفرنسية، والذى قام على اكتشاف شخوصه، فى عالمهم الخاص، واكتشاف الجوهرى فى وجودهم ومآسيه ويريد لهم

أن يعبروا عن أنفسهم ليجعلهم يتكلمون منعتقين من صمتهم الأبدى، المهان بسيطرة من يملكون السلطة، وسيطرة لغتها الحاكمة.

وعالم جيمارايش عصى على الترجمة حتى إلى الأسبانية، وهى الأخت الشقيقة للبرتغالية، بسبب من خصوصية لغته وولعه بالتراكيب والمفردات التى يأتى بها من جذورها فى التاريخ والوجدان الشعبى وصياغته المرهفة للمعانى المحلقة، وأسلوبه فى تركيب الصيغ للوصل لما يوشك أن يستحيل التعبير عنه.

وجيمارايش ينتمى إلى فصيل من كتاب العالم، فصيل يرى، مثلما أرى: أن كل كاتب لا تتقدمه لغته: هو كاتب متخلف!

من أهم أعماله:

*SAGARANAO ١٩٤٦.

* OS Primeros historias ١٩٦٢ (القصص الأولى)

* Grand Serton veredas ١٩٥٦ (السرتون الكبير ـ دروب)

* فرقة الرقص Corpode Paile ١٩٥٦.

*توفى فى ١٩٦٧.

إيزابيل الليندى

ولدت ايزابيل الليندى عام ١٩٤٢ وهى ابنة أخ سلفادور الليندى الزعيم الاشتراكى الذى انتخب رئيسا لشيلى وتآمرت عليه أمريكا والاحتكارات الداخلية وأطاحت به فى مذبحة مروعة له وللمقاومة الشيلية الشعبية إلى أن أطاح الشعب الشيلى ببينوشيه الدمية الأمريكية فى أول انتخابات أتيحت له.

تقول ايزابيل الليندى أن الانقلاب العسكرى بقيادة بينوشيه هو الذى وضعها بفظاظة فى مواجهة مع الواقع وأجبرها على تغيير مسار حياتها كلها، وكان أول تغيير جذرى لحياتها شروعها فى الكتابة بعد سن الأربعين، بعد عملها بالتدريس ثم الصحافة فأصدرت رواية (بيت الأرواح ١٩٨٢) (الحب والظلال ١٩٨٤)، (ايفالونا ١٩٨٧)، (قصص من ايفالونا ١٩٨٩)، وأخيرا (باولا ـ

١٩٩٤) وقد ترجمت رواياتها لعديد من اللغات بما فيها اللغة العربية، ترجم الأولى سامى الجندى، وترجم الثلاث روايات الأخريات صالح علمانى: أما قصص من ايفالونا فلم تترجم ولم يصدر كتاب بهذا الاسم.

* تعد إيزابيل الليندى أهم صوت أدبى نسائى فى أمريكا اللاتينية الآن وتحمل كتاباتها سمات كتابات كبار كتاب أمريكا اللاتينية المعاصرين وفى مقدمتهم ماركيث وكارلوس فوينتس وخوان رولفو، وخوان كارلوس أونيتى، وربوخيس، وباوستوس، وكورتاثار، وكاربنتيه... إلخ، كتابتها تواجه الواقع بتشريح وكشف بالغى الجراءة والعنف، عنف مماثل لما يطرحه الواقع من معارك متصلة بين أشكال القهر وأشكال المقاومة، والتضحيات الفادحة التى تتحملها الشعوب دفاعا عن نفسها وثرواتها وكرامتها.

خورخى لويس بورخيس

ولد بالأرجنتين لعائلة احتلت مكانة بارزة لثقافتها الراقية ولجذورها الممتدة بعمق فى تاريخ الأرجنتين، إذ أن عديدا من أسلافه هم أبطال فى تاريخ حروبها (درس فى بوينوس ايرس وكشف عن اهتمام مبكر باللغات والآداب الأجنبية ثم سافر إلى سويسرا ليكمل دراساته العليا، وقدم برحلات متعددة فى أرجاء أوروبا ثم درس فى كامبردج وسافر إلى أسبانيا ليقضى بها ثلاث سنوات ثم رجع إلى بيونس ايرس فى ١٩٧٣، شارك فى تأسيس مجلة «الموشور» الأدبية ثم بدأ فى نشر أشعاره وكشف فيها عن نزوع إلى التجريب، وشارك بكتاباته وحواراته شعراء الطليعة الأوروبية وأصدر عام ١٩٢٥ ديوان «القمر من الأمام» ثم ديوان «دفاتر سان مارتين» ١٩٢٩، ووضعته أعماله الشعرية فى طليعة الشعراء الذين يكتبون بالأسبانية وعمل

بالمكتبة الوطنية إبان حكم بيرون، وبعد سقوط حكمه عين مديرا لها، فضلا عن عمله كمحاضر عن الأدب الأنجلو سكسونى ومجدد نشط ومتحمس للاتجاهات الأدبية الحديثة، كما كان مترجما قدم أعمالا لوليم فوكنر، وفرجينياوولف، وكافكا، وكان ناقدا نافذ البصيرة فى دراساته ومقالاته التى صدرت فى كتابين هما «تساؤلات: ١٩٢٥ ». (حجم الأمل الذى أمتلكه: ١٩٥٦) ثم قدم نفسه فى النهاية كواحد من أهم كتاب القصة القصيرة قدم منها:

(تاريخ العار العالمى، ١٩٣٥)، (تاريخ الأبدية، ١٩٣٦)، (قصص، ١٩٤٤)، (الحديقة ذات الطرق المشبعة، ١٩٤٤)، (الألف . ١٩٤٩) . (المتاهات.، ١٩٦٢)، (أبحاث أخرى، ١٩٦٤)، (كائنات متخيلة، ١٩٦٩)، (تحقيق برودى، ١٩٧٠)، (ذهب النمور، ١٩٧٢)، (كتاب الرمل، ١٩٧٥) وكان قد نشر ترجمته الذاتية عام ١٩٦٧).

ليو بولد و لوجونيس

*صحفى وكاتب أرجنتينى وواحد من أشهر كتاب أمريكا الجنوبية ولد عام ١٨٧٤، بدأ عمله بصحيفة «لامونتيانا» الأرجنتينية وكان من أنصار المرشح الرئاسى للأرجنتين «مانويل كينتانا» وهو الذى ساعده على الانتقال للعاصمة بيونس ايرس حيث تفجرت موهبته الأدبية، ويعتبر أحد رواد المدرسة التى عرفت لاحقا فى أمريكا اللاتينية بالحداثة والتى تأثرت بالرمزيات، تقلب لوجونيس بين المذاهب السياسية، وزار أوروبا حيث تأثر بالتيارات الأوروبية الأدبية المعاصرة بها، وله مؤلفات بين الشعر والقصة القصيرة.

*** من أهم أعماله الشعرية:**

«جبال الذهب» عام ١٨٩٧، و«الأوقات الذهبية».

ومات منتحرا عام ١٩٣٨.

أمبارو دابيلا

* امبارو دابيلا، ولدت فى ١٩٢٨، المكسيك.

* تعتبر أمبارو دابيلا الكاتبة المكسيكية من أهم كاتبات أمريكا اللاتينية، ومن أوائل الكاتبات اللاتى خضن فى تجديد الكتابة فى الخمسينيات من القرن الماضى، إذ قدمت نفسها ككاتبة مجددة ومجيدة فى مجموعتها الأولى. (حين تقطعت الأوصال) ذات الصبغة الخاصة والتى تضم قصصا بالغة التنوع فى معالجاتها إذ تقدم باقتدار عالمها الداخلى بكل ما يعتمل فيه من صراعات تواجهها هذه الشخصيات فى حياتها اليومية وما تصبو إليه من أمال وأحلام وإحباطات، وتوق دائم للانعتاق والتحرر من دوائر الحصار الكابوسى الذى يجعل الشخصيات تحيا على حد سكين فى التخوم بين الواقع والحلم.

*** صدرللكاتبة:**

- حين تقطعت الأوصال.
- موسيقى حية.
- أشجار متحجرة.
- من مجموعة: (حين تقطعت الأوصال)

خوان رولفو

* الكاتب المكسيكى خوان رولفو ولد فى المكسيك عام ١٩١٨. وبكتابه الوحيد الذى يضم مجموعة قصصه القصيرة «السهب الملتهب» (١٩٥٣) وروايته الوحيدة «بيدرو بارامو ١٩٥٥» حاز خوان رولفو مكانته ضمن طليعة كتاب أمريكا اللاتينية المبدعين والمجددين لأدبها القصصى منذ أربعينات هذا القرن، مثل: خوان كارلوس أونيتى، وأليخو كاربنتيه» وميجيل أنخيل استورياس، وخورخى لويس بورخيس، وخوسيه أريولا، وكارلوس فوينتس، وجابرييل جارثيا ماركيث، ورواباستوس..إلخ.

ولقد عاش خوان رولفو حياة أقرب للتجرد، عازفاعن الشهرة والأضواء « لقد كنت أعمل فى الأرشيف، وفى الأرشيف ينسونك وهذه هى أفضل طريقة ليتركونا فى هدوء»، وعندما يسألونه عن ندرة ما يكتب، فيقول: أنا لست كاتبا محترفا، أنا هاوى، أكتب عندما تواتينى الكتابة وعندما لا تأتينى لا أكتب.

أرتورو أوسلار بييتـرى

* أرتورو أوسلار بييترى: ولد فى فنزويلا عام ١٩٠٦.

*كاتب، ورجل قانون، دكتوراه فى الاقتصاد والعلوم الاجتماعية جامعة فنزويلا.

* عاش فى باريس فى الأعوام من ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤، وتعرف على الحركة الأدبية فيها، و انجازات العديد من الكتاب الموجودين بها فى تلك الفترة.

* التحق بجامعة كولومبيا عضوا بالمجمع اللغوى، وجمعية الدراسات التاريخية.

***من أعماله القصصية:**

ـ رواية: «الرماح المخضبة بالدماء».

ـ مجموعتان قصصيتان: «أحمر»، «ثلاثون رجلا بظلالهم».

* من الكتاب المؤسسين للواقعية السحرية فى أمريكا اللاتينية.

إرناندو تييث

* ولد الكاتب الكولومبى إرناندو تييث Hernando tellez عام ١٩٠٨ فى بوجاتا وتعلم بها..ودخل تييث مبكرا عالم الصحافة التى حددت منذ البداية هويته.

ووضع اسمه ضمن المشرفين على تحرير أكثر الصحف والمجلات شعبية، ولم تأت سنة ١٩٥٠ حتى كان اسمه معروفا على نحو أكثر اتساعا بعد أن نشر أول مجموعة قصص قصيرة له هى: «رماد فى الريح» وتشى قصصه التراجيكوميدية برهافة حسه وقوة ملاحظته وتعبيره الحاد اللاذع عن الحياة المعاصرة، وعلى الأخص الآلام التى يعيشها ويعانيها مواطنوه ببلده.

أوجستو مونتيروسُّو

ولد فى جواتيمالا ١٩٢١.

حصب على جائزة ماجدا دوناتو عام ١٩٧١ عن مجموعته القصصية : « النعجة السوداء» أو واحد ضد الجميع وحكايات أخرى، نال كتابه «تغير للأبد» تقدير النقاد كأحسن عمل قصصى عام ١٩٧٢.

انتقل للحياة فى المكسيك منذ عام ١٩٤٤.

لينو نوباس كالبو

* ولد فى أسبانيا ١٩٠٥، وانتقل منذ طفولته إلى كوبا، وبعدما أتم تعليمه عاد ليعيش فى أسبانيا حيث عمل صحفيا ومترجما وكاتبا، بعدها ذهب إلى كوبا ليقوم بالتدريس فى دار المعلمين، وفى سنة ١٩٦٠ سافر إلى الولايات المتحدة ثم عمل أستاذا فى جامعة ثاراجوثا.

* من أعماله (القمر التاسع وقصص أخرى)، (لا أعرف من أكون)، (طرق للحكى، الأفنية الخلفية).

* قام إلى جانب كتاباته بإلقاء الضوء على الأدب الأمريكى الشمالى ودفعه لدائرة الاهتمام فى أمريكا الجنوبية، من خلال ترجماته للعديد من الأعمال الأدبية: ومنها «المحراب » لفوكنر، وينظر إليه ككاتب طليعى ورائد من رواد الواقعية السحرية.

المحتوى

- إهداء 5
- مقدمة 7

*** من البرازيل**

١ـ الحصان الذى كان يشرب البيرة ..جوان جيمارايش روزا 13
٢ـ الإخوة راجوبى ..... جوان جيمارايش روزا 27

*** من شيلى**

٣ـ نزيل المعلمة ..... ايزابيل الليندى 39
٤ـ انتقام ..... ايزابيل الليندى 53
٥ـ المنسى أكثر من النسيان ..... ايزابيل الليندى 67

*** من الأرچنتين**

٦ـ وسم السيف ..... خورخى لويس بورخيس 75
٧ـ السر المعجزة ..... خورخى لويس بورخيس 85
٨ـ إثور: أو متى تكلمت القرود ..... ليوبولدو لوجونيس 99

*** من المكسيك**

٩ـ الضيف ..... أمبارو دابيلا 115
١٠ـ الآنسة خوليا ..... أمبارو دابيلا 125
١١ـ تالبا ..... خوان رولفو 141
١٢– قرية بلا زمن ..... خيرا ردو ماريا 157
١٣ـ قانون هيرودس ..... خورخى إيبارجنجوتيا 167

*** من فنزويلا**

١٤ـ رقص الطبول ..... أرتورو أوسلار بييترى 175

*** من كولومبيا**

١٥ـ نعيما! ..... إرناندو تييث 191

*** من جواتيمالا**

١٦ـ مستر تايلور..... أوجستو مونتيروسو 201

*** من كوبا**

١٧ـ تيريسا ..... لينونوباس كالبو 213
ـ الكتاب 233

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

72- مؤلفو الروايات الكاذبة (وقصص أخرى)
اختيار وترجمة: د. أحمد هلال يس
73- آخر جرعة فى هذه الكأس
ترجمة وتقديم: أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
74- الزهرة الأخيرة (وقصص أخرى)
ترجمة: الحسين خضيرى
75- حديقة النبى
ترجمة: كمال زاخر لطيف
76- الغجرية
تأليف: ثربانتس
ترجمة: د. على البمبى
77- وردة حمراء.. وردة بيضاء
مختارات من الشعر العالمى
ترجمة: يوسف عبد العزيز
78- دعوة للفلسفة (بروتريبتيقوس)
عرَّبه وقدم له وعلَّقَ عليه: د. عبد الغفار مكاوى
79- الْقِرْيةُ الصَّغيرةُ
تأليف: شارل فرديناند رامى
ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد